التحديات التى تواجه العالم الإسلامى

البحث الفائز بجائزة مسابقة خدمة الدعوة و الفقه الإسلامى

عام ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

بقلم
الدكتور / توحيد الزهيرى

دار الجميل للنشر والتوزيع والاعلام
AL GAMIL
Publishing, Distribution and Media

التحديات التى تواجه العالم الإسلامى

البحث الفائز بجائزة مسابقة خدمة الدعوة والفقه الإسلامى

عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

بقلم

الدكتور / توحيد الزهيرى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ
مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

صَدَقَ اللهُ العَظِيمُ

سورة البقرة - الآية ١٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

وقف المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجرى
لصالح جائزة
خدمة الدعوة والفقه الإسلامى

شهادة تقدير

برعاية الأمام الأكبر شيخ الأزهر

تشهد لجنة الجائزة المشكلة بموجب حجة الوقف رقم ٢٢٨٨ لسنة ١٩٩٩
توثيق الجيزة برئاسة المستشار رئيس هيئة قضايا الدولة وعضوية مفتى جمهورية
مصر العربية وأمين عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وأساتذة جامعيين
بأن السيد / د. توحيد عبد الفتاح حواش طبيب بشرى
قد فاز بجائزة عام ٢٠٠٣ عن بحثه في موضوع
التحديات التى تواجه العالم الإسلامى

وعلى الله قصد السبيل

رئيس اللجنة وناظر الوقف
المستشار رئيس هيئة قضايا الدولة

يونيو ٢٠٠٣



الباحث الدكتور توحيد الزهيرى يتسلم شهادة التقدير من فضيلة الإمام الأكبر الدكتور / محمد سيد طنطاوى شيخ الجامع الأزهر الشريف.

الناشر:

دار الجميل للنشر

والتوزيع و الإعلام

٢ ش عائشة التيمورية

جاردن سيتى - القاهرة

ت: ٧٩٤٩٤٢٣ - ٧٩٤٥٨٩٥

فاكس: ٧٩٦٣٥٩٩

تاريخ النشر:

٢٠٠٣م / ١٤٢٤هـ

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/١٤٩٠٢

الترقيم الدولى (I.S.B.N.) 977-5849-35-7

تأليف:

د. توحيد عبد الفتاح الزهيرى

طبع بمطابع الشرطة بالدراسة

٥٩٠٣٠٣٠ - ٥٩٠٣٥٣٥

محتويات الكتاب

الكاتب فى سطور

الاســـــم : توحيد عبدالفتاح حواش الزهيرى

العمــــــل : طبيب بالهيئة العامة للتأمين الصحى .

تاريخ الميلاد : ١٦ فبراير ١٩٥٣

العنــــوان : جمهورية مصر العربية - محافظة القليوبية - مدينة طوخ - منزل رقم ١٩ بالطريق الزراعى السريع (القاهرة / إسكندرية) أمام نقطة مرور طوخ - تليفون : ٠١٣/ ٤٦١٩٢٦

المؤلفات المنشورة :

١- « كلمة من اللّه » : رواية تاريخية تتناول حياة المسيح « عيسى بن مريم » (عليه الصلاة والسلام) فى سياق عرض تاريخى شامل للعصر الذى عاش فيه وفى قالب روائى - عام ١٩٩٣ .

٢- « نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن » : دراسة تحاول تأسيس موقف فكرى إسلامى فى ميدان فلسفة الفن والجمال ، دار القلم بالقاهرة (٣٦ شارع القصر العينى) عام ١٩٩٨م .

٣- « القرآن معجزة كل العصور (مدخل إلى فهم النص القرآنى) » : طرح جديد لقضية الإعجاز القرآنى يضع أساسا جديداً لمعنى البلاغة- دار الشعب - القاهرة عام ٢٠٠١م .

٤- « المرضى فى رمضان ... ماذا يأكلون ومتى يصومون » : كتاب الشعب الطبى - دار الشعب - القاهرة - ١٥ نوفمبر ٢٠٠٠ م .

مؤلفات لم تنشر بعد :

١- الماء فى القرآن والسنة والعلوم الحديثة - مقالات فى التفسير .

٢- الوسطية والبحث عن هوية - البحث الفائز بجائزة جماعة الوسطية عام ٢٠٠٢ .

٣- من هو المسيح : إجابات جديدة عن أسئلة قديمة .

٤- الزواج العرفى - المشكلة والحل .

٥- عند الغروب (رواية قصيرة) : الرواية الفائزة بجائزة إحسان عبدالقدوس للقصة القصيرة والرواية - الجائزة الثالثة عام ١٩٩٢ .

٦- مرايا القدس : دراسة لتاريخ القدس فى الشعر العربى .

٧- البحث عن المجد الضائع : الجزء الأول من رواية تاريخية تتناول حياة الملك عبدالعزيز آل سعود .

كل إدعاءات وشعارات القومية العربية والوحدة الكاملة من الخليج إلى المحيط .

والجزائر نفسها تعانى من نتائج الحرب الأهلية الطاحنة التى اندلعت صبيحة إلغاء نتائج المرحلة الأولى من الانتخابات البرلمانية التى أفصح فيها الشعب الجزائرى بوضوح قاطع لكل شك عن هويته الإسلامية ، إذ أعلن اختياره لجبهة الإنقاذ ذات التوجه الإسلامى لتقود البلاد على الطريق الذى يستلهم النموذج الإسلامى ، وهو ما يعنى رغبته الأكيدة والعارمة فى الخلاص من نظام حكم جبهة التحرير التى كانت تقود البلاد على طريق التغريب . لقد رفض الغرب - رافع لواء الديمقراطية - نتائج الانتخابات التى شهد الجميع بنزاهتها وشفافيتها لأنها أتت بما لا يشتهى وأوعز إلى قواد الجيش - حماة النظام الشمولى الاستبدادى الفاسد - ليقوموا بالانقلاب العسكرى ويلغوا نتائج الانتخابات لتندلع الحرب الأهلية وتحترق فى نيرانها كل الآمال فى إنجاز النهضة والتنمية الحقيقية الشاملة .

وهكذا نجح الزعماء الذين حصلوا على أعلى الأصوات فى دخول السجن ، وبقيت الجزائر فى سجن التغريب مسلوبة الهوية والشعار المرفوع فى المعركة التى يشعلها الغرب هو محاربة الإرهاب وتطرف الإسلام الأصولى !!! وفى تونس الجارة الشقيقة اللصيقة بالجزائر تدور نفس المعركة ، ولكن على نحو أخف وطأة وأقل اشتعالاً ، وتونس هى رائدة العرب على طريق التغريب والعلمانية ، إنها « تركيا العربية » !!!

وإلى جوار تونس تقع ليبيا فريسة حصار اقتصادى صارم تفرضه أمريكا والغرب من ورائها لأنها إحدى الدول الراعية للإرهاب والساعية إلى امتلاك أسلحة الدمار الشامل ... تلك الأسلحة التى تصر أمريكا والدول الغربية على حرمان الدول الإسلامية من امتلاكها بدعوى الحفاظ على السلام العالمى ، الذى لا يعنى - فى الرؤية الغربية - سوى استسلام المسلمين لشروط الغرب ، إن ليبيا هى إحدى الدول «المارقة» طبقًا للتصنيف الأمريكى / الغربى والتى يجب تأديبها حتى لا تخرج عن صف الطاعة

وتضم قائمة الدول المارقة عدداً من الدول الإسلامية هى إيران وسوريا والسودان والعراق ، والأخيرة كانت الهدف الذى شُنَّتْ من أجل ضربه أكبر حملة عسكرية دولية بعد الحرب العالمية الثانية فيما عرف باسم عاصفة الصحراء التى انطلقت من أجل تدمير الآلة العسكرية الجبارة التى أعطاها الغرب للنظام العراقى ليضرب بها الثورة الإسلامية فى إيران ، ثم جاء الوقت لانتزاعها من العراق حتى لا يصبح خطراً على المصالح الغربية ، فكان غزو الكويت ، ثم تحريرها هو الفرصة المناسبة لنزع أسلحة العراق أى إصلاح خطأ المبالغة فى تسليحه !!!

اللافت للنظر والمثير للأسى أن كثيراً من الدول العربية والإسلامية تتسابق فى التعاون مع الغرب عندما يشن الحرب على إحدى الشقيقات أو يفرض الحصار عليها بدعوى الالتزام بالشرعية الدولية ، بينما لا تحرك ساكناً وقرارات الشرعية الدولية تدوسها أقدام اليهود فى إسرائيل التى كانت تسمى فلسطين من قبل ، لقد غرز الغرب إسرائيل فى قلب العالم الإسلامى لتكون يده التى يعبث بها فى مصير المسلمين ويضرب بها من يخرج على طاعته ، وها هى تعلن - فى صراحة ودون مواربة - أنها قامت من أجل بناء المعبد اليهودى المسمى بالهيكل الثالث ، مكان مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، أولى القبلتين وثالث الحرمين ، بينما العرب والمسلمون فى غيهم سادرون بأسهم بينهم شديد .

وفى الصومال والسودان وأفغانستان تشتعل الحروب الأهلية وفى دول وسط آسيا التى تحررت من أغلال الشيوعية السوفيتية تحتدم أزمة الهوية ، والأكراد لا يجدون وطناً قومياً ، والكشميريون والشيشان محرومون بقوة السلاح من حقهم فى تقرير مصيرهم والبوسنيون عجزوا عن إنشاء دولة إسلامية فى قلب أوربا ؛ قارة المسيحية التى تدعى العلمانية .

إن العالم الإسلامى يموج بالأزمات العميقة الخانقة كأنها ظلمات حالكة بعضها

فوق بعض فما هو سبيل الخروج إلى النور ؟!! لا يمكننا أن نجد السبيل دون أن نعرف «السر» الذى يكمن وراء هذه الأزمات المتشابكة المتتالية ، ومحال أن يصل إلينا النور قبل أن نمسك بالحبل الذى يربط كل هذه المشكلات ويضمها فى سياق واحد يُمكننا من فهم « سر » الأزمة ومن ثم يدلنا على طريق الخروج من الظلمات .

وأعتقد أن « سر » الأزمة يكمن فى علاقتنا - نحن المسلمين - بالمشروع الحضارى للغرب الذى سعى ويسعى للسيطرة على العالم ومحو كل الحضارات الأخرى وطمس معالم ثقافتها ، ذلك المشروع كان ولم يزل هو العدو التاريخى لأمتنا الإسلامية ، هذه هى حقيقة الأمس واليوم والغد وبها ينطق، بل يصرخ الماضى والحاضر والمستقبل ولكن نخبتنا يجعلون أصابعهم فى آذانهم رغم الصواعق، ويغمضون عيونهم بغطاء مطامعهم الدنيوية الدنيئة حتى لا يستمعوا إلى الحق ولا يروا الحقيقة .

عندما خبت جذوة الرسالة فى أمتنا وتقاعست عن أداء الأمانة التى شرفها الله بحملها وقعت أسيرة فى يد عدونا التاريخى ثم صارت له تابعة ذليلة ، ومنذ ذلك الحين توالت المشاكل واحتدمت الصراعات، هذا هو الحبل « السرى» الذى يقودنا إلى أصل الأزمة الحضارية التى يعانيها عالمنا الإسلامى ولهذه الأزمة أربعة أوجه هى التحديات التى تواجه العالم الإسلامى فى فجر القرن المسيحى الحادى والعشرين .

التحدى الأول هو التبعية للغرب وهو التحدى الذى يواجه الرسالة الإسلامية، فإذا كان الله (سبحانه وتعالى) قد شرَّفَ الأمة الإسلامية وكلفها بتبليغ رسالته إلى الناس جميعاً فهذا التكليف الإلهى يتناقض فى جوهره مع الشعور بالتبعية للغير فصاحب الرسالة ينبغى أن يكون قائداً رائداً لا تابعا مقلدا .

والتحدى الثانى هو التغريب الذى يهدد « هويتنا» الثقافية، فإن الغرب قد سعى ولم يزل يسعى لمحو معالم ثقافتنا ليجعل منا مسوخا غربية بلا ملامح ذاتية ، إن الغرب

يريدنا مجرد أشباه له تحاكيه ليرضى بذلك كبرياءه الذى يوهمه بأنه المثل الأعلى الذى يجب أن يحتذى ويحقق مصالحه فى نهب ثرواتنا باعتبارنا مجرد أدوات لبناء مجده وزبائن مستهلكين لروائع إبداعه !!!

والتحدى الثالث هو التمزيق السياسى الذى قطَّع أمتنا إلى أشلاء متناثرة متنافرة بفعل الحدود السياسية الوهمية التى رسمتها أيدى القوى الاستعمارية وبفضل الصراعات الطائفية والعرقية والسياسية التى يشعلها الغرب فى جسد أمتنا الواحدة طبقا لمقولة شيطان المطامع « فرق تسد » .

والتحدى الرابع هو إسرائيل التى تتحدى وجودنا نفسه على كافة المستويات وقد غرزها الغرب خنجرا مسموما فى قلب عالمنا الإسلامى .

هذه هى التحديات التى تواجه العالم الإسلامى أو بالأحرى التى يجب على العالم الإسلامى أن يواجهها .

﴿ *والله متم نوره ولو كره الكافرن* ﴾ .

توحيد الزهيرى

(١)

التبعية تحدى الرسالة الإسلامية

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

سورة آل عمران - الآية ١٣٩

(أ)

الإسلام هو رسالة أمتنا الحضارية

يقول الله (سبحانه وتعالى) : ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١) .

هذا : إشارة إلى« « القرآن » ؛ وحى الله إلى النبى محمد (ﷺ) ولا يشار إلى القرآن فى القرآن إلا باسم الإشارة « هذا» (٢) .

بيان : كشف عن الغيب ؛ الحقائق التى تغيب عن العقل البشرى وأولها وأهمها الطريق الواصل إلى الجنة حيث رحمة الله التى لا تغيب .

للناس : لمجموع الإنسان .

والمعنى هو : أن القرآن بيان من الله يوضح الغيب الذى يعجز العقل البشرى عن إدراكه بقدرته المخلوقة المحدودة، وهو بيان موجه إلى مجموع الإنسان أو جميع البشر، والسؤال هو من الذى حمله إلى الناس فى كل مكان حتى صار « الإسلام » حقا دينا عالميا حيث يمكننا - اليوم - أن نقطع بيقين كامل أنه لا توجد قطعة على ظهر الكوكب الأرضى لا يوجد فيها إنسان مؤمن بهذا القرآن ؟ !!

الأمة الإسلامية هى التى حملت هذا البيان الإلهى للناس فى كل مكان ، إنها مجموع البشر الذين آمنوا بنبوة محمد (ﷺ) وشكلوا الجماعات الإنسانية التى أقامت الحضارة الإسلامية عبر الزمن (التاريخ) ، لقد كانوا هم الوسيلة التى استعملها الله

لإبلاغ بيانه إلى الناس، وهذه إذن هى رسالة الأمة الإسلامية إلى مجموع البشر أو الجماعة الإنسانية، وهى مبرر وجودها التاريخى وحضورها الإنسانى .

وهدى : وإعانة على السير على الصراط المستقيم الموصل للجنة .

وموعظة : وتبصير بالمصير وتذكير بالعلم القديم فالموعظة هى المشار إليها فى قوله (سبحانه وتعالى) ﴿ **تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ** ﴾ (٣) .

للمتقين : للذين وقوا (حموا) أنفسهم من غضب الله بالإيمان بوحيه والعمل الصالح بطاعته فهم قد اتقوا عذابه برحمته .

وإذا كان القرآن بيانًا لكل الناس فإنه هدى وموعظة فقط لطائفة منهم هم المتقون وهم المؤمنون الذين يعتقدون بصحة ما ورد فى القرآن من حقائق الغيب ويلتزمون ما جاء به من عبادات تقيم الصلة بينهم وبين خالقهم - منزل هذا القرآن - ويطيعون أحكام شريعته فيما ينشأ بينهم من علاقات وما يشجر بينهم من خلافات ، إنهم هؤلاء الذين يُعْرَفُون فى الدنيا بظاهر أعمالهم باسم «المسلمين» .

هكذا لابد أن تنقسم الجماعة الإنسانية طبقًا للإيمان بالقرآن أعنى على حسب موقفها من البيان الإلهى إلى قسمين :

* **الأول** : وهم « المسلمون» الذين يصبغ القرآن مجمل حياتهم الاجتماعية ويعطيهم « هويتهم» الثقافية وعندما يشكلون أغلبية سكان الكيانات السياسية المعروفة باسم «الدول» فإن هذه الدول يُطلق عليها اسم «الدول الإسلامية» والتى تكوّن بمجموعها مايُشار إليه باسم « العالم الإسلامى» « وهو حقا عالم يمتد على مساحة هائلة من الأرض تبدأ من الشرق الأقصى حيث تطفو بين المحيطين الهادى والهندى جزر الهند الشرقية المعروفة باسم «إندونيسيا» التى تعد أكبر دولة إسلامية من حيث عدد السكان وتنتهى عند المملكة المغربية التى تطل على المحيط الأطلنطى وتواجه العالم الجديد (الأمريكتين) على الشاطئ الآخر ونسميها المغرب الأقصى ، ويمتد العالم الإسلامى

شمالاً حتى الحدود الجنوبية للاتحاد الروسى وجنوبًا حتى خط الاستواء .... أرض واسعة تضم العديد من الأجناس والسلالات البشرية ؛ عرب وفرس وترك وهنود وزنوج وبربر وبيض أوربيين وآسيويين ملونين وغيرهم يتكلمون بألسنة كثيرة ويشكلون الأغلبية فى عشرات الدول التى تنتمى إلى شتى البيئات الجغرافية ؛ الحارة والمعتدلة والباردة والصحارى ووديان الأنهار والغابات والسهول وا لجبال وسواحل البحار والمحيطات .

إن هذا التوزيع الجغرافى للدول الإسلامية فى قارات العالم القديم ؛ آسيا وأفريقيا وأوربا يثبت بما لا يدع مجالاً للشك عالمية (إنسانية) الإسلام وقدرته الذاتية على النفاذ إلى عقل ووجدان الإنسان فى كل مكان وزمان . ذلك وإن انتشار الإسلام فى جميع أجزاء الكوكب الأرضى « خارج العالم الإسلامى » فى أقليات قد تتباين نسبتها إلى مجموع السكان « فى الدول غير الإسلامية » من النصف أى خمسين بالمائة (٥٠٪) من الكتلة البشرية إلى ما دون الواحد بالمائة (١٪) يُمَكِّننا من أن نؤكد بيقين كامل أنه لا توجد بقعة من الأرض لا تحمل إنسانًا مسلمًا مما يقطع ببرهان ساطع على إمكانية أن يُقْبَلَ الإسلام فى كل المجتمعات البشرية ، ومن ناحية أخرى فإنه يثبت أن إبلاغ هذا القرآن ؛ البيان الإلهى للناس هو الرسالة الحضارية التى أعطت الأمة الإسلامية وجودها التاريخى وحضورها الإنسانى .

* **الثانى** : وهم غير المسلمين أو « الكافرون » الذين رفضوا البيان الإلهى (القرآن) وأنكروا نبوة محمد (ﷺ) وعندما يشكلون أغلبية الدول التى يسكنونها فإن تلك الدول توصف بالدول غير الإسلامية والتى تُكَوِّن بمجموعها العالم غير الإسلامى .

ولابد **أولاً** : أن نبين بكل وضوح أن هذا التقسيم لا يحمل أية شبهة للتمييز العنصرى أو التحيز العرقى ؛ لأن الإسلام ليس جنساً أو سلالة بشرية بل هو رسالة إلهية مفتوحة أمام البشر جميعاً من كل الأجناس والسلالات ليعتنقوا عقيدتها ويتشكلوا بعباداتها ويدخلوا فى إطار شريعتها ، وها نحن نرى العالم الإسلامى يضم ألوانا عديدة

من الجنسيات والقوميات والأعراق البشرية .

إن الإسلام عقيدة«تبشيرية» (إن صح التعبير) تدعو «الآخرين» للإيمان بها والأمة الإسلامية مكلفة بنص القرآن بالدعوة ونشر دين الله، على العكس من « اليهودية» التى حولها أصحابها إلى دين «قومى» يخص « بنى إسرائيل» وحدهم، فرسالة الله إليهم - فى وهمهم - تكريم من الله لسلالتهم وتشريف لهم فوق سائر الشعوب فهم - فى زعمهم - شعب الله المختار، وهم -بدافع من أنانيتهم البشرية - لا يريدون أن يشاركهم أحد من «الأغيار» فى الفضل الذى رفعهم فوق سائر الأمم .

ثانيًا : إن التاريخ الإنسانى لم يعرف دعوة دينية ولا حركة فكرية أو مذهباً فلسفياً كان أصرح أو أعلى صوتا من الإسلام فى إعلان وحدة الأصل الإنسانى والمساواة بين جميع البشر وإنكار التميز بالسلالة أو العرق ويكفى أن تقرأ **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾** (٤) . **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** (٥) .

إن القرآن لا ينكر حقيقة التفاضل بين البشر، ولكنه يوضح أن معيار التفاضل هو «التقوى» وهى عمل بشرى واقع تحت سلطان الإرادة والقدرة الإنسانية «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، هذا الحديث النبوى الشريف يعبر عن «روح» الحضارة الإسلامية التى جَسَّمَ تاريخها الإيمان العميق بوحدة التجربة الإنسانية واحترام «التنوع» البشرى الذى عده القرآن الكريم آية من آيات القدرة الإلهية .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٦) .

جاء بآية التنوع (اختلاف الألوان والألسنة) وسط الآيات المعبرة عن وحدة التجربة الإنسانية (الخلق من تراب والتزاوج والحب والحاجة إلى النوم وطلب الرزق والخوف والرجاء فى رحمة الله) ليعبر فى سياق بليغ عن المساواة بين جميع البشر فى صدورهم عن الإرادة الإلهية، وعن احترام تنوعهم الثقافى المشار إليه باختلاف الألسنة أى «اللغات»، وتنوعهم الجنسى أو القومى (السُلالى) المُعبَّر عنه باختلاف ألوان البشرة؛ الأبيض والأسود والأحمر أو الملون لأن ذلك التنوع بشقيه آية من آيات الله فى الكون .

وفى المقابل فإن من أسوأ ما يميز الحضارة الغربية المسيحية المعاصرة نظرتها العنصرية إلى «الآخرين » الذين لا ترى فيهم سوى عبيد وخدم محكوم عليهم بموجب أصلهم الدنئ أو سلالتهم« غير الآرية» أن يخضعوا للسيد الأوربى «الآرى» ذى الأصل الشريف والبشرة البيضاء ، وتنضح كتابات الفلاسفة والمفكرين والأدباء الغربيين بإفرازات تلك «الرؤية» العنصرية، كما يبرهن التاريخ على تفشيها فى نسيج الحضارة الغربية، فهى الحضارة التى ابتدعت أسطورة «الدم الأزرق» النبيل للملوك وهى التى سمحت للمستعمرين (٧) الأوربيين باستباحة حرمات ومقدسات الشعوب التى وقعت تحت احتلال جيوشهم الغازية، وهى التى أنتجت النازية والفاشية والصهيونية، بل ولا يزال الزنوج والملونون يعانون من بقايا التمييز العنصرى والاضطهاد فى الولايات المتحدة الأمريكية التى تقود الغرب فى الوقت الراهن ، كما تقدم « الداروينية الاجتماعية» أساسًا وتبريراً فكريًا للهيمنة الغربية أو العولمة الأمريكية .

ومن ناحية أخرى فإن تقسيم الأرض والجماعة الإنسانية طبقا للإيمان بالقرآن إلى عالمين الأول إسلامى والثانى غير إسلامى، هذا التقسيم ليس بدعاً فى تاريخ الفكر الإنسانى قديما وحديثًا، فإن الشيوعيين كانوا ولا يزالون يقسمون الأرض إلى عالمين ؛

الأول هو العالم الشيوعى الذى تدين نظم الحكم فى دوله بالمبادئ الماركسية على اختلاف تفسيراتها وتطبيقاتها، والثانى هو العالم غير الشيوعى ، ولا شك أن العالم الأول (الشيوعى) كان يعمل جاهداً على أن يضم العالم الثانى (غير الشيوعى) إليه بالدعوة إلى الشيوعية ومحاولة بسط أو بالأحرى فرض نفوذها على الآخرين، وكانت الأحزاب الشيوعية بكوادرها وأنصارها هى وسائل الدعوة .

وكذلك ينقسم العالم بالنسبة إلى الكنائس المسيحية إلى عالمين ؛ الأول هو العالم المسيحى الذى يدين بنفس المذهب، والثانى هو العالم غير المسيحى ويقوم أولوالأمر فى العالم الأول بالدعوة أى التبشير بالمبادئ المسيحية فى العالم الثانى وإلا فماذا تفعل - إذن - آلاف البعثات التبشيرية والإرساليات والمدارس المسيحية التى يرسلها وينشئها بابا الفاتيكان مؤيداً ومدعوماً من أوربا الغربية؟ وماذا يعنى إعلان خطة ووضع برامج لتنصير أفريقيا بحلول عام ٢٠٢٥ بضم الوثنيين وأتباع الديانات القديمة ومحاولة جذب المسلمين للكاثوليكية حتى تبقى المسيحية هى الدين الأول إن لم يكن الوحيد فى أفريقيا فى سباق محموم مع الزمن ومع الإسلام الذى يتسرب بقدرته الذاتية على النفاذ فى الشعوب والقبائل الأفريقية؟ كما لا تألوا الكنائس الأمريكية الأنجيليكانية جهداً فى إرسال بعثاتها وإنشاء مدارسها فى شتى بقاع الكرة الأرضية، وقد أصدر الكونجرس الأمريكى أخيرا قانون « الحرية من الاضطهاد الدينى » الذى لا يشك أحد فى أنه قد وُضِعَ خصيصا لحماية عمل المبشرين الأمريكيين فى البلاد الأخرى، كما تتحدث وسائل الإعلام الأمريكية خاصة المملوكة لليمين المسيحى عن الرسالة الصليبية الجديدة وعن إعداد وتهيئة العالم لعودة « المسيح» طبقاً للعقيدة الألفية المتفشية فى الفكر المسيحى الأمريكى على وجه الخصوص [٨] .

الوحى وضمان وصوله إلى كل من على الأرض من البشر ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ﴾ أو كما قال فى الآية الآخرى فى سورة الصف ﴿ والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ يعنى رغم أنف الكافرين، أو على عكس ما يحب الكافرون، لأنهم يحبون الظلام الذى تختفى فيه الحقيقة ويضيع الطريق إليها .

وفى الآيتين ؛ (٣٢) من سورة التوبة و (٨) من سورة الصف إعلان إلهى مؤكد وإصرار موثق على إبلاغ القرآن إلى جميع الناس فى كافة أنحاء الأرض وإلا فما معنى إتمام النور (الهدى) رغم كراهية الكافرين.

ويترتب على إبلاغ القرآن أن يقبل بعض الناس «نور الله» أو «الهدى» الذى أرسل به رسوله (ﷺ) فيعتنقون عقيدته ويلتزمون بعبادته، وهؤلاء هم الذين يعرفون فى الدنيا باسم «المسلمين»، أما الذين أنكروا أن يكون القرآن وحيا من الله إلى النبى محمد (ﷺ) فلم يؤمنوا ولم يطيعوا فهؤلاء هم «الكافرون»، وهم ينقسمون بدورهم إلى طائفتين : أهل الكتاب والمشركين كما جاء فى سورة البينة ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾[١١] .

« كَفَرُوا» [١٢] : أنكروا وحى الله إلى محمد (ﷺ) .

«أَهْلِ الْكِتَابِ» : هم أصحاب كتب الوحى السابق على نزول هذا القرآن فى هذه الدنيا أى اليهود والنصارى ؛ أصحاب الوحى المكتوب فى صحف هى التوراة وكتب الأنبياء والإنجيل التى صارت -بعد أن امتدت إليها يد العبث بالحذف والإضافة والتغيير- إلى ما يعرف الآن بأسفار العهد القديم وأسفار العهد الجديد، هؤلاء يؤمنون بوحى الله إلى أنبيائه وينسبون أنفسهم إلى أنبياء صادقين يشهد الله بنبوتهم، ولكنهم ينكرون نبوة محمد (ﷺ) .

«وَالْمُشْرِكِينَ» : هم الذين يؤمنون بتعدد الآلهة ولا ينسبون أنفسهم إلى نبى صادق

يشهد الله بنبوته، فهم الوثنيون أتباع الديانات الأرضية التى لا تستند إلى وحى إلهى نزل من السماء، بل يتبعون تعاليم بشرية ابتدعها فلاسفة وزعماء وكهان وزهاد وشعراء بوحى من أنفسهم أو من شياطينهم .

والكفر بالقرآن صفة مشتركة تجمع أهل الكتاب (اليهود والنصارى) مع المشركين (الوثنيين أهل تعدد الآلهة)، والآية تخبرنا أنهم جميعاً كانوا باقين على حالهم من الغفلة عن الحقيقة مستمرين على ضلالهم، يتشبث كل فريق منهم بأوهامه التى تلبى أهواءه معتزاً متفاخراً مستكبرا على غيره، حيث يزعم أنه وحده يملك الحقيقة وأنه وحده يعرف الطريق إليها ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ** ﴾ (١٣) . فلم يكونوا منفكين عن هذا التكبر بغير الحق ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ ، الآية الإلهية الفاصلة التى تبين الحق وتميزه عن الباطل وتكشف الأوهام وتفضح الأكاذيب وتدعو كل فريق إلى مراجعة نفسه على مقتضى الحق (شهادة الله) الذى تحمله هذه «البينة» ، إنها الآية التى تعيد فرز الناس أو تمييز الشعوب والقبائل على نحو جديد طبقا لموقفهم من البيان الإلهى، وما هى هذه « البينة» ؟! إنها ﴿ **رسول من الله يتلو صحفا مطهرة** ﴾ من عبث البشر فإنها تظل محفوظة بحفظ الله من أى تغيير يفسدها لذلك تبقى إلى النهاية بيان الله إلى الناس وشهادته على الأمم ، تحملها إليهم أمة الرسول المصطفى (ﷺ) .

لقد جاء القرآن ليغير العالم ويدفع الناس؛ الشعوب والقبائل للسير فى الصراط المستقيم الذى اختاره الله بحكمته ورأفته للإنسان؛ أكرم مخلوق على الله أسجد له الملائكة وسخر له كل ما فى السموات والأرض ، ولذلك لن تبقى الدنيا على حالها بعد ظهور «البينة» أعنى نزول القرآن كما كانت قبل نزوله ، وينقلنا هذا الفهم إلى الشق الثانى من رسالة الإسلام .

(٢) دين الحق :

لفظ **«دين»** يعنى حُكْم بمعنى القانون والحساب ، لذلك وُصِفَ يوم القيامة بأنه «يوم الدين» يعنى يوم الحكم ويوم الحساب ، فهو المقام الذى يحكم الله فيه على عباده أى يفصل فى شأنهم فيدخل بعضهم فى رحمته والآخرين فى عذابه ، وهو الموقف أو الوقت الذى يحاسب الله فيه عباده على أعمالهم ، ولا يتركنا القرآن الكريم حيارى فى فهم معنى هذا اللفظ فيقدم لنا تأويله فى قصة يوسف (عليه الصلاة والسلام) عندما دبر خطته ليؤوى إليه أخاه «بنيامين» ويدعو قومه للمجئ إلى مصر ، فوضع صواع الملك فى رحل أخيه بنيامين ، ثم أعلن عن سرقة الصواع ، وأرسل الجنود لإيقاف القوافل التجارية الخارجة من مصر والتفتيش بحثا عن الصواع المفقود **﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾**(١٤) .والنتيجة المنتظرة هى أن يُحْكَمَ على أخيه «بنيامين» بالإعدام أو الاستعباد طبقا لحكم (قانون) الملك الذى يُنْزِلُ هذه العقوبة أو تلك على السارق ، فما بالك والمسروق شئ يخص الملك ، فهل كان هذا ما يريده يوسف وسعى إليه ؟! كلا بل كانت خطة لضم أخيه إليه .

﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (١٤) .

« دين الملك» : حكمه أى قانون العقوبات أو القانون الجنائى الصادر باسم الملك أو المنسوب إليه والمعبر عن سلطته السياسية ، وما كان يوسف (عليه الصلاة والسلام) ليدخل أخاه فى حكم الملك أى ما كان ليرضى بوقوع أخيه فى سلطة الملك لينال العقوبة التى يقررها قانون الملك .

« الحق» : شهادة الله أى ما يشهده ويشهد به ، والحق من أسماء الله لأنه (سبحانه وتعالى) لا يشهد فى الحقيقة إلا نفسه (جل فى علاه) لأن كل ما فى الكون ليس إلا

المشركين فلن يتحقق الإظهار الإلهى لدين الحق إلا رغم كراهية المشركين، لذلك قال ﴿ولو كره المشركون﴾ .

هنا قال « المشركون » ولم يقل « الكافرون » لأن أهل الكتاب ؛ اليهود والنصارى يدخلون ضمن الكافرين ولكنهم كما قلنا ينسبون أنفسهم إلى أنبياء يشهد الله بصدق نبوتهم، ولذلك قبلت شريعة الإسلام وجودهم داخل إطار أحكامها وبقاءهم كمواطنين فى « الدولة الإسلامية» التى تسودها قوانين «دين الحق» الذى نظم حياتهم داخل المجتمع الإسلامى بعدة أحكام رئيسية تحفظ حقوقهم وتضبط علاقتهم بأخوتهم المسلمين .

ومن المفترض أن « إظهار دين الحق » أى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على الأرض لا يثير أية كراهية أو نفور لدى أهل الكتاب من اليهود أو النصارى، إن كانوا صادقين حقا فى إدعاء الإيمان بكتابهم، وبيان هذا أن اليهود تقوم دعواهم على الإيمان بالتوراة التى فيها أحكام شريعة موسى والتى لا تختلف عن أحكام الشريعة الإسلامية فى أى شئ ذى بال فيما يخص تنظيم وإدارة الحياة الاجتماعية، وإنما يقع الخلاف الجوهرى بين اليهودية «الحاضرة» أى ما آلت إليه اليهودية الأصلية وبين الإسلام فى العقيدة والعبادة أعنى فى مضمون الإيمان وطقوس وشعائر العبادات وهما مجالان تركت شريعة الإسلام الحرية فيهما للإنسان .

إن تماثل أحكام الشريعة فى كل من التوراة والقرآن فيما يخص بناء المجتمع والعقوبات على الجرائم الكبرى (القتل - الزنا - السرقة .....) حقيقة ناصعة يتم التغافل أو بالأحرى التعامى عنها لأسباب شتى لا مجال هنا للخوض فيها ولعل أولها الجهل الفادح والعجز الفاضح عن فهم النص القرآنى الذى صرنا نخر عليه صماً وعمياناً ولا نتدبره، غير منتبهين إلى تحذير الله لنا من السقوط فى هذه الهاوية كما جاء فى قوله (سبحانه وتعالى) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (١٨) وقوله فى

وعُومِلُوا فى المجتمع المدنى كمسلمين فإن اليهود الآخرين الذين لم يغيروا « ظاهرهم» وظلوا معلنين ليهوديتهم كانوا أيضا يعاملون الرسول (ﷺ) باعتباره حاكما لدولة المدينة التى تضمهم مع المسلمين، وأعتقد أن قراءة الآيات من ٤١ إلى ٤٥ من سورة المائدة توضح تطابق «حكم الله» أى « دين الحق» - كما بينا - فى كل من التوراة والقرآن.

أما المسيحيون ؛ أهل الإنجيل فإنهم مأمورون بنص أقوال المسيح عيسى بن مريم (عليه الصلاة والسلام) باتباع أحكام شريعة موسى التى أوضحنا آنفاً أنها تتطابق مع أحكام القرآن الكريم، ويكفى هنا أن نذكر على سبيل المثال فقط ما جاء على لسان المسيح (عليه الصلاة والسلام) فى إنجيل متى « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإنى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل، فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعَلَّمَ الناس هكذا يدعى أصغر فى ملكوت السماوات »[٢١].

وقوله « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه» [٢٢] .

ولا أعتقد أنه يمكن أن يوجد ما هو أوضح أو أصرح من مثل هذه الأقوال التى تناثرت فى نصوص الأناجيل المتداولة فى التعبير عن أن عيسى بن مريم (عليه الصلاة والسلام) لم يأت بشريعة جديدة، وأنه قد جاء مؤكدا صحة أحكام التوراة وداعيا بنى إسرائيل للعمل بها ليعودوا إلى طريق الله الذى ضلوا عنه، ولاشك أن هذه النصوص الإنجيلية تتوافق مع « الرؤية» القرآنية لرسالة المسيح (عليه الصلاة والسلام) التى أوجزتها فى بلاغة باهرة الآية القرآنية التى يقول الله فيها ﴿ **وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾[٢٣] .

المسيحى الصادق مأمور طبقا لتلك النصوص الإنجيلية سالفة الذكر باتباع شريعة موسى وتطبيق أحكامها التى تتطابق مع أحكام القرآن، ولذلك قال الله فى الآية التالية مباشرة ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢٤) .

لكن المسيحية سارت فى الواقع / التاريخ فى اتجاه يخالف النصوص الإنجيلية التى أشرنا إلى مَثَلَيْنِ منها، وتحولت إلى ديانة أخرى تختلف تماما عن اليهودية المستندة إلى التوراة (أسفار موسى) وكتب الأنبياء حيث أُلغيت الشريعة وصار مضمون العقيدة المسيحية هو الإيمان بالمسيح المخلص (المنقذ) الذى جاء ليفتدى بنفسه البشر الخاطئين بدمه المسفوك على الصليب، وابتدعت عبادات (طقوس) توافق هذه العقيدة، أما الأحكام التى تضبط أمور الدنيا أو أحوال المعيشة والعقوبات التى يجب أن تنزل على مرتكبى الجرائم (حدود القتل والسرقة والزنا ، ......) فَأُخِذَتْ من تراث الأمم الوثنية التى دخلت فى المسيحية يعنى التى اعتنقت عقيدة الصلب والفداء والثالوث الآلهى (الآب والابن والروح القدس) .

ولم يعد المسيحى طبقا لهذه الديانة الجديدة ملزما دينيا بتطبيق أى نص فيما يخص شئون الدنيا أو شئون الجسد، إذ أصبحت المسيحية ديانة بلا شريعة؛ عملاً بالتأويل الواسع للنص الإنجيلى الأشهر « إعط مالقيصر لقيصر وإعط ما لله لله »، وهو نص يلزم المسيحى بطاعة القيصر، وهو ما يفرض عليه الخضوع لأحكام ولى الأمر (الملك أو الرئيس أو الإمبراطور) فى كل أمور المعيشة مادام القيصر (ولى الأمر) لا يتدخل فيما لله أى العلاقة الروحية بين الإنسان وربه التى هى العقيدة والعبادة، وصار المسيحيون فى كل أنحاء العالم يخضعون لقوانين شتى تختلف باختلاف المجتمعات التى غزتها المسيحية .

وعلى سبيل المثال ليس فى الإنجيل نص يحدد كيفية تقسيم الإرث، وهو أمر حيوى لا يُسْتَغَنى عنه، فلا يملك أى مجتمع من البشر مكتوب عليهم الموت رفاهية ترك هذا الأمر بلا حكم يحدد كيف نتصرف فى ممتلكات الميت ؟!!! فى المجتمعات المسيحية الغربية يعطون الإرث كله للإبن الأكبر طبقًا لتراث عريق من الجاهلية والظلم دون أدنى تعارض مع نص الإنجيل الذى لا يجدون فيه الحكم فى هذا الأمر الهام.

أما المسيحيون فى مصر مثلا فيأخذون بمذهب الإمام أبى حنيفة المستمد من أحكام الشريعة الإسلامية، لأن هذا المذهب كان هو المذهب الرسمى إبان الحكم العثمانى لمصر قبل الاحتلال البريطانى، وليس فى الإنجيل نص واحد يمكن الأخذ به أو استلهامه عند تقسيم تركة الميت، ولذلك يأخذ المسيحيون بالنظام السائد فى الوطن الذى يعيشون فيه.

وسواء أخذنا بالنصوص الإنجيلية التى تأمر المسيحيين بطاعة أحكام التوراة، أو بالتأويل الذى يلزمهم بطاعة ولى الأمر (القيصر)، فإن النتيجة واحدة وهى أن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية من المفترض ألاَّ يثير كراهية أهل الإنجيل لو كانوا حقا مؤمنين بما جاء فيه لأن هذه الأحكام إما إنها توافق أحكام التوراة التى أمر المسيح (عليه الصلاة والسلام) بطاعتها أو أنها تصير أحكام قيصر عندما يصبح الحاكم مسلما.

وعلى ضوء ما قدمنا يتبين لنا زيف الادعاءات الأمريكية والغربية بصفة عامة عندما يشن الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية حملة ضارية على السودان من أجل إعادة منع تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، إن الشعار الذى يرفع فى هذه الحملة المسعورة هو حرية الاعتقاد والحماية من الاضطهاد الدينى، حيث يحاولون الإيهام بأن فى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية اضطهاد للمسيحيين، وإنهم لن يسمحوا - كما قال جورج بوش الأب وقت أن كان نائباً للرئيس - بتطبيق أحكام الإسلام على المسيحيين، كما لو كان فى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ظلم يقع على المسيحيين أو

إجبار لهم على مخالفه دينهم، والحقيقة على عكس هذا الكذب الفاجر تماما ولكنه التدخل الاستعمارى العتيد من أجل السيطرة وفرض التبعية ونهب الثروات يتدرع ويتذرع بشعارات إنسانية جوفاء!!

إن انتشار الإسلام كعقيدة وعبادة يعد ثمرة طبيعية لإجابة الدعوة التى يقوم بها المؤمنون بالقرآن ولابد أن يفضى هذا إلى انتشاره كشريعة تضبط حياة المجتمع تعبيراً عن هوية الأمة التى وُلِدَتْ من الإيمان بالرسالة، وانتشار الشريعة يعنى زيادة الأرض التى يحكمها «دين الحق» أى التى تخضع لأحكام (قوانين) الشريعة الإسلامية، وذلك على حساب شرائع الجاهلية التى يحتكم إليها المشركون؛ ولذلك قال الله ﴿**هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾ يعنى« رغم كراهية المشركين الذين يكرهون ويرفضون «حكم الله» بدافع من كفرهم وعنادهم وتمردهم على أمر الله فلو أنهم أعملوا عقولهم وتدبروا أحكام الشريعة لعلموا أنها العدل. أما الكافرون من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) فإن شريعتهم طبقا لنصوص كتابهم هى نفسها شريعة الإسلام التى تقبلهم كمواطنين على قدم المساواة مع المسلمين، فهم أهل ذمة الله ورسوله (ﷺ) ولهم داخل الدولة الإسلامية وفى إطار الشريعة حقوقهم المحفوظة وعليهم الواجبات المفروضة على المواطن إزاء الدولة التى تمنحه حق المواطنة .

(جـ)

ضريبة الجزية لا تتعارض مع الحرية الدينية

إن الشريعة الإسلامية تفرض على أهل الكتاب الداخلين تحت سلطانها « الجزية »، هذه الضريبة يلغو حولها كثيراً أدعياء العلمانية الزائفة أو المغشوشة التى يُبَشِّر بها فى بلادنا المنكوبة بهم أهل التبعية للغرب من نخبتنا التى شُوِّهَتْ أدمغتها، فواجبنا الآن أن نقدم الحقائق الآتية لرفع الشبهات وإبطال الافتراءات .

أولاً : الجزية ضريبة يفرضها الحاكم المسلم على أهل الكتاب (اليهود والنصارى) الداخلين تحت سلطانه، والواجب عليهم طاعته باعتبارهم مواطنين فى دولة، مقابل واجبه فى حمايتهم والدفاع عن حياتهم، فهى ضريبة مقابل حق حماية النفس، ولذلك فهى تسقط إذا شارك الكتابى فى الجيش والقتال دفاعًا عن الوطن الذى يتشارك فيه المسلمون مع الكتابيين، لأنه فى هذه الحالة قد أصبح من المحاربين الذين يشاركون فى حماية أنفس المواطنين هذا هو ما يحدث الآن فى أغلب جيوش الدول الإسلامية كما أنها تسقط عن الكتابى إذا عجز عنها لفقر أصابه أو مرض أو شيخوخة أقعدته عن العمل وكسب المال، وهذا ما فعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) مع اليهودى العجوز الفقير الذى عجز عن دفع الجزية (الضريبة) المفروضة، فالخليفة المسلم كان يتعامل مع اليهودى باعتباره مواطنًا فى الدولة الإسلامية خاضعًا لسلطان القانون (الشريعة) وليس عدواً محاربًا ، ومن ثم فلم تكن الجزية محاولة لإجبار اليهود على الدخول فى الإسلام أو اعتناق عقيدة القرآن بدليل أن الخليفة أسقطها وظل الرجل العجوز على يهوديته .

ثانيًا : الدولة العثمانية : وهى دولة إسلامية عندما أعفت أهل الولايات من الجهاد (القتال) وجعلت واجب الدفاع عن الدولة والمواطنين على الجنود الأتراك وحدهم، فرضت « الجزية» على المسلمين فى بقية أطراف الدولة العثمانية أو ولايات الخلافة

الإسلامية وأسمت هذه الضريبة بنفس الاسم « الجزية » .

ثالثًا : الدولة الإسلامية تفرض على المواطنين المسلمين ضريبة « الزكاة » التى يتم تحصيلها (جبايتها) رسميا بقوة القانون وبواسطة موظفين حكوميين إن صح التعبير هم الجباة ، والامتناع عن دفع الزكاة يعد جريمة كبرى إذ يشكل تمردا على سلطة الدولة يجب مواجهته بالقوة حفاظًا على هيبة الدولة ، وقد شن الخليفة الأول أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) حربا عنيفة على ما نعى الزكاة ، وهكذا يجب أن تفعل كل سلطة محترمة لها رسالة وترتبط مع شعبها بموجب عقد اجتماعى أو بيعة بالتعبير الإسلامى الأصيل .

فالمسلمون إذا كانوا مؤمنين حقا فإنهم سوف يسارعون بإيتاء الزكاة تعبيرا عن إيمانهم وسيتعاونون فعلا مع رجال السلطة عند تحصيل (جباية) الزكاة ، أما إذا فقدوا إيمانهم فعلا ولكنهم ما زالوا يتظاهرون بالإسلام فيجب عليهم حينذاك دفع ضريبة الزكاة باعتبارهم مواطنين خاضعين لسلطة الدولة ، أما إذا كانوا يريدون التمرد على السلطة فإنهم سيرفضون دفع الزكاة ، وحينئذ يجب محاربتهم حتى يعطوا الزكاة عن يد وهم صاغرون ، كما فعل الخليفة الأول بالمرتدين فى صدر الإسلام بعد وفاة النبى (ﷺ) .

إننا ههنا أمام قضية تمرد على السلطة أو محاولة لقلب نظام الحكم إذا استعملنا اللفظ المعاصر - الذى ابتذل من كثرة استعماله بالباطل ، ولسنا أمام قضية كفر أو إيمان ؛ لأن الحق فى جباية الأموال أو تحصيل الضرائب هو أخص خصائص السلطة السياسية أو هو جوهر الاعتراف بشرعية السلطة ، وهل يمكن توهم أن القبائل المرتدة التى حاولت منع الزكاة بعد هزيمتها فى ساحة القتال واضطرارها لدفع الزكاة كانت تفعل هذا عن طيب نفس أم أنها أجبرت وبقوة السيف على دفع الزكاة عن يد وهى صاغرة !!!

رابعًا : ينقلنا هذا إلى تفسير الآية التى يشرثر حولها أدعياء الدفاع عن حقوق الإنسان والحرية من الاضطهاد الديني والتي يقول الله فيها : ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾ (٢٥) .

لكى نفهم هذه الآية علينا أن نتذكر أن النبى (ﷺ) بدأ يدعو الناس للإيمان بالقرآن والدخول فى الإسلام، فآمنت به قلة مستضعفة تعرضت للاضطهاد العنيف والبطش الشديد من جانب الكافرين المشركين، ولم يكن بد من الهجرة إلى أرض أخرى تكون الأغلبية فيها ومن ثم الغلبة للمؤمنين المسلمين فكانت المدينة المنورة (يثرب) هى أرض أول دولة إسلامية حيث أقيم المسجد النبوى ليكون معبداً ومقراً للحكم .

وبدأت آيات « التشريع » يتوالى نزولها ومؤسسات الدولة / المدينة الوليدة يتواتر إنشاؤها (بيت المال، القضاء ، الجيش ....) ، وكانت تلك الدولة هى أيضًا أول دولة فى التاريخ متعددة الأديان أو بالأحرى ثنائية الدين حيث كانت تضم المسلمين مع اليهود بموجب العهد الذى عقده الرسول (ﷺ) مع زعماء القبائل اليهودية للتعايش السلمى والتعاون والتحالف ضد أعداء الدولة « الخارجيين» من المشركين، وسمى ذلك الاتفاق « بدستور المدينة» .

وبموجب ذلك العهد فرض الرسول (ﷺ) سلطته السياسية على الدولة / المدينة وصار هو رئيسها بلا جدال، حيث كان اليهود يذهبون إليه للتحاكم كما حكت الآيات إظهاراً للطاعة، وأسلم بعضهم ظاهراً على سبيل النفاق طلبًا للدس والحرب الخفية وإشعال الفتن مع التستر وراء درع / شعار الإسلام .

ولكن اليهود لم يوفوا بعهدهم الذى عقدوه مع الرسول (ﷺ) وتكررت منهم محاولات قتله (اغتيال رئيس الدولة) وإثارة الفتن والاضطرابات الداخلية، وأخيراً التحالف مع المشركين من كفار قريش ضد المسلمين فى المدينة يعنى التحالف مع الأعداء الخارجيين ضد «الوطن» ، إنها إذن جريمة الخيانة العظمى ، وما من سبيل لوأدها إلا القتال لفرض سلطة الدولة وهيبتها وإخضاع المتمردين الذين يبغون تقويضها ، وهنا يجب

إلغاء الاتفاق أو فسخ العقد حيث ثبتت خيانة الطرف الثانى، ويجب على المسلمين وحدهم حينئذ دون غيرهم حماية وطنهم أو دولتهم من الأعداء الخارجيين، حيث لا يمكن الثقة فى الحليف الخائن عند الحرب، لأن الاعتماد عليه فى القتال يعنى الهزيمة المحققة وزوال سلطان الدولة ، فهل يتم طرد اليهود الخونة من المدينة (الوطن)، وتصبح الدولة ذات دين واحد لا تضم غير المسلمين للخلاص من شرهم، أم يُكْتَفَى بتأديبهم وإخضاعهم لسلطة الدولة والقيام بحمايتهم كمواطنين مقابل دفع ضريبة يساهمون بها فى المجهود الحربى الذى يوفر لهم الحماية والأمن ؟ ! ! ! اختار « دين الحق» كقانون عام الإجابة الثانية وهى بقاء أهل الكتاب (اليهود والنصارى) داخل الدولة مع إلزامهم بدفع الجزية مقابل توفير الحماية لهم، وإلاَّ فيمكنهم الخروج من الدولة دون أن يدفعوا شيئًا، كما يمكنهم الانضمام إلى الأعداء وقتال المسلمين وهنا لا مجال للحديث عن الجزية بل هو القتال ! ! !

ينبه الله المؤمنين فى هذه الآية - بعد افتضاح خيانة اليهود إلى حقيقة موقف أهل الكتاب (اليهود) الذين تحالفوا مع الأعداء (كفار قريش) ناقضين عهدهم مع الرسول (ﷺ) فيبين أنهم فى الحقيقة يكفرون بالله أى لا يصدقون وحيه ، وينكرون اليوم الآخر، ويرتكبون المحرمات، ولا يلتزمون بأحكام الشريعة الواردة فى الكتاب الذى يزعمون أنهم مؤمنون به، ولا سبيل إلى إرجاعهم إلى صوابهم كأهل ذمة مُعاهدين ومُطالبين بالوفاء بعهدهم الذى عقدوه مع المسلمين فى المدينة إلاَّ بالقوة، ولذلك أمر المؤمنين بقتالهم **﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾** .

قوله **﴿لايدينون دين الحق﴾** يعنى خروجهم على سلطة الدولة الإسلامية التى رضوا بالدخول تحت سيادتها وتعاهدوا مع المسلمين على المحافظة عليها، وقد أوضحنا من قبل معنى دين الحق .

ولم يقل حتى يُعلنوا إسلامهم أو حتى يؤمنوا، ومن ثم فإنهم سيظلون بعد القتال والهزيمة التى ستحيق بهم على عقيدتهم دون تغيير أحرارًا فى ممارسة شعائر عباداتهم، فإنه سبحانه وتعالى لا يريد إجبارهم على الإيمان؛ لأن الإيمان فى جوهره اختيار لا إكراه فيه. قوله ﴿**عن يد**﴾ يعنى مُجبرين مُرغمين.

﴿**وهم صاغرون**﴾: وهم يشعرون بالصغار الذى هو الذلة والمهانة جزاء خيانتهم للعهد .... فلم يطلب منهم تغيير عقيدتهم وإعلان إسلامهم، بل طلب منهم دفع الضريبة التى وافقوا على دفعها أى فُرضت عليهم بموجب اتفاقهم مع المسلمين على البقاء فى المدينة كمواطنين رضوا بالعيش معاً فى نفس الوطن (الدولة) !!!!

(د)

أهداف الدعوة الإسلامية

لقد بدأ الرسول (ﷺ) الدعوة امتثالاً لأمر الله الذى خاطبه بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ (٢٦) ، وقوله ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢٧) محدداً ميدان الدعوة الأول بالعشيرة القريبة فالأهل والأقارب والجيران هم المجال الأول أو الدائرة الصغيرة التى تبدأ بها الدعوة .

وأمره أن يعلن عن هويته ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ (٢٨) وقوله «وَقُلْ» يعنى أعلن وأبلغ الناس (٢٩) وبين أن رسالة القرآن ستشق الصفوف وتغير الدنيا وتعيد تقسيمها على نحو جديد فقال له ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣٠) فالصدع هو الشق وصَدَعَ الشئَ شقَّه نصفين وفرقه (٣١) .

ثم وسع دائرة الدعوة فقال : ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾(٣٢) وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾(٣٣) .

﴿ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾(٣٤) : مكة وهنا انتقل من دائرة ﴿ عشيرتك الأقربين ﴾ إلى دائرة أوسع تشمل ﴿ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ بكل ما فيها من عشائر .

﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ : دائرة أوسع تشمل كل القرى حول مكة، فإذا كانت الحقيقة العلمية تقول أن مكة هى نقطة المركز لدائرة الأرض كلها، فإذا بسطنا اليابسة على سطح ورسمنا دائرة تحيط بأطراف الأرض فإن مكة تكون هى مركز تلك الدائرة، والكعبة «البيت الحرام» هى مركز مكة فهى نقطة البداية !!!

ومجال الدعوة - إذن - يتسع ليشمل كل الأرض وجميع الناس وهى الحقيقة التى أعلنها صراحة فى قوله ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ (٣٥) والعالمين هم مجموع البشر إذ قال على لسان لوط (عليه الصلاة والسلام) ﴿ **أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ (٣٦) فبين أن ﴿ **الْعَالَمِينَ** ﴾ هم الناس وقال على سبيل التحديد القاطع والتعريف الجامع المانع ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (٣٧) .

قوله ﴿ **كَافَّةً لِّلنَّاسِ** ﴾ فيه تقديم وتأخير، فهو يعنى (للناس كافة) أى لجميع الناس وقدم لفظة ﴿ **كَافَّةً** ﴾ للفت الانتباه إلى معنى شمول الرسالة لجميع الناس وتقديمه وإبرازه أمام العقل للتأمل فيه لأنَّ حقيقة عالمية الرسالة الإسلامية وتوجهها إلى جميع الناس قد تخفى على أكثر الناس، ولذلك ختم الآية بقوله ﴿ **وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ لأنهم لا يصدقون كيف يمكن لرجل نشأ فى بيئة جاهلية تتفشى فيها الأمية أن يتوجه برسالة يخاطب بها العقل الإنسانى فى كل أنحاء الأرض على مر العصور !!!

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا** ﴾ (٣٨) .

ومعلوم أن النبى (ﷺ) لن يصل بصوته البشرى إلى الناس كافة، ومحال أن ينطفئ السراج الإلهى بموت جسد الرسول محمد (ﷺ) وقد جعله الله ﴿ **مُّنِيرًا** ﴾ فأمته (ﷺ) تقوم بحمل الرسالة من بعده وتواصل عمله، وبذلك وحده تستحق الانتساب إليه وأن يكون (صلوات الله عليه) شاهدا (قائداً) عليها أى دليلها فى سيرها ومرجعها الأعلى الذى تحتكم إليه ، ولذلك خاطب الله أمة النبى محمد (ﷺ) بقوله :
﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾(٣٩) .

فحدد مضمون رسالة الأمة الإسلامية التى تُخَاطِبُ بها سائر الأمم فى ثلاثة أهداف تمنح الأمة الإسلامية دورها فى صناعة تاريخ البشر ومشاركتها فى بناء الحضارة الإنسانية وتشكل أهم معالم «شخصية» هذه الأمة المجتباة لحمل رسالة الله وهى :-

١- الدعوة إلى الخير ﴿يدعون إلى الخير﴾ :

الخير هو الإحسان إلى الغير، ويتجلى فى صور عديدة منها : هداية الضال وإرشاد الحائر وإغاثة الملهوف والتفريج عن المكروب ومساعدة الضعيف وإعانة المحتاج وغيرها من صور الرأفة التى تعنى محبة الإنسان ، ولاشك أن أصل الخير هو الإيمان بالله لأن الله هو الرؤوف ؛ المحب للإنسان ومن ثم فإن الدعوة إلى الخير هى فى حقيقتها الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذه هى أول واجبات الأمة الإسلامية، وأول بنود رسالتها والقرآن الكريم هو المعبر عن الإيمان لأنه « صوت» الله فى الأرض، فحفظ القرآن ونشره وتعليمه للأمم الأخرى هو أساس الدعوة وجوهر رسالة الأمة الإسلامية .

٢- الأمر بالمعروف ﴿ ويأمرون بالمعروف ﴾

لا يمكننا تعريف «المعروف» إلا إذا عرفنا معنى «المنكر» لأن القرآن العظيم قد جعلهما فى كامل نصه المقدس «ضدين» أو نقيضين متلازمين فأمر بالأول ونهى عن الثانى ؛ أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فما هو المنكر ؟!!

عندما نظر الله (سبحانه وتعالى) إلى جميع ما صنع بالغيب فإنه لم يجد «ظلماً» فيما صنعه بخلقه إذ لم يصدر منه (جل فى علاه) أى ظلم ؛ لا فعلاً ولا قولاً، ولذلك فقد « أنكر» الظلم ولم يعرفه، فالمنكر - إذن - هو ما أنكره الله (سبحانه وتعالى) يعنى هو «الظلم»، ولذلك فعندما جمع عباده بالغيب قبل ظهورهم فى هذه الدنيا قال لهم ، كما جاء فى الحديث القدسى «يا عبادى قد حَرَّمتُ الظلم على نفسى فلا تظالموا».

إن الله هو العدل ومن ثم فهو ينكر الظلم، والمعروف- إذن - هو العدل لأن الله (سبحانه وتعالى) قد عَرَفَه فى كل ما صنعه، والأمر بالمعروف هو الأمر بالعدل أى حكم الله الذى يكلف عباده ما يطيقون إذ من المحال بموجب الإيمان أن نبحث عن العدل خارج حكم الله، فالعدل - إذن - هو «دين الحق» أى الشريعة الإسلامية، ونخلص من هذا الفهم إلى أن الأمر بالمعروف يعنى الأمر بتنفيذ أحكام الشريعة التى عَرَّفها الله لعباده بواسطة نبيه ورسوله (ﷺ).

٣- النهى عن المنكر ﴿ وينهون عن المنكر ﴾ :

والمنكر هو الظلم - كما بينا - ويعنى مخالفة حكم الله (دين الحق)، ويصبح معنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى النهاية هو حظر الأحكام المخالفة لشريعة الإسلام أى محو «حكم الجاهلية» ليحل محله «حكم الله»، أو بكلمات أخرى: إحلال أحكام الشريعة الإسلامية مكان شرائع (قوانين) المشركين فتصير السيادة لحكم الله وهذا هو معنى إظهار دين الحق على الدين كله، كما جاء فى قوله (سبحانه وتعالى) **﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾**.

ويفضى هذا حتما إلى زيادة مساحة السيادة السياسية للإسلام على حساب «الآخرين» كنتيجة طبيعية لانتشار العقيدة الإسلامية وتحول «الكافرين» إلى مسلمين كثمرة للدعوة إلى الخير (الإيمان).

والآية الكريمة لا تلزم المسلمين بتنفيذ أحكام الشريعة على الأرض التى تكون فيها الأغلبية والسيادة للمسلمين فقط، بل هى تلزمهم أيضاً بأمر «الآخرين» بطاعة حكم الله (العدل) أى تطبيق أحكام الشريعة وإبطال أحكام الجاهلية، لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يتجه للذات أولا، وللغير ثانياً، فالأمة الإسلامية مطالبة بموجب نص الآية بدعوة الآخرين (الأمم الأخرى) إلى الخير وأمرهم بالمعروف (حكم الله) ونهيهم عن المنكر (حكم الجاهلية) باعتبار أن حكم الله هو العدل، وأن حكم الجاهلية هو الظلم

والأمر أو النهى يكون لمن له الحُكْمُ أو السيادة على الأرض، فلا يُعْقَل أنْ يَأْمُر أوَ ينَهى من لا حُكم (سيادة) له على الأرض، وإلاّ فما معنى استعمال لفظ «يأمُرون» ولفظ «ينهون»؟!!!

إن الأمة الإسلامية مكلفة من قبل الله بالخروج إلى «الناس» والتوجه إلى الأمم الأخرى لدعوتها إلى الإيمان (اعتناق العقيدة الإسلامية) والدخول فى حُكم الإسلام كشريعة تضبط الحياة الاجتماعية للبشر، وهذا -كما قلنا- هو معنى إظهار دين الحق على الدين كله، فالأمة الإسلامية مأمورة بالخروج من حدود الدولة أو الدول الإسلامية التى ثبتت فيها سيادة المسلمين واستقرت أحكام الشريعة الإسلامية على أرضها إلى الخارج وهو الأمر الذى أعلنته صراحة الآية الكريمة التى يصف فيها الله الأمة الإسلامية بقوله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤٠).

قوله ﴿أُخْرِجَتْ﴾ يعنى أمرناها بالخروج إلى الناس فخرجت وعبر عن الأمر بالخروج على هذه الصيغة «أُخرجت» دون ذكر «الآمر» (الفاعل) لانعدام الاشتباه فيه وتيقن العلم به، فحضوره (سبحانه وتعالى) لا يحتاج إلى أدنى إشارة لأنه هو الله المتكلم بهذا القرآن.

والتعبير بصيغة الماضى «أُخرِجَتْ» يفيد نفاذ الأمر وتحقق الخروج الذى شهدته الأرض وحفظه التاريخ حيًا فى حركة الفتوحات الإسلامية التى نشرت الإسلام وبسطت سيادته السياسية فى كل أرجاء الأرض.

وقوله ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ صيغة مقارنة بين خروج الأمة الإسلامية وخروج غيرها من الأمم، فقد خرج المصريون القدماء الذين نسميهم «الفراعنة» ليبسطوا نفوذ «الدولة المصرية» القديمة على الأرض خارج «حدود مصر» التاريخية فبسطوا سلطان ملك مصر فى

فترات مختلفة على الشام والسودان، وكذلك فعل البابليون والآشوريون والكلدانيون والفرس واليونان والرومان فى أطوار التاريخ المتعاقبة حيث خرجت كل أمة من تلك الأمم تفرض نفوذها وتوسع سلطانها على الأرض على حساب «الآخرين»، وهذا بالضبط ما فعلته فى العصر الحديث ولا تزال تفعله الأمم المسيحية فيما يعرف بحركة الاستعمار أو الفتوحات الاستعمارية إن صح التعبير .

الآية الكريمة تقرر بوضوح قاطع أن الأمة الإسلامية كانت أفضل (خير) من غيرها من الأمم وأن خروجها فى الفتوحات أفضل (خير) من خروج غيرها ، وقدمت الآية حيثيات الحكم بأفضلية (خيرية) الأمة الإسلامية فى خروجها وفتحها للبلاد وتوسعها فى الأرض بأنها تأمر بالعدل (تأمرون بالمعروف) ، وتحارب الظلم (وتنهون عن المنكر) ، ومعنى هذا أنها تقيم نظامًا سياسيًا اجتماعيًا تفرض فيه العدل وتمحو الظلم، وبهذا توفر الأمن، وبأنها تؤمن بالله (وتؤمنون بالله) وما يتولد من هذا الإيمان من خلق إنسانى رفيع يوفر الحياة الطيبة للبشر المنتمين لهذا المجتمع .

نلاحظ هنا أنه (سبحانه وتعالى) قال ﴿ **تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ﴾ والأمر والنهى متجهان إلى الخارج أو إلى الآخرين، فهما صادران من السلطة الحاكمة إلى من يدخلون تحت سلطان ولايتها (حكمها) ، أما عند التعبير عن الإيمان فقال «وتؤمنون بالله» والإيمان عمل قلبى أى حقيقة باطنية داخلية لا تُفْرَضُ على الآخرين فى الخارج ولذلك قال بعدها ﴿ **ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم** ﴾ فبين بهذا أن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) سيبقون على كفرهم بالقرآن مع دخولهم تحت سلطان الدولة الإسلامية أى دخولهم فى إطار الشريعة الإسلامية وخضوعهم لأحكامها مع غيرهم من « المسلمين»، فالمسلمون وأهل الكتاب (اليهود والنصارى) سواء فى الاحتكام والإذعان لأحكام الشريعة باعتبارها قوانين الدولة، أما العقيدة وما يتولد منها من عبادة (طقوس وشعائر) فالحرية مكفولة فى هذا الشأن لأهل الكتاب يعبدون الله

على النحو الذى يوافق أهواءهم، ولكنه (سبحانه وتعالى) يحثهم على سبيل التخيير لا الإجبار على الإيمان لأن ذلك أفضل لهم ﴿ **ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم** ﴾ واستعمال حرف الشرط «لو» يدل على امتناع أو صعوبة تحقيق هذا الشرط ولذلك أخبر بعدها ﴿ **منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون** ﴾ يعنى سيكون منهم المؤمنون أى سيتحول بعضهم حقًا إلى الإيمان ويعتنقون عقيدة القرآن أى يقبلون الهدى ولكن هؤلاء قلة لأن أكثرهم سيبقون على الكفر رغم وضوح الأدلة على صحة القرآن وصدق النبى (ﷺ)، وقد يتظاهر أغلبهم «بالإسلام» من تلقاء أنفسهم تحقيقًا لمنافع دنيوية مع ظهور الإسلام وسيادته.... هؤلاء هم المنافقون، أو كما قال القرآن ﴿ **إن المنافقين هم الفاسقون** ﴾ .

أيا ما كان الأمر فإن شريعة الإسلام تقبل أهل الكتاب (اليهود والنصارى) فى نطاق أحكامها وتنظم وجودهم داخل المجتمع المسلم أو الدولة الإسلامية على النحو الذى يرد تفصيلا فى القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وهو ما يحتاج إلى دراسة خاصة شاملة تجمع أشتات القضية فى سياق واحد وتزيل الشبهات التى يحاول أعداء الإسلام إثارتها، ولكننا نكتفى هنا بإبراز آية واحدة تكشف عن «روح» الشريعة الإسلامية وجوهر أحكامها وتقدم مثلا حيا على «طبيعة» المجتمع الإسلامى الذى يضم أهل الديانات السماوية جامعا بين المسلمين وأهل الكتاب برباط المواطنة.

يقول الله (سبحانه وتعالى) : ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (٤١) .

﴿ **الْيَوْمَ** ﴾ : إشارة إلى زمن التمكين عندما يصبح للمسلمين دولة تسودها أحكام الشريعة الإسلامية، وأركان الدولة هى الأرض والشعب والسيادة السياسية .

وبالنسبة للدولة الإسلامية الأولى التي أسسها الرسول (ﷺ) فقد كانت الأرض

هى يثرب التى سميت بحلول النبى (ﷺ) فيها « المدينة المنورة» فأما الشعب فكان يتكون من جماعة المسلمين والقبائل اليهودية التى تعيش فى المدينة المنورة، وأما السيادة السياسية فتتمثل أولاً فى اختيار ولى الأمر أو الرئيس وهو الرسول (ﷺ) الذى يمثل سيادة الأمة السياسية، وذلك عن طريق البيعة وهنا يجب أن نؤكد أنهم لم يبايعوه على النبوة أو الرسالة لأن النبوة والرسالة تُمنحان من الله أو تأتيان من السماء ولا تُعْطَيَان من الأمة (الشعب)، وإنما هم قد بايعوه على أن يكون رئيسا (إماما) لهم يمثل سيادة الأمة السياسية، والبيعة إذن هى التعبير عن سلطة الأمة أو أنها مصدر السلطة وهذا هو جوهر الديمقراطية .

وتتمثل السيادة السياسية أيضا فى سلطة جباية الضرائب (الزكاة على المسلمين ثم الجزية على أهل الكتاب)، وفى سن القوانين وتنفيذ العقوبات الجنائية (إقامة الحدود مثل قطع يد السارق وجلد الزانى)، وفى عقد المعاهدات الأمنية وإنشاء التحالفات العسكرية، مثل عهد أو دستور المدينة الذى تم الاتفاق عليه بين الرسول (ﷺ) باعتباره حاكما على المدينة وممثلاً للمسلمين وبين زعماء القبائل اليهودية للدفاع المشترك عن أرض الدولة (المدينة المنورة) ضد الأعداء الخارجين، وقد سبق أن أشرنا إلى احتكام اليهود إلى الرسول (ﷺ) ليفصل فى الخلافات التى تنشأ بينهم ، وكذلك التحالفات مع بعض قبائل المشركين للتعاون العسكرى ضد قريش وحلفائها ولا يبقى بعد هذا البيان موضع للشك فى قيام دولة بالمدينة المنورة كاملة الأركان بكل سلطاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية .

وفى هذا «اليوم» صار أهل الكتاب مواطنين فى الدولة (المدينة) ونشأت العلاقات الاجتماعية التى تنشأ بالفطرة بين أهل الوطن الواحد، فأصبحوا يأكلون على نفس المائدة لأن الشريعة الإسلامية قد أحلت للمسلمين أن يأكلوا طعام أهل الكتاب الذى صار ضمن «الطيبات» التى أحلها الله للمؤمنين، كما سُمِحَ للمسلمين أن يدعوا أهل الكتاب للأكل معهم مما يُفْهَمُ منه أن الجميع مسلمين وكتابيين (أهل ذمة) يتبادلون الزيارات والدعوات للولائم ويأكلون جميعًا من نفس المائدة التى صارت فى هذه الآية

رمزاً بالغ الدلالة «للوطن» الذى يتشاركون فى ملكيته والتمتع بخيراته والدفاع عنه .

بل وأحل الله للمسلمين (المؤمنين) أن ينكحوا النساء الكتابيات بنفس الشروط وعلى قدم المساواة مع النساء المؤمنات ، فاعتبر (سبحانه وتعالى) النساء الكتابيات محصنات ، فهن لسن سبايا مُسْتَبَاحَات ولا يتم نكاحهن إلا بدفع المهور ﴿ **إذا آتيتموهن أجورهن** ﴾وأن يكون النكاح بدافع من الرغبة فى إحصان (وقاية) النفس من الوقوع فى خطيئة الزنا وبالتالى حماية الأمة من شرور هذه الفاحشة ، وبهذه الرغبة وحدها يكون النكاح عبادة ، وألاَّ يكون النكاح لمجرد التخفف من ضغط غريزة الجماع بسفح الماء أو قذف المنى للخلاص من الألم وإشباع شهوة الجماع ، وهذا معنى قوله (سبحانه وتعالى) ﴿ **غير مسافحين** ﴾ ، ولا أن تكون هؤلاء النساء الكتابيات مجرد وسائل للحصول على المتعة أى مجرد متاع أو أدوات للذة كما يفعل الزناة مع البغايا ، وهذا هو معنى قوله ﴿ **ولا متخذى أخدان** ﴾ بل يجب أن يكون الهدف من نكاح الكتابيات هو تكوين أسرة وبناء بيت يحقق المتعة للفرد ولكنه يضيف أيضًا إلى قوة الأمة وتماسكها الاجتماعى ، ولاشك أن رابطة المصاهرة التى ستربط بين المؤمنين وأهل الكتاب سوف تذيب الكراهية والنفور والصراع فيما بينهم «وتصهر» الجميع فى بوتقة الحضارة الإسلامية التى تشيدها الأمة الإسلامية وسيصبح الجميع أعضاءً فى الوطن المسلم كما عبر عن هذه الحقيقة التاريخية فى بلاغة مدهشة السياسى المصرى المسيحى «مكرم باشا عبيد» حين قال « أنا مسلم وطنًا مسيحى (أو نصرانى) ديانة» .

إننا فى إطار الشريعة الإسلامية عندما تحكم وتدير حركة البشر لانحصل على دول (أوطان) متعددة الديانات فقط ، بل على عائلات متعددة الديانات ، ومن المؤكد يقيناً أنه لم ولن يوجد نظام اجتماعى أكثر إنسانية وتسامحاً من النظام الإسلامى ، والتاريخ شاهد صدق على سبق الحضارة الإسلامية فى ميدان حقوق الإنسان .

إن المرأة الكتابية ؛ يهودية أو نصرانية ستحصل على جميع الحقوق التى تحصل عليها المرأة المسلمة من زوجها المسلم، وإذا توفى عنها فإنها ستحصل على نصيبها «الشرعى» من الإرث كما حددته آيات سورة النساء، لأن هذه الآيات هى مصدر القانون فى الدولة الإسلامية، وتتساوى فى هذا المواطنة المسلمة مع المواطنة الكتابية.

وإذا كانت الزكاة فريضة إسلامية، بل هى أحد أركان الإسلام الأساسية، وتقوم الدولة الإسلامية بتحصيلها (جبايتها) رسمياً من المواطنين المسلمين بواسطة موظفين حكوميين إن صح التعبير، ولكن من الجائز شرعا إنفاقها على الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات من المواطنين الكتابيين (اليهود والنصارى) باعتبارهم أعضاء منتمين للأمة الإسلامية بوصفهم من «المؤلفة قلوبهم» (٤٢)؛ الذين يراد تأليف قلوبهم وتحبيبهم فى أحكام «دين الحق» وإشعارهم بعدله حتى يتحقق انتماؤهم الحميم إلى الأمة (الدولة) التى تضمهم بولايتها عليهم.

(هـ)

تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية هو النتيجة المنطقية للديمقراطية

وعلى ضوء ما تقدم يتبين لنا تفاهة وتهافت منطق أهل التبعية فى بلادنا الإسلامية الذين يروجون لمعنى زائف أو مفهوم مغشوش «للعلمانية»(٤٣)، ويزعمون أن الحديث عن «الهوية» الثقافية الإسلامية لمجتمعاتنا ودولنا وعن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية كنتيجة منطقية للتعبير عن هذه الهوية يزعمون أن هذا الحديث يناقض «مفهوم المواطنة» وقومية الدولة ويتعارض مع الديمقراطية ويثير النزاعات الطائفية والصراعات الدينية ... إلى آخر هذه الخزعبلات التى تروجها أجهزة إعلام خاضعة لنظم حكم هى أبعد ما تكون عن الديمقراطية وعن احترام العقل والحرية الفكرية ومحال وصفها بالتسامح مع المخالفين لها فى الرأى !!!

والحقيقة أن الغاية العليا أو الهدف النهائى الذى تسعى إلى تحقيقه كل تلك الشعارات الإنسانية ذات البريق والرنين هو أن يصبح المواطنون سواء أمام القانون، بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية أو الدينية أو السياسية (الحزبية)، وهذه المساواة الإنسانية بين المواطنين تضمنها النصوص الشرعية (القرآن والسنة والنبوية) وتؤكدها تجربة الحضارة الإسلامية عبر تاريخها الممتد ولكن السؤال الجوهرى هنا هو أى قانون؟!

يجب أن يكون المواطنون سواءً أمام أى قانون ؟! إجابة «الديمقراطية» هى القانون الذى تختاره الأغلبية، لأن الديمقراطية تعنى فى النهاية حكم الأغلبية، وضرورة أن تقبل الأقلية أو لنقل ترضخ لما تصدره الأغلبية من أحكام وقوانين، وإلا فالبديل هو أن تصير الأقلية هى التى تحكم، وهذا بالضبط هو معنى أو حقيقة الديكتاتورية أو نقيض الديمقراطية ، وفى بلاد يشكل المسلمون فيها الأغلبية العظمى يكون من المحتوم عقلاً أن تصير أحكام الشريعة الإسلامية هى القوانين السائدة باعتبارها المرجع الذى ترتضيه الغالبية العظمى من أفراد الأمة، ولذلك اضطرت معظم دول العالم الإسلامى تحت

الضغط الشعبى إلى النص فى دساتيرها على أن الإسلام هو الدين الرسمى، وأن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع أيًا كانت الصياغات التى عُبِّر بها عن هذه الحقيقة فى الدساتير المختلفة، رغم « العلمانية » الزائفة للنظم الحاكمة ونفورها من الإقرار «بهوية» الشعوب الإسلامية، ولذلك بقيت مثل هذه النصوص الدستورية حبراً على ورق فى معظم بلدان العالم الإسلامى (؟!!!) (٤٤) .

ولما كانت الأقليات غير المسلمة فى معظم دول العالم الإسلامى هى أقليات مسيحية، فالسؤال هو : لماذا تكون القوانين الأوروبية الغربية أكثر قبولاً لدى المسيحيين فى الدول الإسلامية ؟!! أو لماذا يجب اعتبار القوانين الأوربية الغربية أقرب إلى المسيحيين من قوانين الشريعة الإسلامية ؟!! على أى أساس أقيمت هذه النظرة ؟!

مُحال عقلاً أن تكون هذه النظرة قد أقيمت على أساس دينى أو أنها تستند إلى نص إنجيلى ؛ لأن الأناجيل كما بينا تأمر المسيحيين بطاعة شريعة موسى التى تتطابق أحكامها الاجتماعية أى ما يتعلق بالحدود والمعاملات مع الشريعة الإسلامية ، ومن ناحية أخرى فإن التأويل العام لنص « إعط ما لقيصر لقيصر » يأمر المسيحيين بطاعة الأحكام والقوانين التى يصدرها أى « قيصر » (حاكم) حتى لو كان مسلماً، ولنلاحظ أن « قيصر » المذكور فى النص الإنجيلى كان كافراً بالمعياريين اليهودى والنصرانى !!!

كما لا يمكن الإدعاء أبداً بأن القوانين الأوربية الغربية المعاصرة أقرب إلى نص وروح الأناجيل، لأن معظم هذه القوانين قد صدرت فى الحقبة التى تعالت فيها الأصوات المعادية للدين وللكنيسة حيث سادت النزعات الإلحادية فى الفكر الأوربى، فلا يمكن وصف التشريعات والقوانين الأوروبية الغربية بأنها ذات صبغة مسيحية أو طابع إنجيلى.

كما أن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية لا يفرض على المسيحيين الذين يعيشون داخل البلاد الإسلامية أية قيود أو مضايقات فيما يتعلق بالعقيدة والعبادة ولا يمثل تطبيق أحكام الشريعة - كقوانين تسرى أحكامها على الجميع - أى ظلم أو اضطهاد للمسيحيين، ولن يجعل منهم مواطنين من الدرجة الثانية كما يشيع أعداء الإسلام؛ لأن جميع المواطنين سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين سيصيرون سواء أمام القانون وهذا هو غاية المراد من الديمقراطية وأقصى ما يصبو إلى تحقيقه مفهوم «العدل» فى ميدان الحياة السياسية .

فلو كانت الديمقراطية «الحقيقية» هى التى تدير الحياة السياسية فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة لأصبحت أحكام الشريعة الإسلامية هى القوانين الحاكمة، إذ لا يمكن - عقلا - تصور أن يقوم « برلمان» أو مجلس شعب منتخب بكامل الحرية ومعبر عن إرادة مجتمع إسلامى، لا يتصور قيامه بإصدار أو إقرار قانون يخالف الشريعة الإسلامية لأن فى ذلك مصادمة لهوية الأمة وصَمَمٌ متعمد عن صوتها الهادر المطالب بإحياء تلك النصوص الميتة فى الدساتير التى تتحدث عن الإسلام الدين الرسمى للبلاد وعن الشريعة الإسلامية .

ولا شك فى أن الأنظمة الحاكمه التى تعارض بل تحارب الشريعة الإسلامية بمزاعم المحافظة على الديمقراطية والمساواة بين المواطنين والسلام الاجتماعى ووأد الفتن الطائفية ... إلى آخر هذه المزاعم ، لاشك فى أنها أشد النظم رفضًا للديمقراطية ولمبدأ تداول السلطة، وأكثرها وحشية فى التعامل مع المعارضين والمخالفين لها، وأقواها عدوانًا على حقوق الإنسان، وإن تشبثها العنيد بالسلطة ليدفع بالبلاد التى تحكمها فى أتون فتن لا تنطفئ .

ويفضى بنا هذا إلى تذكر الحقيقة التاريخية الدامغة التى تقول إن سلطة الاحتلال الأوروبى أثناء الحقبة « الاستعمارية» هى التى أوقفت العمل بأحكام الشريعة الإسلامية وأحلت مكانها القوانين الغربية، وأن هذا العمل بالطبع لم يكن يهدف إلى إنهاض

الشعوب الإسلامية من التخلف والأخذ بيدها على طريق التقدم، وإنما كان يهدف إلى طمس الهوية الإسلامية ومحو الشعور بالسيادة، ذلك الشعور الذى يدفع شعوبنا إلى مقاومة المحتل الغاصب ويعيد إليها الإحساس برسالتها الحضارية ويدعوها للأخذ بأسباب القوة حتى تستطيع أن تستأنف دورها فى قيادة البشرية .

لقد كان هدف الاستعمار ولم يزل هو إبقاؤنا فى سجن التخلف أو أغلال التبعية حتى تتحول مجتمعاتنا إلى مجرد توابع ذليلة للحضارة الغربية على كافة المستويات ؛ سياسيا واقتصاديًا وثقافيًا، فالمطلوب استعماريًا أو غربيًا هو أن تصير البلاد الإسلامية مجرد مصدر للطاقة (البترول) والثروات الطبيعية رخيصة الثمن أو بالأحرى مجانية بلا ثمن وأسواق رائجة للمنتجات الصناعية الغربية مرتفعة الثمن، لكى يواصل الغرب ازدهاره الاقتصادى والحضارى بصفة عامة، وتبقى البلدان الإسلامية أفنية خلفية يسكنها العبيد المستذلون الذين يعملون كخدم وأتباع فى القصور التى يسكنها السادة الأوربيون، كما كان حال العبيد أيام الإمبراطورية الرومانية، بل صار المطلوب أن تتحول أرضنا إلى مدافن للنفايات النووية حتى يتقى الأوربيون أخطار الإشعاعات وليذهب «الاخرون» إلى جحيم التلوث والسرطان والجدب والإبادة .

إن فرض قوانين غربية على مجتمعات إسلامية أمر بالغ الشذوذ مناقض لمنطق العدل والديمقراطية ومصادم لهوية الشعوب الإسلامية، ولا يمكن تصور حدوثه إلا تحت الإكراه العنيف وهو ما حدث بالفعل فى ظل الاحتلال العسكرى الغربى، ولا يمكن تصور استمراره بعد التحرر من قبضة الاستعمار إلا تحت قيادة محلية من أبناء «جلدتنا»، لكنها تقوم بنفس العمل الذى كان يؤديه « المستعمر » الغربي حيث يقودون بلدان العالم الإسلامى على طريق التبعية للغرب تحت شعار اللحاق بركب التقدم، وهو شعار لن يتحقق أبداً على الأرض بالسير على طريق التبعية ومحاكاة الغرب ؛ لأن التابع يظل دائمًا خلف المتبوع ولن يدركه أبداً إلا إذا أحس بأنه ند ينافسه بل يؤمن فى نفسه أنه هو الأفضل الذى يستحق السبق والتقدم !!

وفى الحقيقة فإن أعداء الإسلام « فى الخارج والداخل » لا يهدفون إلا إلى طمس الهوية الثقافية لأمتنا ، ومحو رسالتنا بمزاعم شتى تتقنع بشعارات إنسانية جوفاء خالية عند التحقيق من المعنى ، لكى تتحول أمتنا إلى كم مهمل يهيم على وجهه بلا غاية عليا ، ومسخ مشوه بلا رسالة يُسَاقُ على طريق التبعية للغرب بزعم اللحاق بركب التقدم فتفقد الأمة الإسلامية حضورها التاريخى وتتحول إلى «غثاء السيل» الذى أنذرنا رسولنا الأعظم (ﷺ) من الصيرورة إليه .

وتحذيراً من هذا المصير البائس فى الدنيا قبل الآخرة ختم الله الآية الخامسة من سورة المائدة والتى تصف لنا مجتمعا إسلامياً متعدد الديانات بقوله ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ .

« الإيمان » هنا هو القرآن كما سماه الله فى سورة الشورى عندما قال ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (٤٥) يعنى وعلى نحو يشبه إنزال الوحى على الأنبياء السابقين أنزلنا إليك يا محمد وحيا من كتابنا ما كان بوسعك حسب قدرتك البشرية أن تعرف ما هو الكتاب الذى أودع فيه علم الله ولا ما هو القرآن الذى أوحيناه إليك ، ولكن أنزلناه ليكون نورا نهدى به من يقع عليه الاختيار الإلهى من بين العباد ، ومن المؤكد أنك تبين للناس الصراط المستقيم الذى يسهل على من يسير عليه أن يصل إلى رحمة الله فى الدنيا والآخرة .

سمى الوحى «روحا» لأنه يحيى القلوب التى ينزل عليها والتى تؤمن به .

ووصف كتاب العلم الإلهى بأنه «أمرنا» لأنه يحتوى على كل ما يريد الله إظهاره فهو يتضمن مجموع «أمر الله» الذى يتحقق فى السماوات والأرض .

وسمى القرآن «الإيمان» لأن القرآن هو مصدر الإيمان ومضمونه ، فبدخول القرآن فى قلب الإنسان يحدث الإيمان ، والقرآن يحتوى على مجموع العقائد التى ينبغى الإيمان بها فهو موضوع الاعتقاد ، ويحذر الله المسلمين بأن من يكفر منهم بالقرآن ، ومن ثم

يتخلى عن حمل رسالة الإسلام بأنه سينال الفشل ويحظى بالخسارة فى الدنيا، وهذا ما يشير إليه بقوله (سبحانه وتعالى) ﴿ **فقد حبط عمله** ﴾ يعنى فى الدنيا، ولذلك عطف بقوله ﴿ **وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾،ولا شك فى أن التاريخ هو المرآة المصقولة التى تتبدى على صفحتها الصافية صحة هذه الآية القرآنية الحكيمة، فمنذ أن تخلت الأمة الإسلامية عن رسالتها، فتفرغ أبناؤها لشواغل الدنيا، وقادتها من الأمراء والملوك والرؤساء والسلاطين أصحاب الجلالة والفخامة للتنازع على المُلْكِ ونهب الثروات، وعلماؤها لتملق الحكام منذ ذلك الحين فقدت الأمة حضورها التاريخى وانحدرت على طريق التبعية إلى هاوية الفشل .

والمغزى وراء هذا التعقيب - فى نهاية الآية التى تصف المساواة بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب فى إطار الدولة الإسلامية - هو بيان أن الانطلاق من مبدأ المساواة بين المواطنين وهو مبدأ تقره بل تفرضه الشريعة الإسلامية، لا ينبغى أن يؤدى إلى مفهوم بالغ الخطأ والخطورة وهو المساواة بين الديانات المختلفة، ومحاولة إذابة الفروق بين العقائد بدعوى توحيد البشر جميعًا ، والقضاء على أسباب الصراع وما إلى ذلك من شعارات خداعة قد تبدو على السطح «إنسانية» ولكنها فى الحقيقة ضد الإنسانية؛ لأن جوهر الإنسان أنه الكائن الباحث عن الحقيقة المطلقة التى تتعالى على التحيز فى المكان والزمان ، إنه الكائن الراغب فى الاتصال بما وراء الوجود المحسوس الباحث عن الخلود ، إنه الحيوان الميتافزيقى كما وصفه أحد الكتاب الفرنسيين، ولما كانت الحرية هى جوهر الوجود الإنسانى، والحرية لا تعنى فى النهاية سوى الحق فى الاختلاف لذلك كان حتمًا مقضيًا أن تختلف العقائد تعبيرًا عن الحرية الإنسانية .

إن محاولة «تسوية» العقائد المختلفة بغية جمع كل البشر على عقيدة واحدة أو «إيمان» واحد لا تعدو - فى الحقيقة - سوى الكفر بما جاء فى هذا القرآن (الإيمان) من حقائق لاتقبل المساومة بدعوى المساواة بين جميع البشر أو المواطنين!!! إن علينا أن نحترم اختلافنا لأنه جوهر حريتنا وكرامتنا الإنسانية.

(و)

الأمة الوسط

يبشر الله الأمة الإسلامية عندما تؤدى رسالتها بالفلاح فقال فى الآية التى حددت مضمون الدعوة الإسلامية ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣٩) .

والفلاح هو الخلود فى رحمة الله، فأما فى الآخرة فإنه البقاء فى الجنة حيث أودع الله كامل رحمته، وأما فى الدنيا فإنه العزة والحياة الطيبة وخلود الذكر وهو ما يعنى البقاء فى ذاكرة التاريخ الحى والحضور المؤثر فى الحياة الإنسانية على ظهر هذا الكوكب الأرضى، ولا يتأتى شئ من ذلك إلا بأن تقود الأمة الإسلامية سائر الأمم، وأن تقوم بين الناس فى مقام الشهادة، وهو ما بينته الآية القرآنية المدهشة التى يقول الله فيها ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤٦) .

"و" : حرف عطف يربط هذه الآية بأختها التى سبقتها ، والتى تحدثت عن تحويل قبلة المسلمين عند الصلاة من بيت المقدس فى فلسطين (مدينة القدس أو أورشاليم) إلى الكعبة المشرفة بمكة المكرمة، وعن الموقف الذى سيتخذه " السفهاء " ؛ الجهلاء ضعاف العقل قليلو العلم الذين يعجزون بموجب سفاهتهم عن إدراك مغزى هذا التحول، ومعنى جعل الكعبة قبلة للمسلمين لأنهم غافلون عن حقيقة أن الكعبة كانت أول مسجد أقيم فى الأرض عند هبوط " آدم " (عليه الصلاة والسلام) من الجنة ويجهلون موضعها من الأرض ولا يعرفون حقيقتها ومن فيها وما ترمز إليه .

" **الكاف الأولى** " فى قوله " كذلك " أداة تشبيه تقيم تماثلا بين ما كان قبلها - وهو الكعبة التى يشير إليها اسم الإشارة "ذا" - وما بعدها وهو الأمة المخاطبة بهذا القرآن من خلال النبى (ﷺ) الذى آمنت به وأعلنت اتباعه والانتساب إليه واتخذته دليلا يقودها .

" **والكاف الثانية ك** " : هى أداة الخطاب الإلهى للأمة عبر النبى (ﷺ) الذى يتلقى هذا القرآن باعتباره أصلاً للأمة التى ستنشأ من الإيمان برسالته (ﷺ) .

والمعنى هو : «وكما جعلنا قبلتكم وسطا فى الأرض فإننا جعلناكم ، يا أمة محمد وسطا فى الأمم » ، فإذا بسطنا سطح الكرة الأرضية أعنى ما نسميه " اليابسة " ورسمنا خطا يصل بين أطرافها فإننا سنحصل على دائرة فإذا بحثنا عن مركز تلك الدائرة فسنجد مكة المكرمة ؛ أم القرى وفى وسطها الكعبة المشرفة ، فالكعبة إذن هى مركز دائرة الأرض .

وإذا انتبهنا إلى أن الأرض تدور متحركة على الدوام حول محورها من الغرب إلى الشرق محدثة بحركتها المستمرة تعاقب الليل والنهار ، فحينئذ تبدو لنا فى هذه " الرؤية " الأرض بكل ما عليها وهى تلف وتدور أو بالأحرى تطوف حول الكعبة المشرفة كطواف الحجيج الذين يأتون إليها من كل فج عميق . والطائف حول الكعبة يجعل منها دليلا يقود حركته ، وهو دائم النظر إليها فى طوافه لا يستطيع أن يلتفت عنها أو أن يعطيها ظهره ، بل يجب عليه دوماً أن يلتفت إليها بوجهه حتى يستطيع أن يحسب خطواته ويضبط حركته ، لتصح عبادته ؛ وعلى نحو يشبه حال الطائفين مع الكعبة ينبغى أن تكون حال الأمم الأخرى مع الأمة الإسلامية ، فإنها الأمة التى جعلها هذا النص الإلهى الحكيم مثل الكعبة فينبغى عليها أن تكون " قبلة " لسائر الأمم وهذا هو معنى جعلها وسطا مثل الكعبة .

" الوسط " هنا يعنى المركز والقائد أو الدليل الذى يبدأ الحركة ويضبط المسير فكما أنه محال رسم دائرة إلا بالانطلاق من المركز (الوسط) ولا يمكن إدراك حركة إلا بالنظر إلى المركز الذى تدور حوله ، فكذلك ينبغى أن تكون أمة محمد (ﷺ) هى نقطة البداية فى حركة التاريخ نحو النهاية وهى القائد / الدليل الذى يقود الأمم

الأخرى ويضبط سيرها على الطريق الذى يريده الله (سبحانه وتعالى)، وهى المرجع الذى يجب أن يحتكم إليه سائر الناس ولا يملكون أن يلتفتوا عنه أو يعطوه ظهورهم، وبهذا يتحقق التشبيه الإلهى الذى جعل أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) وسطا مثل الكعبة؛ إنها مركز الهدى وقطب الشهادة وموضع القيادة على الناس تفرض العدل (تأمر بالمعروف) وتحارب الظلم (تنهى عن المنكر)، ولا يمكنها أن تقوم بهذا إلا إذا " خرجت إلى الناس تحمل إليهم رسالة الله النازلة إليهم فى هذا القرآن، ولذلك علل الأمر بالوسطية (القيادة)[٤٧] بأداء مهمة الشهادة، فقال ﴿ **لتكونوا شهداء على الناس** ﴾ ومعنى أن نكون شهداء على الناس هو أن نبلغهم ما قاله الله، أعنى ننقل إليهم ما أعلنه الله بالوحى وننظر بماذا يجيبون رسالة الله ونحكم على إجابتهم بالخطأ أو الصواب حسب حكم الله الوارد فى رسالته، فلا يمكنك أن تكون شاهدا على شئ إلا إذا كنت فى مقام المرجع الذى يُحْتَكم إليه فى شأن هذا الشئ، وكانت لك الصلاحية والقدرة على الحكم عليه، فأمة محمد (ﷺ) باعتبارها حاملة رسالة الله إلى الناس تكون لها جدارة الحكم على إجابتهم؛ لأن معها المعيار الصحيح للحكم وإلا فما معنى شهادتها عليهم؟!! فلو كانت كاذبة أو خاطئة ما صحت شهادتها .

والشاهد هو الدليل ، فعندما يقول أحد الفقهاء أو المفسرين بأن لهذا الرأى أو ذاك شاهداً فى القرآن أو السنة، فإنه يعنى أن عليه دليلاً فى القرآن أو السنة يثبت صحته، ومن ثم فمعنى أن تكونوا شهداء على الناس هو أن تكونوا أدلاء عليهم أى تقوموا مقام الدليل الذى يرشد إلى الطريق ويقود المسير .

وبقيام أمة محمد (ﷺ) بشهادتها على الناس يكون الرسول قد بَلَّغَ حقا رسالة ربه وأدى الأمانة، وبذلك يصح انتساب الأمة إليه ويتحقق صدقها فى إعلانها أنها اتخذته (ﷺ) قائداً عليها أى دليلاً مرشداً، ولذلك قال (سبحانه وتعالى) ﴿ **لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾ .

وبالفعل لقد بدأ الرسول (ﷺ) أداء الشهادة على الناس بمجرد أن استتب له الأمر (الحكم) فى الحجاز بعد فتح مكة، فأرسل رسله (سفراءه) برسائل شفهية ومكتوبة إلى زعماء القبائل والملوك والأمراء والولاة المعاصرين له فى داخل الجزيرة العربية وخارجها، فبعث على سبيل المثال بكتاب (رسالة خطية) إلى كسرى ملك فارس (إيران)، وإلى الوالى الذى كان يحكم مصر باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) يدعو الجميع للإيمان بالقرآن والدخول فى دين الإسلام (دين الحق)، ولنلاحظ هنا أنه خاطب الملوك والرؤساء والأمراء أى الحكام؛ أولى الأمر وأصحاب السلطة السياسية ليبين (ﷺ) أن الدعوة إلى الإسلام مهمة أو وظيفة رسمية يجب أن يؤديها الحاكم المسلم باعتباره المعبر عن الأمة الإسلامية التى بايعته ومنحته شرعية الحكم . وتبليغ رسالة اللّه والدعوة إلى الدخول فى الإسلام هى الأصل فى نشأة الأمة الإسلامية ومبرر وجودها التاريخى، فإن تخلت عن رسالتها صارت كغثاء السيل الذى تتقاذفه أطماع " الآخرين " الراغبين فى السيادة على الأرض .

وتختلف إجابة المدعوين، فمنهم من يقبل الدعوة ثم يقتنع بما فيها من عقيدة وشريعة فيؤمن ويدخل فى الإسلام . ومنهم من يرى الدخول فى الإسلام والخضوع لأحكامه تحقيقا لمنافع دنيوية كالأعراب الذين ذكرتهم سورة الحجرات حيث قبلوا الدخول فى طاعة الرسول كحاكم والخضوع لأحكام الإسلام ليحصلوا على الأمن ويتمتعوا بخيرات النظام الجديد، ومنهم من يطلب المناقشة والاستفسار رغبة فى الفهم والمزيد من الوضوح تمهيدا للاقتناع القائم على اختيار العقل الحر .

ومنهم من يرفض الدخول فى الإسلام، ولكنهم لايعادون المسلمين ولايحاربون الدولة الإسلامية القائمة بالدعوة، ومن ثم فهم لا يمنعون نشر الدعوة، ولا يضطهدون "المؤمنين" الخاضعين لسلطانهم أو الواقعين تحت حكمهم .

ومنهم من يرفض الدعوة ويجد فيها ما يهدد سلطانه ونفوذه، ومن ثم فهم يعملون

حتى فى موقف الحرب التى بدأت باعتداء المشركين على المسلمين وأثناء القتال إن طلب أحد المشركين المحاربين الحماية من المسلمين، فالواجب عليهم أن يحموه ويوفروا له الأمن إلى أن " يسمع كلام الله " الذى ينبغى عليهم أن يبلغوه صحيحا وأن يوضحوه له، ثم يقوموا بإيصال هذا المشرك إلى مكان آمن لا خطر فيه على حياته ليتركوا له الفرصة فى التفكير واتخاذ الموقف الذى ينبعث من اختياره الحر دون إكراه ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ** ﴾ كما يمكن أن يكون إبلاغ المأمن هو عقد معاهدة أو اتفاق موثق يضمن عدم الاعتداء بين الطرفين، فالمطلوب إعلامهم بالرسالة أولاً ثم تركهم ليستجيبوا بما شاءوا متحملين مسئولية اختيارهم .

وقوله ﴿ **ثم أبلغه مأمنه** ﴾ يعنى أن السلطة الإسلامية ملزمة بحماية المشرك الذى رفض ولم يقبل الدخول فى الإسلام والمحافظة على حياته حتى يخرج من نطاق السلطة الإسلامية ويصل إلى مكان يأمن فيه على نفسه ويأوى إلى ما يوافق عقيدته . فإذا كان الإسلام يرفض وجوده فى داخل الدولة الإسلامية فإنه يتيح له الخروج الآمن لأن الإسلام لا يكره أحداً على الإيمان . كما يمكن تأمينه بعقد عهد يضمن عدم الاعتداء المتبادل، فتوفر له الدولة الإسلامية الحماية مقابل تعهده بعدم القيام بأعمال عدائية ضدها فإن «المأمن» قد يكون مكاناً يتوفر فيه الأمن أو زماناً تضمنه هدنة.

(ز)
وسائل الدعوة

يحدد القرآن للرسول ولأمته من بعده وسائل ومراحل الدعوة فيقول : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(٥٠) .

"ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ" : حَفِّزْ الناس على السير فى طريق الله وهو ما يعنى تشجيعهم على الدخول فى الإسلام الذى سماه " سَبِيلِ رَبِّكَ " لأنه الطريق الموصل إلى الله .

وتحدد الآية وسائل / مراحل الدعوة :

أولاً :-"الحكمة " وهى تعنى بصفة عامة مراعاة مقتضى الحال وتعنى فى القرآن تحديدا "السُنَّة " أى الطريقة الصحيحة لممارسة الحياة على النحو الذى يرضى الله ، والتى تعد سيرة النبى محمد (ﷺ) المثل الأعلى لها والنموذج الذى يجب أن يحتذى. وأعتقد أن تأويل " الحكمة " السُنَّة أمر قد قطع القرآن بصحته حين قال مخاطبا نساء النبى ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾(٥١) فإذا كان القرآن الكريم هو " آيات الله " التى " تتلى " فى بيوت نساء النبى ، فإن " الحكمة " التى كانت تتلى فى بيوتهن هى بلا شك أقوال النبى (ﷺ) التى كان ينطق بها و يتداولها الصحابة (رضوان الله عليهم) وأقوال النبى (ﷺ) هى "السُنَّة "بلا جدال ! !والحكمة هى جماع العدل (حكم الله) مع العلم والرحمة .

وسيرة النبى (ﷺ) هى التجسيم الحى للحكمة وهنا ينبغى علينا أن نفرق بوضوح بين الاقتداء (التأسى) بالرسول (ﷺ)وبين محاكاته ، فالاقتداء (التأسى) هو المطلوب وهو عمل عقلى يقوم على إدراك المقصود أى " الفقه " ، أما المحاكاة فإنها

التقليد الأعمى الذى فقد نور العلم وحُرِمَ من الحكمة، وينصب على محاكاة الشكل أى تكرار الرسم الظاهر دون النفاذ إلى المضمون الباطن، ولكى نوضح الفرق بمثل نقول: إن الطفل الذى يضع " النظارة " على عينيه ويمسك بالكتاب أو المصحف وينظر فيه دون أن يستطيع القراءة بالطبع ودون أن يكون فى حاجة إلى النظارة لكى يرى فإنه فى الحقيقة يحاكى ظاهراً عمل والده، ولكنه قطعا لا يقتدى أو يتأسى به فى طلب العلم أو النظر فى كتاب اللّه .

ومن ناحية أخرى ينبغى علينا أن نحدد بوضوح تام المقصود من " السُنَّة " واجبة الاتباع، وهنا لابد أن نميز فى الرسول (ﷺ) بين جانبين أو مستويين من الوجود ، الأول هو الرسول النبى (ﷺ) الذى بعثه الله إلى الدنيا ليكون المصباح المنير الذى بسيرته يضئ للبشرية كلها فى أى مكان وزمان الطريق المستقيم الذى ينبغى على الإنسان أن يسلكه لكى يظفر برحمة الله فى الدنيا قبل الأخرى فحياته (صلى الله عليه وسلم) هى التجسيم الحى للحكمة .

والثانى هو الإنسان العربى الذى عاش فى شبه الجزيرة العربية بالقرن السابع الميلادى، فعاش فى الدنيا كما يعيش قومه فأكل وشرب ولبس وانتقل كما يفعل معاصروه من العرب، ونحن مأمورون بالاقتداء بالجانب الأول وليس بالجانب الثانى ولكى نوضح الفرق بين الجانبين بمثل محسوس نقول: إن وضع العمامة على الرأس وارتداء الجلباب والعباءة والإمساك بالعصا وركوب الناقة والأكل باليد دون استعمال الملعقة أو الشوكة، وكل ما يتعلق بالمعيشة، فإنه ليس من " السُنَّة " التى يجب التأسى بها لأن كل ذلك لا يتعلق بالعقيدة أو العبادة أو الشريعة، ولكن الاغتسال والوضوء والأكل باليد اليمنى وذكر اسم الله قبل تناول الطعام على سبيل المثال يعد بلا جدال من "السنة" واجبة الاتباع .

ومن ثم فينبغى علينا أولاً تحرير معنى " السنة " مما علق بها من شوائب البشرية

العارضة لكى نستبقى فقط للاقتداء حقائق الإسلام الثابتة على مر العصور . وإذا كان الإسلام صالحا لكل زمان ومكان فينبغى علينا ألا نتحجر عند التطبيق الأول له الذى شهده عصر النبى (ﷺ) والخلفاء الراشدين لأن ذلك التطبيق كان ملائما وموافقا لظروف ذلك العصر .

هل يمكن مثلا أن نطالب الإنسان اليابانى أن يتخلى عن طريقته فى تناول الطعام، فيترك العصاتين اللتين اعتاد على استعمالهما عند الجلوس إلى طعامه لكى يصح دخوله فى الإسلام واتباعه لسنة النبى (ﷺ)، زاعمين أن الأكل باليد مباشرة دون أية أداة يعد من السُنَّة واجبة الاتباع ؟!!! فعلينا أن نقبل كل التقاليد والأعراف التى تعبر عن الثقافات المختلفة للشعوب ما دامت لا تتعارض مع حقائق الإسلام الثابتة .

وعلينا دائما أن نتدبر القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لكى نرى حقائق الإسلام الثابتة على ضوء معطيات العصر الذى نعيش فيه، أو بكلمات أخرى على المسلمين باستمرار أن يعيدوا اكتشاف النصوص المقدسة حسب احتياجاتهم الواقعية الحقيقية، لكى ينزلوا احكام الإسلام الثابتة على وقائع الحياة الدنيا المتغيرة، وهذا هو معنى " الاجتهاد الذى صرنا فى أمس الحاجة إليه، وقد صارت الدنيا كلها بمثابة قرية صغيرة بفضل تقدم وسائل الاتصال، وأصبح " الإسلام " فى متناول كل الشعوب مما يمهد لتحقق وعد الله بإظهار دينه كما أخبر فى القرآن بقوله ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً** ﴾ (٥٢) .

إن التطبيق الحقيقى الصادق للإسلام أعنى اعتناق عقيدته والمحافظة على عباداته وإعمال شريعته والتحلى بأخلاقه أو فى كلمة واحدة التمسك بالحكمة (السنة) هو أول وأقوى وسيلة للدعوة إلى الإسلام . هذه حقيقة علمية أثبتها التاريخ ؛ فعندما عاد النبى (ﷺ) مع أصحابه إلى مكة معتمرين بعد عام واحد من صلح الحديبية – كما

اشترطت قريش - وعاش المسلمون القادمون من المدينة (أرض الهجرة) ثلاثة أيام فى مكة، حيث رأى الكافرون ما طرأ على المؤمنين من تغيير جذرى فى مظهرهم وسلوكهم وأخلاقهم بفضل الإسلام، فكانت تلك الأيام القليلة نقطة تحول هائلة فى موقف الكافرين من " الإسلام " ، إذ قد عاينوا من خلال مشاهدتهم للمسلمين أثر الإسلام الطيب على الإنسان الذى اعتنقه فبدأ الكثيرون من كفار قريش يفكرون فى التحول إلى الإسلام وضعف تشبثهم بالكفر .

وكذلك كانت أخلاق المسلمين الأوائل الذين فتحوا البلاد أقوى الأسباب التى دعت شعوب البلاد المفتوحة إلى الدخول فى دين الله أفواجا، ثم اعتناق الإسلام عقيدة وشريعة حقا وصدقا . ولم ينتشر الإسلام فى مجاهل أفريقيا وأصقاع آسيا إلا بفضل السمعة الحسنة للتجار المسلمين ورجال الطرق الصوفية الذين جالوا فى البلاد يبتغون فضلا من الله وينشرون رسالته فأحبهم البشر فى كل مكان .

إن فاقد الشئ لا يعطيه، فإذا كان المسلمون اليوم فى أغلب دولهم وغالب أحوالهم قد تركوا الإسلام وراءهم ظهريا، حيث صارت أحكام الشريعة غريبة فى ديار المسلمين، وغابت أخلاق الإسلام من حياة المسلمين، فصاروا يضرب بعضهم أعناق بعض فمن العبث أو الجنون أن نتحدث عن رسالة المسلمين إلى سائر الناس !!!

ثانياً :- الموعظة الحسنة : وهى الموعظة التى تراعى أحوال الموعوظين وتعرف كيف تصل إلى قلوبهم وتؤثر فيهم، ولا يمكن أن تنجح فى ذلك إلا إذا اتصفت أولاً بالإخلاص الذى يعنى ابتغاء رضى الله وعدم انتظار أجر سواه، وهنا سيلمس الموعوظ صدق الواعظ وأنه لا يريد سوى هدايته وإنقاذه من الضلال والحيرة .

ومراعاة أحوال الموعوظين تعنى معرفة لغاتهم وطرائق معيشتهم وأهم المشاكل التى تعترضهم، ومن ثم اختيار أفضل الطرق لمخاطبتهم وتشجيعهم على الدخول فى الإسلام ولا شك أن ذلك يتطلب من الأمة الإسلامية - إن أرادت القيام بواجبها وأداء رسالتها - أن تعد " الدعاة " الجديرين بحمل رسالة الله والقادرين على إبلاغها لكافة الأمم، وما

يعنيه ذلك من ضرورة التعمق فى ثقافات الشعوب والعلم بأحوالهم .

ثالثاً :- الجدال بالتى هى أحسن

" الجدال " مقارعة الحجة بالحجة ومناقشة الأدلة

" والتى هى أحسن " هى كلمة اللَّه التى هى أحسن من كل كلام آخر . إنه الجدال بالقرآن ؛ كلمة الله إلى الإنسان . والقرآن - إذن - هو كنز الدعاة يستخرجون منه الأدلة على صحة العقيدة الإسلامية، وهو عدتهم فى الجدال لدحض أوهام الكافرين ويُسْتَدَلُ به على ما وقع فى نصوص أهل الكتاب من تغيير وتحريف فهو المرجع الذى يجب الاحتكام إليه عند الجدال، لأنه " المهيمن " على ما سبقه من كتب منسوبة إلى وحى الله.

وواجب الأمة الإسلامية باعتبارها حاملة لواء الدعوة أن تبذل جهدها فى نشر القرآن الكريم وترجمة معانيه لإتاحته باللغة العربية أو مترجما إلى كافة اللغات (الألسنة) لكل من يطلبه من الباحثين والراغبين فى المعرفة فى شتى أنحاء الكرة الأرضية.

والسؤال الآن هل تضع سفارات الدول الإسلامية فى " الدول الأخرى " ضمن واجباتها الرسمية الدعوة إلى الإسلام وسط " الآخرين " ؟ فتأخذ على عاتقها القيام بالأنشطة الآتية على سبيل المثال : -

١- ندوات للتعريف بالإسلام وشرح مبادئه بالتعاون مع الأجهزة الثقافية فى تلك البلاد .

٢- برامج إعلامية تنشرها عبر وسائط الإعلام المتعددة (الإذاعة - التليفزيون - الجرائد اليومية - المجلات والدوريات - الأفلام التسجيلية ....) للتعريف بالإسلام كعقيدة وشريعة وكتاريخ وحضارة وتناقش الشبهات والضلالات التى تنشرها الدوائر المعادية للإسلام لتضع النقط فوق الحروف وتبرز دور الحضارة الإسلامية فى دفع مسيرة الحضارة البشرية إلى الأمام نحو قيم أكثر إنسانية .

ويمكننا تصور أثر هذا الجهد المنشود فى عصر الأقمار الصناعية والسماوات المفتوحة وثورة الاتصالات والمعلومات التى جعلت من الكرة الأرضية قرية واحدة !!!

٣- تنظيم دورات مجانية لتعليم اللغة العربية للأجانب سعيا وراء نشر لغة القرآن ليتسنى للبشر مطالعة كتاب الله فى لغته الأصلية وفى نصه المعجز .

٤- عقد مسابقات علمية عالمية وترصد لها جوائز قيمة لأحسن الأبحاث التى تقدم فى مجال الدراسات الإسلامية لأن من شأن ذلك أن يلفت نظر الرأى العام العالمى للإسلام ويدعو البشر للتفكير فى هذا الدين .

ثم هل تقوم الدول العربية والإسلامية بتقدير ومكافأة الباحثين والمستشرقين الذين قدموا جهداً ملحوظا فى التعريف بالإسلام والدفاع عن قيمه وتاريخه ومساهمته الكبيرة فى بناء الحضارة الإنسانية ؟

والإجابة التى لا يختلف عليها اثنان أن جميع الدول الإسلامية لا تفعل شيئا يذكر فى كل ما سبق الإشارة إليه، مما يعنى أن الأمة الإسلامية قد تخلت عن رسالتها وصارت كغثاء السيل تتداعى عليها الأمم تداعى الأكلة إلى قصعة الطعام !!.

(ح)

الجهاد دفاع عن حرية الإنسان الدينية

لقد وجه القرآن الكريم خطابه إلى " العقل " الإنسانى ودعاه إلى التفكر والتدبر (٥٣) ولفت نظره إلى الآيات التى بثها الله فى السماوات والأرض لتكون دلائل تثبت صحة العقيدة الإسلامية ، ولا يوجد كتاب آخر سماوى أو غير سماوى دعا الإنسان إلى إعمال عقله كما فعل القرآن ، ولا شك أن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) هم أكثر الناس طلبا للجدال مع المسلمين، ومن المفترض إذا راعينا النزاهة العقلية وتجنبنا الأهواء والانحراف أنهم يكونون أقرب الناس إلى الإيمان (التصديق) بالعقيدة الإسلامية وأول المصدقين بالقرآن، لأنهم يؤمنون بالنبوة والرسالة ويعرفون الشريعة وهم يشاركون المسلمين فى هذا الاعتقاد، ولذلك أمر الله (سبحانه وتعالى) رسوله (ﷺ) بالتوجه إلى أهل الكتاب بخطاب يلفت نظر عقولهم إلى الوحدة الإيمانية التى تضمهم مع المسلمين، كما قبلت الشريعة الإسلامية أن يعيش أهل الكتاب مع المسلمين فى نفس " الدولة "

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٥٤) .

ولنلاحظ أولاً كيف انتقل السياق من مخاطبة الرسول (ﷺ) فى أول الآية بقوله : "قل " إلى مخاطبة الأمة بقوله : " فقولوا " ليؤكد أن الأمة الإسلامية تواصل عمل الرسول (ﷺ) وكيف أوضح أن مهمة الأمة الإسلامية هى إقامة الشهادة على الأمم الأخرى بقوله " فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون " وسارت الآيات القرآنية على هذا النهج الذى يدعو أهل الكتاب إلى مراجعة أنفسهم ومعاودة النظر فى مضمون إيمانهم .

وبَيَّنَ القرآن الكريم للمؤمنين كيف يتعاملون مع أهل الكتاب فقال **﴿وَلا تُجَادِلُوا**

أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ . (٥٥) .

و " الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ " هم الذين تحالفوا مع " المشركين " فى حربهم ضد المسلمين والذين يحاربون المسلمين ويعتدون عليهم فهؤلاء لا يجوز ولا يجدى معهم الجدال لأنهم لا يطلبون العلم ولا يبحثون عن الحقيقة بل هم يريدون تدمير الدولة (السلطة) الإسلامية التى تحمل لواء الدعوة، ولذلك فليس لهم إلا القتال . إن المشركين هم الذين بدأوا بالعدوان، فعذبوا المؤمنين وقتلوهم وأجبروهم على الفرار وترك الأهل والمال والأوطان، وما من سبيل لإيقاف هذا الظلم إلا القتال لإجبار المعتدين على كف أيديهم ومن هنا شرع الجهاد (القتال فى سبيل الله) **﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾** (٥٦) .

لقد شُرِعَ الجهاد (القتال فى سبيل الله) منذ البدء دفاعا عن حرية العقيدة ، عن حق الإنسان فى اختيار العقيدة التى يقتنع به عقله ويعتنقها قلبه . ولا يمكن عقلا تصور ممارسة المسلمين لحريتهم الدينية إلا فى وجود سلطة سياسية تعبر عن الأمة التى أنشأها الإيمان لأن من فروض الإسلام وأحكامه مالا يمكن طاعته إلا فى وجود حاكم يباشر أعمال السيادة السياسية مثل فريضة الزكاة التى تُجْمَعُ ويتم إنفاقها بأمر الحاكم وبواسطة "العاملين عليها" وكيف يمكن إقامة الحد (قطع يد السارق وجلد الزانى، ....) إلا فى دولة كاملة الأركان بالمفهوم السياسى ؟!!

ولكن بناء دولة جديدة ذات سيادة كان يعنى تقويض السلطة القديمة لزعماء القبائل ومن هنا احتدم الصراع واندلع القتال، وكان هذا حتما مقضيا تفرضه الطبيعة

البشرية وحقيقة إنسانية أكدها التاريخ منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا فلم تنشأ الدولة المصرية القديمة منذ أكثر من أربعة آلاف سنة على يد موحد القطرين وصاحب التاجين بالمفاوضات العسيرة والمباحثات الشاقة بين نرمر مينا وملك الوجه البحرى، بل بالحرب والقتال وسفك الدماء من أجل إنشاء دولة أعطت الإنسانية واحدة من أعظم الحضارات من منظور الإنجازات العلمية والتقنية .

وهل نشأت كل دول أوربا المعاصرة فى العصر الحديث بحدودها المعروفه الآن إلا عبر القتال فى معارك عنيفه أريقت فيها أنهار الدماء...... فى ساحات الحروب وعلى أنهار الدماء وليس على موائد المفاوضات وأوراق الاتفاقات تولد الدول . هذه هى حقيقة الأمس واليوم وغدا !!

علينا أن نتصور بعين الخيال مسيرة التاريخ ومصير البشرية لو أن المسلمين الأوائل على عهد النبى (صلى الله وسلم) لم يقاتلوا المشركين ولم ينهضوا للدفاع عن حقهم فى الوجود ورد العدوان الظالم الواقع عليهم من كفار قريش ؟!!

كان الإسلام سينحصر فى ذلك الجيل من سكان الجزيرة العربية، ثم ينحسر بموت النبى (ﷺ) والصحابة حتى يُمْحَى ذكره ويتلاشى أثره من الأرض ويزول اسم اللّه ومجده ولا تبقى إلا اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وسائر الأوهام والأساطير .

هاهنا يتضح لنا مغزى التعقيب المدهش على الإذن بالقتال والذى يقول اللّه فيه **﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾** .

" الصوامع " هى الأبنية المتطرفة التى تقام فى الأماكن النائية بعيداً عن زحام الجماعات وصخب الحياة الدنيا، يعيش فيها النساك والرهبان الذين نذورا أنفسهم لمعرفة" اللّه " يحاولون - عبر التجربة بكبح جماح الغرائز وكف الشهوات - اكتشاف

الحقيقة. إنها «الأديرة »التى يلجأ إليها الرهبان رغبة فى التبتل ، و" البيع " هى كنائس النصارى، و " الصلوات " هى مجامع اليهود حيث تقام الصلوات وتؤدى الشعائر والطقوس، و " المساجد " هى معابد المسلمين حيث يصطفون للصلاة ويجتمعون لذكر الله كثيرا.

هكذا جمع الله فى هذه الآيه كل المعابد التى بُنيَتْ له (سبحانه وتعالى) فالأديرة (الصوامع) والبيع (الكنائس) والصلوات (المجامع اليهودية) والمساجد هى الأبنية التى أقيمت من أجل أن يُعبد الله فيها ويخبرنا (سبحانه وتعالى) أنه يحفظ هذه المعابد التى يُذْكَرُ فيها اسمه ويُعْلَنُ فيها عن مجده بدفعه الناس بعضهم ببعض يعنى بتحريكه لهم لكى يواجه بعضهم بعضا ويتصادموا، وتحفيزه لهم لكى يزيح بعضهم بعضا بالقوة لأن الدفع هو الإزاحة (الإزالة) بالقوة (٥٧).

والمقصود أنه لا يمكن حماية الدين وحرية الناس فى الاعتقاد وممارسة العبادات التى يختارونها إلا بالقوة وإذا كان المسلمون يريدون حقا أن يمارسوا حياتهم على النحو الذى يعبر عن " هويتهم " ليحققوا ذاتهم ويرضوا ربهم فليس أمامهم من طريق إلا أن ينهضوا للدفاع عن عقيدتهم ويقاتلوا الذين يقاتلونهم ؛ ولذلك أُذِنَ لهم بالدفاع عن أنفسهم لأنهم ظُلِمُوا وأَمَرَهم بالقتال رغم أنهم يكرهون " الموت" بموجب طبيعتهم البشرية التى تدفعهم للإخلاد إلى الأرض أى طلب الحياة الدنيا وزينتها .

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾(٥٨).

﴿ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ : هو الإسلام، ﴿ والقتال فى سبيل الله ﴾ هو القتال تمكينا لدين الله فى الأرض دفاعا عن حق المسلمين فى أن يحيوا على النحو الذى يوافق عقيدتهم، وهو ما يعنى القتال فى سبيل إعطاء المسلمين السلطة التى تضمن لهم السيادة على أرض يتمكنون فيها من إقامة شريعة الله (دين الحق) . وهذا الأمر الآلهى بالقتال موجه فقط ضد الذين يقاتلون المسلمين ويحولون بينهم وبين أن يحيوا على النحو الذى يرضى ربهم ويتفق مع المعايير القرآنية .

﴿ **ولا تعتدوا** ﴾ : ولا تبدأو بالقتال بل إبدأوا بالدعوة على النحو الذى بينه القرآن بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، وجسمه الرسول (ﷺ) حيا على الأرض فى سيرته العطرة ﴿ **إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ : إن اللّه يكره الذين يبدأون بالقتال .

هكذا لا يمكننا فهم فريضة القتال فى سبيل الله (الجهاد) إلا فى إطار قيام الأمة الإسلامية برسالتها (الدعوة) وحقها فى أرض تقوم عليها سيادتها وتعبر فيها عن هويتها . والآخرون (الكافرون) سواء كانوا من المشركين أو من أهل الكتاب هم الذين بدأوا بالعدوان يريدون سلب المسلمين حريتهم وحرمانهم من التعبير عن هويتهم وأداء رسالتهم وهم مستمرون على مر العصور فى عدوانهم هذا ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾(٥٩).

إنهم لا يريدون سماع كلام الله وهم مستعدون لقتل من يُبلِّغ رسالة الله ومن يؤمن بها !! فكيف يمكن التعامل معهم ؟! ما من سبيل إلاَّ قتالهم لكى يكبحوا جماحهم ويكفوا أيديهم وألسنتهم . لذلك فرض الله على المؤمنين القتال ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾(٦٠) .

ولا شك فى أن رسالة الإسلام تجد دائما أذناً صاغية وقلباً ظامئاً للنور الذى يحمله هذا القرآن، ولذلك ظل الإسلام فى كل العصور ينتشر ويتسرب رغم العوائق إلى النفوس الحائرة الباحثة عن " الهدى "، خاصة وسط الفقراء والمستضعفين والمستذلين حيث يجدون فى الإسلام رسالة تحرير وإعادة إعتبار لإنسانيتهم المهدرة فيسرعون إلى

اعتناقه مجيبين نداء الله، فيتعرضون إلى الاضطهاد وصنوف التعذيب الوحشى ينزل عليهم من سادة أقوامهم الظالمين، ولذلك يأمر الله المؤمنين الذين مَكَّنَ الله لهم فى الأرض أن يهبوا لنجدة أخوتهم المستضعفين لكى يوفروا لهم الأمن وحرية العقيدة وهذا هو السبب الشرعى الأصيل في فرض القتال فى سبيل الله **﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾** (٦١) .

"الفتنة" هى أن يتعرض المؤمن للأذى الشديد بغية إرغامه على ترك دينه والتخلى عن إيمانه بإعلانه الكفر . ويجب على المسلمين الذين مَكَّنَ الله لهم فى الأرض أن يقاتلوا هؤلاء الكفار الفاتنين ويحرروا أخوتهم المؤمنين المستضعفين من نير الخضوع لهؤلاء الظالمين، ولن يتم ذلك إلا بتقويض سلطة الكفار الفاتنين وإحلال سلطة المسلمين بدلا منها، وهو ما يعنى أن يكون الحكم على تلك الأرض لله أى للشريعة الإسلامية (دين الحق) وهو ما عبرت عنه الآية بقولها: " ويكون الدين لله" والدين كما بينا سابقا هو الحكم، فتحت هذا الدين (الحكم) وحده يمكن للإنسان أن يمارس حريته الدينية !!ولكن إذا توقف الكافرون الفاتنون أصحاب السلطة عن اضطهاد المؤمنين المستضعفين وأعطوهم حرية العقيدة وسمحوا لهم بممارسة العبادات الإسلامية ولم ينقصوهم شيئاً من حقوقهم فيجب على المؤمنين بالدول الإسلامية المُمكَّن لهم فى الأرض فى هذه الحال أن يتوقفوا عن القتال ويسالموا أولئك الكافرين **﴿ فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾** .

ما من سبيل لحماية الدين إلا بالقتال فى سبيل الله، لأن الدنيا دار ابتلاء قد أقام الله الحياة فيها على الصراع بين الأمم، حيث يدفع بعضها بعضا وإذا كان المسلمون يريدون حياة العزة والكرامة ولا ينالونها إلا بنصر الله فعليهم أن ينصروا اللّه بطاعته والقتال فى سبيله حتى ينصرهم الله ولذلك ختم آية الإذن بالقتال قائلا **﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾** ويجب أن يكون المؤمن مثله (سبحانه وتعالى) قويا عزيزا !! .

(ط)

علاقة المسلمين بغيرهم

علينا أن نلتفت إلى أن الله يذكر حمايته لمعابد النصارى واليهود (الصوامع والبيع والصلوات) من الهدم، ولذلك حرص النبى (ﷺ) والخلفاء من بعده على توصية الجنود المسلمين بعدم التعرض لمعابد أهل الكتاب أثناء المعارك بالأذى، وطلبوا منهم حمايتها وحماية من يمارس شعائر " دينه "فيها، لأن الإسلام يقبل أهل الكتاب (اليهود والنصارى) فى نطاق شريعته أن يعيشوا مع أفراد أمته، ولذلك فهو يحفظ لهم حرية العقيدة ويحافظ على معابدهم وهى إحدى مفاخر الحضارة الإسلامية . وأعتقد أن قصة عمر بن الخطاب مع كنيسة القيامة بالقدس عند فتح الشام خير مثال على " روح" الإسلام السمح فى التعامل مع مخالفيه من أهل الكتاب.

وعلى النقيض كان سلوك الحضارة الغربية المسيحية مع مساجد المسلمين، وأعتقد أن موقف الصليبيين عند استيلائهم على مدينة القدس من المسجد الأقصى ومسجد الصخرة خير معبر عن " روح " الغرب العنصرى المتعصب الرافض الآخر، حيث تم تحويل المسجدين المقدسين عند المسلمين إلى كنيستين رفعت عليهما الصلبان مع غيرهما من مساجد القدس، فضلاً عن استعمال جزء من المسجد الأقصى كمخازن للجيش الصليبى وجزء كمساكن لفرسان الهيكل، وجزء كإسطبل للخيول والحيوانات . وكذلك فعل "نابليون" مع المسجد الجامع بالأزهر حيث حوله إلى إسطبل لخيوله عندما استولى على مدينة القاهرة فى الحملة الفرنسية على مصر والشرق !!

إن شريعة الإسلام تقبل أهل الكتاب كمواطنين كاملى المواطنة فى الدولة الإسلامية وتحفظ لهم حقوق المواطنة، كما سبق أن أشرنا، ولكنها لا تقبل المشركين الوثنيين أصحاب تعدد الآلهة، لأن الله لا يرضى أبدا بإعلان ألوهية غيره فى الأمة التى شرفها وكلفها بحمل رسالته إلى الناس، ولذلك حَرَّم الله على المؤمنين أن يَنْكِحُوا المشركات

أو أن يُنْكحوا المشركين للنساء المؤمنات، بينما سمح للمؤمنين بنكاح المحصنات من أهل الكتاب . يقول الله (سبحانه وتعالى) : ﴿ وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٦٢).

قوله ﴿ حتى يؤمن ﴾ يعنى حتى يعلن إسلامهن وقوله " حتى يؤمنوا " يعني حتى يعلنوا إسلامهم، والنتيجة النهائية أن لا وجود لمشرك يعلن إشراكه بالله مواطناً كامل الأهلية فى إطار الدولة الإسلامية، ولذلك لم يفرض الله (سبحانه وتعالى) على المشركين جزية تؤخذ منهم ليبقوا ضمن أفراد الأمة الإسلامية المحكومة بالشريعة الآلهية أى "دين الحق" كما فرضها على أهل الكتاب، فليس أمام المشرك المُصِر على إشراكه بالله - رغم الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن - إلا أن يترك الدولة الإسلامية ويخرج من الأمة التى لا يريد الاعتراف بإلهها وليذهب إلى أمة أخرى تشاركه عقيدته وتؤمن بآلهته .

هذه حقيقة يجب بيانها بكل وضوح وإعلانها بكل صراحة؛ لأن قبول المشركين الوثنيين المؤمنين بتعدد الآلهة معناه تقويض أساس الأمة الإسلامية التى ولدت من الإيمان بالله، وضرب لهوية الأمة فى صميمها .

وليس معنى هذا أن السلطة الإسلامية ستظل تطارد المشركين حتى يؤمنوا، لأن جوهر الإيمان اختيار لا إكراه فيه، فضلا عن أن الإيمان عمل قلبى أو حقيقة باطنية (سرية) لا يعلمها إلا الله، ولكن من غير المقبول فى أمة إسلامية إعلان الإشراك بالله لأن فى هذا القضاء على معنى الأمة الإسلامية حاملة رسالة الله إلى العاملين، وإذا كان أحد من الناس يرفض الانتماء إلى الأمة ولا يعترف بهويتها ورسالتها فلماذا يصر على البقاء فيها ؟ إلا إذا كان يريد هدمها من الداخل ! ! !

ولا شك أن المحك الصحيح لاختبار هذه المسالمة هو عدم اضطهادهم للمؤمنين الخاضعين تحت سلطانهم أى الأقليات المسلمة فى الدول غير الإسلامية، فعندما تسمح تلك الدول " الكافرة " للمسلمين داخلها بحرية العقيدة وممارسة الشعائر الإسلامية دون قيود، وجب على الدول الإسلامية أن تسالم تلك الدول وتتبادل معها العلاقات وحسن الجوار والتعاون لصالح الطرفين .

وعلى الأقليات المسلمة أن تحترم قوانين وأعراف الدول غير الإسلامية " المسالمة" التى تعيش داخلها ما دام أن تلك القوانين والأعراف لا تفرض عليهم الخروج على مقتضى العقيدة الإسلامية من عبادات وأخلاق وهو الأمر الذى يفهم على سبيل الإشارة البليغة فى قوله (سبحانه وتعالى) : **﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** (٦٤) .

فى هذه الآية نجد إنسانا فردا يعيش فى أسرة مُشْرِكَة حيث يكون الأب والأم مُشْرِكَيْن بالله، وهو ما يرمز إلى أو يناظر وضع الأقلية المسلمة فى المجتمع الكافر فعلى هذا الفرد / الأقلية أن يقاوم قدر جهده كل المحاولات التى تبذلها الأسرة / المجتمع لرده عن إيمانه وإعادته إلى الشرك بالله، وإذا كان الله قد وصى الإنسان كقاعدة مطلقة بطاعة الوالدين ورحمتهما وإكرامهما كما قد ذكر فى صدر الآية السابقةَ- فإن طاعتهما فى الإشراك بالله أمر مرفوض، فهو إذن استثناء من القاعدة الدينية، ولكن ليس معنى إعلان العصيان فى هذا الأمر أن يخرج الإنسان على سائر أحكام الله وأن يمد عصيانه خارج ذلك النطاق ولذلك أمر الله الفرد المؤمن / الأقلية المسلمة بمصاحبة الوالدين / المجتمع المشرك **﴿فى الدنيا معروفا﴾** يعنى بالمعروف (العدل) الذى أمر الله به بأداء الأمانة والوفاء بالعهد وإعطاء كل ذى حق حقه طبقا لما " عُرِفَ " عن المؤمن من خلق كريم تقتضيه العقيدة الإسلامية وأن يسلك هذا الفرد المؤمن / الأقلية المسلمة

سبيل الذين حققوا التوبة إلى اللّه، وهذا هو معنى قوله (سبحانه وتعالى) " واتبع سبيل من أناب إلى " فإن الإنابة هى تحقيق التوبة فإذا كانت التوبة وعداً فإن الإنابة هى الوفاء به وإنجازه، مؤمنا ومتذكرا أن الدنيا دار ابتلاء (امتحان) وأنها جد قصيرة وإلى زوال، وأن الحقيقة كاملة لن تتجلى إلاَّ فى يوم القيامة عند الرجوع إلى الله والمثول بين يديه لسماع حكمه النهائى فى مصير الإنسان، حيث يتبين حقيقة أعماله وهذا هو المعنى الذى يشير إليه (سبحانه وتعالى) ﴿ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ .

فهذه الآية الكريمة تحدد للأقلية المسلمة النهج الذى يجب أن تسير عليه فى حياتها داخل الدول غير الإسلامية ،وكيف تتعايش مع أحوال أمم لا تؤمن أغلبيتها بالقرآن .

فعلى الأقليات المسلمة أن تتمسك بعقيدتها وأن تصبح بسلوكها وأخلاقها مصابيح الهدى فى ظلام الكفر لتضئ " سبيل الله " أمام الناس وتدعوهم للسير فيه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، ولا بد أنها ستتعرض للأذى والضيق والإهانة، وما عليها إلا أن تثبت وتصبر وتصابر، فهذا هو جهادها، ولذلك قال النبى (ﷺ) "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية " يعنى بعد فتح مكة والهجرة تعنى الانتقال، من أرض الاستضعاف حيث لا يمكن إقامة شريعة الله (دين الحق) إلى أرض التمكين حيث تسود أحكام الشريعة، ولكن دخول النبى (صلى الله عليه وسلم) أم القرى فاتحاً ، وهى كما قلنا مركز الأرض كان إيذانا بنهاية زمن الاستضعاف وبداية زمن التمكين الذى يستمر إلى يوم الدين، ويبلغ أوجه بنزول عيسى ابن مريم (عليه الصلاة والسلام) حيث تخضع الأرض كلها على يديه لشريعة الإسلام، فلا يبقى حينذاك مشرك وجميع أهل الكتاب يؤمنون بالقرآن فى وقت عودته (عليه الصلاة والسلام) ، وتتوحد الأديان كلها فى دين واحد هو الإسلام، وذلك تمام تحقيق وعد الله بإظهار " دين الحق " على الدين كله.

وفتح مكة إذن كان إعلانا ببدء زمن التمكين وصيرورة الأرض كلها لتكون مكانا

تسرى عليه أحكام الشريعة الإسلامية، وهو ما يعنى زوال زمن / أرض الاستضعاف، فأصبح على كل مسلم فى أى بقعة من الأرض أن يثبت فى مكانه وعلى دينه، وأن يدعو ويتحمل تبعة القيام بأداء أمانة " الشهادة على الناس " فلم تعد الهجرة من المكان بل صارت هجرة ما نهى الله عنه.

وعندما يعلن الكافرون عدواتهم للمؤمنين ويقاتلونهم فى الدين يجب حينئذ الجهاد تمكيناً لدين الله فى الأرض فأصبح الجهاد بديلاً عن الهجرة، يعنى قد أصبح الواجب تحويل أرض الاستضعاف - وليس الانتقال منها- إلى أرض تمكين بالدعوة ونشر الإسلام أولاً ثم الجهاد (القتال فى سبيل الله) إذا اقتضى الأمر ذلك وتجمعت الأسباب وتهيأت الظروف، فإن لم يستوجب الأمر الجهاد فليكن المؤمنون على استعداد دائم لخوض القتال ولذلك قال " ولكن جهاد ونية " يعنى ونية للجهاد فصار الجهاد بديلا عن الهجرة وذلك معنى الاستدراك فى قوله (صلى الله عليه وسلم) " ولكن " .

وعندما يشتد طغيان الكافرين وبطشهم بالمستضعفين من المؤمنين ويستغيثون بالله طلبا للنصر، يجب على المؤمنين المُمكَن لهم فى الأرض بالدول الإسلامية أن يهبوا لنجدة إخوتهم فى الدين ولذلك ختم الحديث بقوله (ﷺ) " وإذا استنفرتم فانفروا " وعاب عليهم تقاعسهم وتخاذلهم عن نصرة إخوتهم المستضعفين فساءلهم على سبيل الذم واللوم **﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾** (٦٥).

هل يشك أحد فى أن هذه الآية تنطبق على حال المسلمين فى الفليبين وبورما وبلغاريا والبلقان وغيرها حيث يتم اضطهاد المسلمين وتعذيبهم وتشريدهم تحت عنوان مخادع تبثه وسائل الإعلام الغربية " التطهير العرقى "، وكأنه صراع أجناس أو سلالات بشرية وليس صراع أديان ، كما لا يشك أحد فى أن الدول الإسلامية لم تقم بشئ يذكر لنصرة هؤلاء المستضعفين، كما لا يشك أحد فى أن ما يحدث فى فلسطين تحت سمع

وبصر العالم كله لا يخفى على أولى الأمر فى الدول الإسلامية، ولكنهم يُصِمُّون آذانهم عن كلام الله ويُعْمون أبصارهم عن رؤية الحقائق، فلا عجب أن صار المسلمون كغثاء السيل !!

لقد بلغ بطش الكافرين بالمؤمنين المستضعفين حد أن طلبوا الفرار ﴿ **من هذه القرية الظالم أهلها** ﴾ وتضرعوا إلى الله أن يرسل إليهم من رحمته من يجيرهم ويجيب نداءهم ومن ينصرهم على من يضطهدونهم .

ومن الأمة الإسلامية - حيث مكن اللّه للمسلمين فيما يسمى بالدول الإسلامية - ينبغى أن يأتى الولى والنصير الذى يأخذ بأيدى هؤلاء المستضعفين، لا ليخرجهم من القرية الظالم أهلها لأن هذا الخروج هو هدف الظالمين بل ليمكن لهم فيها مقوضا سلطة الكافرين المعتدين على حرية الإنسان الدينية حيث يضطهدون المؤمنين المسلمين بغية ردهم عن دينهم .

هاهنا يفرض الجهاد على الأمة المكلفة بحمل الرسالة ويبدأ الجهاد بإنهاء حالة المسالمة بين المؤمنين والكافرين الذين يعتدون على المسلمين وذلك بهدف الضغط عليهم للتخفيف عن المستضعفين الواقعين تحت سلطانهم ﴿ **إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ (٦٦) .

وقد يبلغ الاضطهاد حداً من القسوة يجبر المستضعفين على " الهجرة " إذا لم يجدوا من المؤمنين الولى والنصير - وهاهنا تصبح " الهجرة " واجبة حفاظا على العقيدة وفرارا من الفتنة فنحن فى هذه الحالة أمام حالة الضرورة .

أما إذا تخاذل المؤمنون وتخلوا عن عقيدتهم وارتدوا كافرين وماتوا على ذلك فإنهم يكونون قد ظلموا أنفسهم وماتوا وهم كافرون فاستحقوا الجحيم ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا** ﴾ (٦٧) .

الواجب فى هذه الحالة هو الهجرة فرارا بالعقيدة ولكن الذين ﴿ **لا يستطيعون حيلة** ﴾ لدفع الاضطهاد والثبات فى الأرض حيث يعدمون الولى والنصير ﴿ **ولا يهتدون سبيلا** ﴾ إلى الخروج ﴿ **من هذه القرية الظالم أهلها** ﴾ فهم مضطرون فى هذه الحالة إلى إعلان كفرهم حفاظا على حياتهم وينطبق عليهم شرط الضرورة الذى وصفه الله بقوله ﴿ **إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ** ﴾ (٦٨) .

إن معاملة الأقليات المسلمة ينبغى أن تكون هى المعيار الحاكم للسياسة الخارجية للدول الإسلامية ، فالدول التى تحسن معاملة رعاياها المسلمين يجب أن نسالمها امتثالا لأمر الله ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ (٦٩) ويسمح الله لنا -كما صرحت الآية الثامنة من سورة الممتحنة - ببرهم والإقساط إليهم مما يبرهن على جواز التعاون معهم بل ومساعدتهم وتقديم الخير لهم (برهم) ومعاهدتهم وإقامة التحالفات معهم والوفاء بعهدهم وإعطائهم حقوقهم (الإقساط إليهم) كما عاهد النبى (صلى الله عليه وسلم) المشركين فى الحديبية فى العام السادس من الهجرة وأنشأ التحالفات مع القبائل العربية وكانت لاتزال على الشرك .

إن الإسلام ، يطلب السلام ، لأن القرآن يخاطب العقل ويدعو الإنسان إلى التفكر ، وهو ما لا يمكن تحققه إلا فى ظل السلام وابتعاد شبح الحرب ، ولكن إذا أصر الكافرون على الجهر بالعداوة وأعلنوا الحرب فهل يوجد سبيل لحفظ الهوية والرسالة إلا القتال ؟

(ك)

الفتوحات الإسلامية لم تكن غزوات استعمارية

علينا هنا أن نتذكر أن القرآن يبث فى قلوب المؤمنين به الرجاء فى السلام وإحلال المودة مكان العداوة، ويعتبر أن ذلك التغيير المنشود آية من آيات القدرة الإلهية التى تملك القلوب، ويذكر المؤمنين به بأن الله غفور رحيم ليدعوهم إلى أن يغفروا لأعدائهم وأن يرحموهم إن جنحوا للسلم وأقلعوا عن الحرب يقول ﴿ **عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[٧٠] .

ولكن رغم ذلك يُتَّهم الإسلام دوما من قبل أعدائه الغربيين وأتباعهم التغريبيين أو المستغربين بأنه يُكْرِهَ الناس على الإيمان بعقيدته، وأنه قد انتشر بحد السيف وأنه قد أقام إمبراطورية" استعمارية " بقوة السلاح متذرعا بفريضة الجهاد . ويكفى للرد على كل هذه الأباطيل والمغالطات أن نقرأ القرآن وأن نقرأ التاريخ، فماذا يقول القرآن ؟! ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾[٧١] .

" ولو " أداة شرط تفيد تعذر أو استحالة الشرط، ومعنى استعمالها هنا هو إفادة استحالة أن يؤمن كل من فى الأرض من إنس وجن، فلن يأتى على الأرض حين من الدهر يكون جميع الخلق فيها مؤمنين فهذا ما سبقت به المشيئة الإلهية قبل ظهور الخلق، لأن الله قد أعطى الإنسان حق الاختيار بين الكفر والإيمان، فكان من المحتوم أن ينقسم البشر إلى مؤمنين وكافرين تعبيراً عن الحرية التى وهبها الله للإنسان، ولذلك يسأل الله رسوله (ﷺ) مستنكرا ﴿ **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ فإذا كان الله (جل فى علاه) لم يشأ أن يجعل كل الناس مؤمنين، فكيف يمكن إكراههم على ذلك . والإيمان الحق هو ثمرة الاختيار الحر . ويقول القرآن أيضا : ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ**

فَلْيَكْفُرْ ﴾ (٧٢) والمعنى هو : وأعلن الناس أن هذا القرآن هو شهادة العلم الإلهى التى جاءتكم من ربكم وأمرنى بإبلاغها إليكم ليعلم كل واحد منكم مصيره، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر "، ولكن عليه - وهو يختار - أن يعلم أنه يقرر مصيره الأبدى، فمن رحمته (سبحانه وتعالى) يذكرنا بعذابه حتى لا نختار الكفر فقال : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾(٧٢) .

وعبر عن الكافرين بقوله " الظالمين " لبيان أنهم قد ظلموا بكفرهم أنفسهم ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٧٣) .

وأفاد القرآن أن انقسام البشر إلى مؤمنين وكافرين حتم قضت به الإرادة الإلهية عند الخلق فقال ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.(٧٤)وأفاض فى التأكيد على حتمية اختلاف الناس وبقائهم مختلفين منقسمين إلى كافرين ومؤمنين واعتبر أن طلب توحيد الناس على عقيدة واحدة يعد جهلاً بالحقيقة الإلهية وطلب من المؤمنين أن " ييأسوا " من تحقق ذلك فى الدنيا لأنها دار ابتلاء، وموضع الابتلاء (الامتحان) هو الإيمان بالغيب.

ويضيق المقام عن بسط أوسع وتفصيل أكثر لهذه القضية التي يكثر فيها اللغط والغلط رغم بيان القرآن القاطع ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٧٥) .

قوله ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ يعنى لا إجبار فى شريعة الله على الدخول فى الإسلام ولا إرغام على إعلان الإيمان لأن الإيمان يقوم على الاختيار الحر. ولكن القرآن يقرر فى وضوح تام أن الله (سبحانه وتعالى) قد أرسل رسوله (ﷺ) " بالهدى ودين الحق " وقلنا : إن الدعوة ستثمر حتما ولادة أمة تتكون من مجموعة الأفراد الذين آمنوا بالرسول

ورسالته باختيارهم الحر ، ولا بد لهذه الأمة من سيادة سياسية على الأرض التى يعيش عليها أفرادها حتى يتمكنوا من " إعمال " أحكام " دين الحق " على الأرض تعبيرا عن إيمانهم بالرسالة التى تعبر عن " هويتهم " لأن الله لم ينزل " دين الحق " لكى تُهْدَر أحكامه أو يُضْرَبَ بها عرض الحائط وعندما تتغافل الأمة عن أحكام الشريعة الإسلامية فإنها فى الحقيقة تفقد " هويتها " أو تضل عن ذاتها ، ومن ثم فالسيادة على الأرض ضرورة لتعبير (الأمة) عن نفسها وبهذه السيادة صار للإسلام دولة كاملة الأركان وصارت الدولة الإسلامية قوة سياسية تتفاعل مع غيرها من القوى السياسية المحيطة بها على المستوى المحلى الداخلى فى جزيرة العرب ، وعلى المستوى الدولى الخارجى (فارس والإمبراطورية الرومانية الشرقية) واندفع التفاعل السياسى مع تلك القوى ليصنع التاريخ والحضارة الإسلامية كثمرة للصراع بين الدعوة والقوى المناوئة لها ، أو بكلمات أخرى كنتيجة لاستجابة الناس (القبائل والشعوب والأمم والدول) للرسالة التى بثها الرسول (ﷺ) وأمته من بعده .

فمن تبلغه الرسالة إما أن يظل على الكفر ولكن يدخل فى طاعة الدولة الإسلامية كالأعراب فى سورة الحجرات ، حيث لا بد لكل إنسان من سلطة ينضوى تحت لوائها ، أو يخضع لأحكامها باعتبار أن الإنسان كائن جماعى بموجب طبيعته لا يستطيع إلا أن يعيش فى جماعة لا بد لها من قانون ينظم حياتها وسلطة تحكمها ، فلماذا يجب اعتبار قوانين الجاهلية أفضل من أحكام الشريعة الإسلامية؟ ولماذا يكون زعماء القبائل كحكام أفضل من رسول الله (ﷺ) وخلفائه ؟ !! وليس معنى هذا أن رسول الله (ﷺ) أو من يخلفه كان يحكم بتفويض إلهى كلا ، بل بالبيعة التى تعنى أن الأمة هى مصدر السلطة السياسية . وهذا هو جوهر الديموقراطية .

أما إذا رفض مَنْ بلغته الدعوة أن يدخل فى الطاعة فحينئذ عليه أن يخرج من الأمة . هذا هو العدل . فهل تقبل دولة من الدول أن يدخل أرضها أو يبقى فيها من يرفض قوانينها ولا يعترف بسلطة حاكمها ؟ !!! بالطبع لا ، فلم ولن يحدث هذا أبداً .

فى الدول غير الإسلامية ؛ الديموقراطية وغير الديموقراطية ، والتى لا تستند إلى أى

أساس دينى أو تدعى حمل رسالة إلهية يستحق هذا الإنسان الطرد أى النفى خارج الحدود إن لم يكن القتل ، أما الدولة الإسلامية فإنها ملزمة بنص القرآن بإسماع هذا الإنسان كلام الله وأن تبين له موقفه وحقوقه وواجباته ثم تتركه يختار لنفسه ما يريد وتقوم بإيصاله إلى حيث يكون آمنا على نفسه ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ (٤٩) .

فأى إكراه هنا ؟!! سيقول الذين فى قلوبهم مرضُ : ولماذا يُطْرَد هذا الإنسان الرافض للإسلام من بيته وأرضه التى عاش فيها ؟!!.

أليس فى هذا إكراه له وإجبار على ترك موطنه إذا رفض الدخول فى الإسلام ؟!! والمشكله الحقيقية تكمن فى عقل هؤلاء المعادين للإسلام الذين يشرثرون بمثل هذا السؤال ، لأن عقلهم الذى أمرضه " التغريب " يرفض الاعتراف بحقيقة أن للإسلام كيان سياسى وسيادة على الأرض كجزء أصيل لا يتجزأ من مضمون رسالته ، فهو ليس مجرد عقيدة دينية أو علاقة خاصة بين الفرد وإلهه ، ولذلك فإن الدولة (السلطة) الإسلامية المعبرة عن سيادة الأمة ترفض من يرفض الاعتراف بشرعية وجودها ولا يقبل الخضوع لقوانينها وإجراءاتها السيادية ، وإن أحكام الدين أو الشريعة الإسلامية هى قوانين الدولة المعبرة عن سيادة الأمة السياسية ، وإن الدولة الإسلامية - فى هذا المقام - تسلك سلوك غيرها من الدول فى معاملة الخارجين عليها ، بل هى أرحم .

هذا ما يقوله القرآن ، فماذا يقول التاريخ ؟! إن التاريخ يصرخ بأن المسلمين هم الذين تعرضوا دائما فى فترات الضعف إلى محاولات عنيفة وعنيدة ومستميتة لردهم عن دينهم وإعادتهم إلى الشرك أو الكفر ، بدءاً من محاولات قريش فى مكة مع أصحاب النبى (ﷺ) فى مرحلة الاستضعاف قبل الهجرة والإذن بالقتال فى سبيل الله ، ومروراً بمحاكم التفتيش فى أوربا فى عصر الاسترداد الذى عادت به الأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط إلى المسيحية عشية عصر النهضة الأوربية ، وخطط

التنصير التى صاحبت حركة الاستعمار وانتهاء بالتطهير العرقى فى نهاية القرن المسيحى العشرين فى بلغاريا والبلقان حيث يفرض على المسلم أن يغير اسمه ودينه وإلا طُرِدَ من وطنه رغم دعاوى العلمانية العريضة وادعاءات الديموقراطية الزائفة !!! .

وأعتقد - بعد ما قدمناه من بيان لفريضة القتال فى سبيل الله (الجهاد) - أنه لم يعد مجال للحديث عن أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف وإكراه الناس على اعتناق عقيدته، وفى المقابل فإننا يمكننا بكل ثقة أن نقرر أن" المسيحية " لم تكتسب انتشارها العالمى إلا بقوة السلاح، وذلك من خلال قرار الإمبراطور الرومانى قسطنطين فى القرن الرابع الميلادى اعتبار " المسيحية " الدين الرسمى للإمبراطورية، وفرضها على كل الشعوب الخاضعة للاحتلال الرومانى فى أرجاء العالم القديم بأوربا وآسيا وأفريقيا .

وفى العصر الحديث منذ الكشوف الجغرافية فى فجر النهضة الأوربية وحتى القرن العشرين الميلادى واكب " التنصير " حركة الاستعمار القديم والجديد فى جميع أنحاء الكرة الأرضية بالعالم القديم والجديد .

لقد استطاعت جيوش الغزو والاحتلال الأوروبى أن تسحق وتمحو الكثير من الديانات الوثنية، وأن تدخل ملايين البشر قسرا فى " ملكوت الله " بالمفهوم المسيحى الغربى، الذى يعنى فى الحقيقة " ملكوت الهيمنة الغربية الاستعمارية"، وكان التنصير "جزءاً لا يتجزأ من رسالة " الرجل الأبيض " لإكساب المتخلفين" مظاهر " الحضارة ويجمع المؤرخون والمفكرون الجديرون بالاحترام على أن المبشر المسيحى كان يمهد ويتمم عمل المستعمر الراغب فى نهب ثروات البلاد المفتوحة، وأن الكنيسة كانت تكمل عمل البندقية والمدفع !!!

كان " العالم الإسلامى " هو الاستثناء الوحيد الذى عجزت جيوش أوروبا الاستعمارية عن تنصير أهله فقد ظل المسلمون متمسكين بعقيدتهم، ولم يشهد العالم

الإسلامى فى أى ركن من أركانه حركة ارتداد أو تحول إلى المسيحية رغم الهزيمة العسكرية أمام أسلحة العدو " الكافر " ورغم الفقر والدخول تحت نير الاستعمار، لأن القرآن يمنح المؤمنين به شعورا بالعلو والسيادة، ولا شك فى أن هذه الحقيقة التاريخية الدامغة هى أشد ما يغيظ ويؤلم الغطرسة الغربية .

ويحلو لأهل " التغريب " أن يعتبروا الفتوحات الإسلامية حركة استعمارية تشبه ما قامت به أوربا فى غزوها لبلدان العالم، ولمحو هذه المغالطة وبيان ما فيها من أكاذيب نذكر باختصار يناسب المقام الحقائق الآتية : -

١- كان الفتح الإسلامى حركة تحرير للشعوب من قبضة الاحتلال الأجنبى ومن براثن حكم فاسد يجثم على صدور الناس بالأساطير وبالحديد والنار .

فقد حرر الفتح العربى الإسلامى بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا من نير الاستعباد الرومانى، كما قوض سلطان " كسرى " الذى كان يسمى نفسه ملك الملوك (شاهنشاه) ويفرض على الناس أن يسجدوا بين يديه .

أما الاستعمار الأوروبى فقد كان ولم يزل استعباداً للشعوب غير الغربية بغية إخضاعها وفرض التبعية عليها ونهب ثروات بلادها لصالح أوروبا .

٢- لم تُبْد الشعوب مقاومة تذكر لجيوش الفتح الإسلامى بل تعاونت مع القوات الفاتحة فى أحيان كثيرة، ولذلك انحصرت المعارك بين المسلمين الفاتحين وجيوش الدولة النظامية التى كانت تدافع عن سلطة الإمبراطور أو كسرى، بينما وقفت الشعوب على الحياد بين الجانبين تنتظر نتيجة المعركة . وفى مصر - على سبيل المثال - رحب الشعب بالفاتحين القادمين من جزيرة العرب للخلاص من نير الاستعباد الرومانى، حيث كانت تشتعل حينذاك حرب دينية دموية بين السلطة الرومانية وجموع الشعب المصرى؛ لأن الكنيسة الرومانية كانت تريد فرض مذهبها الدينى على المصريين الذين اختاروا مذهباً

آخر، وكان هذا الصراع المذهبى العنيف قناعاً للصراع القومى بين المصريين و الرومان، لأن الدين - كما قلنا من قبل - هو جوهر الهوية .

لقد اضطهد الرومان المصريين وطاردوا رأس الكنيسة المصرية " الأنبا بنيامين " الذى اضطر للفرار والاختباء فى الصحراء خوفا من بطش الرومان، ولذلك جاء الفتح العربى الإسلامى تحريرا لمصر من الاحتلال الرومانى.

ويفسر ضعف مقاومة الشعوب للفتح الإسلامى السهولة النسبية التى استطاع الفاتحون بها الاستيلاء على البلاد، وعلى النقيض نجد أن الشعوب قد قاومت الاستعمار الأوروبى بعنف وعناد واستماتة، وقدمت عن طيب خاطر ملايين الشهداء، واندلعت حروب التحرير ضد المستعمر الغربى من قلب الشعوب وليس من جانب السلطة الحاكمة . هل نذكر الجزائر بلد المليون شهيد ؟!!

٣- صبغت الأخلاق الإنسانية الكريمة المنبعثة من العقيدة الإسلامية سلوك الجيوش الفاتحة وكانت وصايا الخلفاء باحترام المعابد وعدم التعرض للنساء والشيوخ والأطفال مضرب الأمثال، ولذلك لم ترتكب جرائم الحرب ولم تقع المجازر البشرية فى حروب الفتوحات الإسلامية ، أما الغزوات الاستعمارية الأوربية فقد شهدت أبشع جرائم الحرب وأفظع الممارسات الوحشية ضد الإنسانية، وتكررت وتواترت سياسة العقاب الجماعى والأرض المحروقة والمجازر البشرية واغتصاب النساء وهتك الأعراض ونهب الثروات ... ولا نحتاج إلى الاسترسال وذكر المزيد فقد أصبح كل ذلك من المعروف من التاريخ بالضرورة، فقط لنتذكر كيف أُزْهِقَتْ نفس البطل " سليمان الحلبى " على الخازوق " كرمز يجسم " روح " الحضارة الغربية فى علاقتها " بالآخر " !! .

ولنتذكر كيف حافظ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) على حرمة كنيسة القيامة، بعد استيلاء جنوده على مدينة القدس، بينما حول الصليبيون المسجد الأقصى إلى كنيسة رفعوا عليها الصليب وجعلوه مخزناً للمؤن والذخائر ومساكن

للجنود وإسطبل للحيوانات، وكذلك فعل نابليون بونابرت بالجامع الأزهر عند الحملة الفرنسية على مصر وفى هذا المثل الكفاية .

٤- إن جوهر العلاقة «الاستعمارية» البغيض هو " الاستغلال " الذى يعنى تحويل المستعمرات إلى أطراف تعمل لصالح المركز الذى تشغله الدولة الاستعمارية، فيتم إحداث تغيير فى نمط الحياة على كافة المستويات الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والقانونية والتعليمية والثقافية فى الأطراف لتصب كل تلك التغييرات فى صالح المركز لنهب ثروات البلاد المفتوحة ،حيث تؤخذ الخامات ومصادر الطاقة بأبخس الأثمان - إن لم يكن مجانا - لتغذى التصنيع وتنمى الاقتصاد فى الدولة المركز فتتحول الأطراف فى النهاية إلى توابع ذليلة للمركز حيث لا تعدو أن تكون سوى مصدر رخيص الثمن للخامات والطاقة وسوق رائجة لمنتجات المراكز الصناعية ،وتترسخ حقيقة التبعية وتزداد الفجوة باستمرار بين التابع الذليل والسيد المتبوع بحيث يكون الانتقال من عاصمة أو إحدى مدن الدولة الاستعمارية إلى إحدى مدن المستعمرات انتقالا من عالم قائم بذاته تسوده الرفاهية إلى عالم "آخر" يختلف عن العالم الأول تماما حيث يسود الفقر والجهل والمرض، ولم تكن تلك الفروق الهائلة بفضل العلم والتقنية فقط بل بسبب النهب المستمر لثروات المتخلفين لصالح المتقدمين !!!

أما فى عصر الخلافة الإسلامية فلم يكن هنالك ثمة فرق يذكر بين الحياة فى عاصمة الخلافة (المدينة المنورة أو دمشق أو بغداد أو القاهرة) والحياة فى أى مدينة من مدن الولايات المترامية الأطراف، ولم يكن الانتقال من العاصمة إلى أى بلدة أخرى فى أرجاء العالم الإسلامى انتقالا من عالم إلى آخر، لأن بلدان العالم الإسلامى ظلت متقاربة فى مستوى المعيشة مما يبرهن على انعدام علاقة الاستغلال بين المركز والأطراف ومن ثم تَنَزُّه الفتوحات الإسلامية عن أن تكون حركة غزو استعمارى .

بل لقد كانت بعض الأقاليم -كمصر مثلا - تعيش فى مستوى من المعيشة أرقى من المستوى الذى تعيش فيه عاصمة الخلافة الإسلامية نفسها . لقد نشر الفتح الإسلامى العدل فى أرجاء البلاد وحرر الشعوب من قهر الحكام الطغاة وساعد على رفع

مستوى المعيشة فى قطاعات كبيرة من البشر الذين خضعوا للحكم الإسلامى ودخلوا فى دين الله أفواجا، وأنتج نطاقا حضاريا واسعا يتميز بالتجانس والتقارب بين جميع أجزائه حيث كانت عدالة توزيع الثروة هى السمة الغالبة فى معظم مراحل التاريخ الإسلامى خاصة فى فترات القوة التى شهدت عصر الفتوحات .

ولا شك أن القرآن يرفع الأمة الإسلامية فوق سائر الأمم لأن الله (سبحانه وتعالى) قد كلفها بحمل رسالته إلى جميع الناس وكان هذا التكليف الإلهى تشريفا أو اجتباء تؤدى حقه بالجهاد ولذلك خاطبنا قائلا ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾ (٧٦) .

وواسانا وطَيَّبَ خاطرنا لما سوف نلاقيه حتما من عنت ومشقة حين نقوم بأداء الأمانة التى ائتمننا عليها فقال ﴿ **وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (٧٧) .

فإذا هبطنا من سماء هذا القرآن العزيز إلى أرض الواقع الذليل حيث يبشرنا قادتنا بأن أقصى ما نصبو إليه هو اللحاق بالغرب المتقدم عبر محاكاته أدركنا كم ابتعدت الأمة الإسلامية عن مفهوم " الوسطية" وإلى أى حد تخلت عن رسالتها وتركت مقام الشهادة على الأمم !!

(٢)

التغريب تحدى الهوية الإسلامية

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾

"سورة البقرة - الآية ٢١٧"

(أ)

فى الطريق إلى حروب صليبية جديدة

لا يساور عقل المتأمل البصير أدنى شك فى أننا مقبلون على عصر من الصراع المحتدم بين العالم الإسلامى والغرب "الصليبى" تقوده "الولايات المتحدة الأمريكية ،أو أمريكا اختصارا، وقد صارت فى فجر القرن الحادى والعشرين الميلادى القوة العظمى الوحيدة، أو القطب الأوحد أى " مركز " العالم (حركة التاريخ) بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وانفراط عقد توابعه من الدول التى كانت تكون ما يسمى " المعسكر" الشيوعى. وذلك من أجل إحكام القبضة على العالم الإسلامى حتى لا يتحرر من أغلال التبعية للغرب .

وإذا كان الربع الأخير من القرن المسيحى العشرين قد شهد مناقشات مشتعلة وصولات فكرية صاخبة عن احتمالات الصدام بين الغرب والإسلام خاصة فى العقد الأخير بعد زوال الخطر الشيوعى، وظهور ما يسميه الغربيون والمستغربون " بالإسلام الأصولى" كعدو تاريخى للحضارة الغربية، فإن الحملة الأمريكية الكاسحة على العالم الإسلامى التى اتخذت شعار " الحرب على الإرهاب " قد وضعت حدا لتلك المناقشات والمساجلات النظرية، وأزالت الشكوك باليقين إذ أصبحت المواجهة العنيفة بين الغرب تقوده أمريكا والشرق الإسلامى مفككا متناثرا فى كيانات واهية ، واقعا محسوسا وحتما مقضيا !!

ويخطئ خطأ كاملا من يتوهم أن هذه الحملة العسكرية العارمة - التى تتخذ من الكرة الأرضية بأسرها ميدانا للمعركة ومجالا لتحريك القوات الحربية - هى مجرد رد فعل، أو استجابة للهجوم " الإرهابى " الذى تعرضت له الولايات المتحدة الأمريكية فى الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ م، وذلك لأن قدراً متواضعا من التأمل البصير فيما حدث من " وقائع " سوف يكشف بكل وضوح عن " الحقائق " الآتية : -

★ أن الولايات المتحدة الأمريكية سارعت بإدانة تنظيم القاعدة بقيادة رجل الأعمال السعودى " أسامة بن لادن "(٧٨) بتدبير هذا الهجوم قبل إجراء أى تحقيق من أى نوع، أو على أى مستوى بينما سحب الدخان المنبعثة من الانفجارات كانت ما تزال تتصاعد من الأبنية المتهاوية، مع صرخات المصابين، وصدمة الشعب الأمريكى الذى أذهلته هذه الكارثة المروعة المباغتة، ونالت نيلا عنيفا من كبريائه القومى .

★ وفى مصادفة بالغة الإحكام - إن صح التعبير - كانت شبكة .C.N.N الأمريكية هى الوحيدة القادرة على نقل ونشر ما يحدث إلى جميع أنحاء العالم لحظة حدوثه، ولم تستطع أى قناة إعلامية " أخرى " اقتحام السياج، بل الحائط الأمنى الذى أقامته الإدارة الأمريكية حول " الحدث " العظيم، بل " الهول " الأكبر الذى أصاب أمريكا فى ذلك اليوم حتى تتمكن من تثبيت وترسيخ الانطباع الأول الذى أراد "الإعلام الأمريكى" بثه فى عقول جميع البشر فى كافة أرجاء الكوكب الأرضى .

★ ولما كان " أسامة بن لادن - فى الرؤية الأمريكية - هو زعيم الإرهاب الإسلامى العالمى، وهو رأس التنظيمات الأصولية الإسلامية المراد إبادتها فقد بدأ الإعلام الأمريكى والغربى بصفة عامة حملة عالمية شرسة فى كل الوسائل والوسائط ضد " الخطر الإسلامى " القادم لا محالة لتدمير منجزات الحضارة الغربية، وإعاقة التقدم الإنسانى، وإعادة البشرية إلى عصور التخلف .. إلى آخر تلك الخزعبلات والأساطير التى ظل الإعلام الغربى - تسوقه الصهيونية العالمية - يتعاطها طوال ما يزيد على ربع قرن من الزمان منذ ظهور ما عرف باسم " الصحوة الإسلامية " (٧٩) .

★ لقد سبق تفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك فى مارس عام ١٩٩٣ ، قبل ما يزيد عن ثمان سنوات كاملة من أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ م، ثم تم تفجير المبنى الفيدرالى فى أوكلاهوما ١٩٩٥ ، وأسرعت وسائل الإعلام الأمريكية، فى كل مرة بإدانة جماعات الإسلام الأصولى الإرهابية ، بل وتم القبض على بعض المنتمين إلى تلك الجماعات وحوكموا وأدينوا، ومنهم الدكتور/ عمر عبد الرحمن - زعيم جماعة الجهاد المصرية التى أدينت باغتيال الرئيس / محمد أنور السادات، ولا يزال الرجل يقضى عقوبة السجن مدى الحياة فى الولايات المتحدة الأمريكية رغم أن التحقيقات القانونية قد أثبتت بعد ذلك أن المنفذين لتلك التفجيرات ينتمون لجماعات يمينية مسيحية متطرفة تنتشر كالوباء فى المجتمع الأمريكى المعاصر [٨٠] . فقد ثبت أن المدعو " تيموثى ماكفى " قد قام بتفجير المبنى الفيدرالى فى أوكلاهوما انتقاما لمقتل ديفيد قورش واتباعه الذى كانوا يعتقدون أنه هو المسيح نفسه !!!

إن العقل النزيه وحده كان يفرض توجيه الاتهام بتنفيذ انفجارات الحادى عشر من سبتمر ٢٠٠١ إلى تلك الجماعات المتطرفة، على سبيل الاحتمال فى أقل تقدير، وذلك لأن هذه الجماعات قد قامت بتفجيرات مماثلة من قبل، وإن كانت أقل شدة، ولأن تفجيرات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ تتطلب معرفة وثيقة وخبرة طويلة بأسلوب الحياة فى مدينتين كبيرتين مثل نيويورك وواشنطون خاصة فيما يتعلق بنظم الطيران "الداخلى" ، وقيادة الطائرات على مقربة من المبانى الشاهقة المتزاحمة دون خطأ فى الوصول إلى الهدف المنشود، كما تتطلب " اختراقاً " نافذاً إلى عمق الأمن " الداخلى "، فى المطارات الأمريكية، فضلا عن حتمية الاستحواذ على أجهزة عالية التقنية من أجل خداع وتضليل، أو بالأحرى " إسكات " وسائل الدفاع والإنذار المبكر التى لا شك فى أنها تحيط بتلك الأبنية بالغة الحساسية، فهل يوجد ما هو أهم - من الناحية الأمنية - وأشد حساسية من مبنى وزارة الدفاع فى دولة مثل الولايات المتحدة الأمريكية ؟!!! هل

يمكن توافر كل ما سبق من متطلبات وشروط لإنجاح العملية إلا لأمريكيين متدربين وذوى خبرة عالية يعرفون " داخل بلادهم "، أو كما يقال " إن أهل مكة أدرى بشعابها ! ! .

لكن توجيه نظر العقل إلى هذه الحقائق بالغة الوضوح سوف يفسد ولا شك الخطة الأمريكية المعدة سلفاً ، والجاهزة للاستفادة من " الكارثة " واستثمارها فى تعبئة وحشد الشعب الأمريكى وراء قيادته التى وجدت فيها " الفرصة السانحة " لاستكمال السيطرة الأمريكية على العالم بإخضاع " الدول المارقة، كما تُسَمِّىً السياسة الأمريكية بعض الدول التى تعارضها ولو بظاهر القول، لأن ذلك " المروق ، كان مسموحاً به فقط فى زمن الحرب الباردة بين المعسكر الرأسمالى (الحر) بقيادة أمريكا والمعسكر الشيوعى بقيادة الاتحاد السوفيتى ، حيث كان التوازن العسكرى بين المعسكرين ، وقوة الردع النووى بين القوتين العظميين يسمحان بهامش ضئيل من الاستقلالية الوهمية، أو ادعاء الحرية فى بعض بلدان العالم " الثالث "، ولكن حتى هذا الهامش الضئيل لم يعد مقبولاً فى عصر القطب الواحد الذى يفرض على الجميع أن يقفوا فى صف " التبعية والخضوع " ، حيث أصبح " الخروج عن الصف " هو العدو الرئيسى فى العالم من وجهة النظر الأمريكية كما يقول المفكر الأمريكى الشهير " نعوم تشو ميسكى " فى كتابه " ماذا يريد العم سام " (٨١).

ويبدو لنا الآن كأن مخططى السياسة الأمريكية كانوا على "موعد" مع منفذى انفجارات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ فما أن اصطدمت الطائرات بالمبانى التى تمثل رمز السيادة الأمريكية حتى طفقت وسائل الإعلام الأمريكية تمطر العالم كله بسيل منهمر يعلن عن خطر الإرهاب الإسلامى ويهيىء الرأى العام العالمى للحرب القادمة بين الغرب بقيادة أمريكا والعالم الإسلامى .... هذه الحرب التى اتخذت شعار " الحرب ضد الإرهاب " ، والتى أعلن قادة أمريكا أنها ستستمر سنوات طويلة،

وستطول كل البلاد التى تساند الإرهاب، أو تأوى منظمات إرهابية فى كافة أنحاء الكرة الأرضية . ولكن قد تجلى لكل ذى عينين أن الإرهاب المقصود هو الإرهاب الإسلامى فقط وأن الأهداف المطلوب ضربها فى هذه الحرب العالمية الثالثة - على حد تعبير رئيس المخابرات الحربية الإسرائيلية - تقع فى بلاد إسلامية فقط، فقد بدأت الحرب بغزو أفغانستان للقضاء على تنظيم القاعدة ونظام حكم طالبان وتقديم كل من "أسامة بن لادن " زعيم التنظيم و" الملا محمد عمر " رئيس النظام للمحاكمة باعتبارهما إرهابيين ومجرمى حرب مسئولين مسئولية مباشرة عن انفجارات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ، وحاولت أمريكا تثبيت الاتهام عليهما باصطناع أدلة زائفة لا تثير إلا للسخرية . ولكن ما أن نجحت أمريكا فى السيطرة على الموقف واحتلال الأرض بسواعد أبناء أفغانستان من قوات " التحالف " المعارضة لنظام طالبان .... ما أن نجحت أمريكا فى هذا ، وأقامت نظام حكم عميل يدين بالولاء الكامل لأمريكا بنسبة مائة بالمائة تحت رئاسة رجل افغانى يحمل الجنسية الأمريكية فهو من أصحاب الجنسية المزدوجة (؟!!) ... حتى نسيت " أسامة بن لادن " و " الملا عمر " ، وانتقلت أمريكا إلى العراق فأحيت من جديد قضية أسلحة الدمار الشامل، وحشدت قواتها فى الخليج استعداداً لضربة قاصمة للعراق، وإقامة نظام حكم عميل يدين بالولاء الكامل لأمريكا بنسبة مائة بالمائة ... وعندما تفرغ من العراق ستتجه إلى سوريا وتحاصر إيران وتترك إسرائيل تؤدب لبنان ثم تنتقل إلى غيرها .

" الفرصة السانحة " [٨٢] هو اسم الكتاب الذى ألفه الرئيس الأمريكى الأسبق " ريتشارد نيكسون " بعد تفكيك الاتحاد السوفيتى فى مطلع العقد الأخير من القرن العشرين، وقبل عشر سنوات كاملة من أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ م والعنوان الجانبى للكتاب يلخص مضمونه " التحديات التى تواجه أمريكا فى عالم ليس فيه إلا قوة عظمى واحدة " ،وبالطبع هذه التحديات لا تنشأ من محاولة الآخرين تهديد

أمن أمريكا، أو الهجوم عليها ومحاولة إخضاعها، وإنما تنشأ التحديات من محاولة أمريكا فرض سيطرتها على الآخرين.

وفى الفصل الخامس الذى خصصه رئيس أمريكا الأسبق للعالم الإسلامى يعترف صراحة بأنه " يتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة ودمويون وغير منطقيين وأن سبب اهتمامنا بهم هو أن بعض زعمائهم يسيطرون بالمصادفة على بعض الأماكن التى تحوى ثلثى البترول الموجود فى العالم ،"ويقرر أن "بعض المراقبين يحذرون من أن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة، وأنه مع التزايد السكانى والإمكانات المادية المتاحة سوف يشكل المسلمون مخاطر كبيرة، وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدوانى للعالم الإسلامى، ويؤيد هذا الرأى بأن الإسلام والغرب متضادان، وأن نظرة الإسلام للعالم تقسمه قسمين : " دار الإسلام" و" دار الحرب " حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية، وأن المسلمين يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب، وعلى الغرب أن يتحد مع الاتحاد السوفيتى ليواجه هذا الخطر الداهم بسياسة واحدة " (٨٣).

ولا شك أن " ريتشارد نيكسون " يقصد بعبارته الأخيرة الحملة الإعلامية العارمة التى فاضت على جميع وسائل الإعلام الغربية، خاصة الأمريكية منذ العقد الثامن من القرن العشرين، والتى كانت تقدم " الإسلام " باعتباره خطراً داهما بتعبير " ريتشارد نيكسون " على الغرب، وظلت تلك الحملة تتصاعد وتيرتها وتتزايد حدتها طوال العقدين التاليين ؛ التاسع والعاشر حتى نهاية القرن العشرين، حيث كانت عناوين الافتتاحيات فى كبريات الصحف الأوربية والأمريكية تتحدث عن " الخطر الإسلامى القادم لغزو أوربا وأمريكا "مثل"المسلمون قادمون – المسلمون قادمون" .... "حرب مقدسة تتجه نحونا " .... " انتبهوا : الرعب الإسلامى مجموعة انتحارية عالمية " ....

" أنا أومن بالخوف من الإسلام " ...... وتهيئ الرأى العام الغربى لصدام وشيك

ومحتوم بين الغرب والإسلام إلى الحد الذى دفع الدكتور " إدوارد سعيد " ، ومنذ وقت مبكر (عام ١٩٨١) إلى القول : " بالنسبة للعامة فى أمريكا وأوروبا اليوم ، الإسلام نوع من الأخبار غير السارة ذلك أن وسائل الإعلام والحكومة والاستراتيجيين الجيوبوليتيكيين والخبراء الأكاديميين فى الإسلام .... على الرغم من أنهم هامشيون فى الثقافة ككل - جميعا يعزفون لحنا واحداً ؛ الإسلام خطر على الحضارة الغربية ولا يعنى هذا فى حد ذاته القول بأن الرسوم الكاريكاتورية العنصرية التى تحط من قدر الإسلام هى فقط الموجودة فى الغرب .... وما أقوله هو أن الصور السلبية للإسلام سائدة بكثرة شديدة تفوق أية صور أخرى وأن مثل هذه الصور لا تتعلق بحقيقة "كينونة " الإسلام ولكنها تتعلق بما تظن قطاعات بارزة فى مجتمع بعينه إنه الإسلام . الإسلام والغرب : هل هو صدام بين الحضارات . هذه القطاعات لديها القوة والإرادة لكى تروج تلك الصورة السلبية الخاصة للإسلام ومن ثم تصير هذه الصورة أكثر انتشارا وأكثر حضوراً من أية صورة أخرى»(٨٤) .

وعندما يكتب " إدوارد سعيد " هذا الكلام عام ١٩٨١ م فمعنى هذا بكل وضوح أن تهيئة الرأى العام الغربى ضد الإسلام كانت عملية مستمرة قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ بأكثر من عشرين عاما ، أو بالأحرى منذ برزت إلى السطح ظاهرة " الصحوة الإسلامية " فى الثلث الأخير من القرن العشرين . وأعتقد أن هزيمة العرب المروعة أمام إسرائيل عام ١٩٦٧ فيما عرف باسم حرب الأيام الستة ، والتى أطلقت عليها أجهزة الإعلام المصرية / العربية اسم " النكسة" ، تحايلا على الأمر الواقع المذل المهين حيث استطاع جيش " الدويلة المزعومة " - كما كانت تسمى أجهزة الإعلام العربية إسرائيل - أن يهزم جيوش ثلاث دول عربية مجتمعة على رأسها مصر تحت قيادة " جمال عبد الناصر " زعيم القومية العربية الأوحد " الملهم " ... أعتقد أن هذه الهزيمة المروعة كانت اللحظة التاريخية لميلاد " الصحوة الإسلامية المعاصرة(٨٥) حين

تجلى عجز الأنظمة العربية- التى قادت بلادها على طريق " التغريب " بشقية أو لونية الرأسمالى والشيوعى (الاشتراكى) - عن أن تحمى الأرض من غزو " العدو "، أو أن توفر الأمن للشعوب التى أسلمت قيادها لحكام طغاة مستبدين، فضلا عن عجزها عن تحقيق النهضة المنشودة ، ودَفْع البلاد إلى طريق التقدم الذى زعموا أنهم قادرون على بلوغه، واستحوذوا على كل السلطات من أجل ذلك .... لقد تجلى للأمة العربية الإسلامية فى حريق الهزيمة المروعة فشل " التغريب " كطريق لإنهاض الأمة من عثرتها التاريخية . كما تجلى لها أن "الغرب " هو العدو الحقيقى الذى تتعاون جميع أنظمته رغم ما بينها من اختلافات وتناقضات ضد الأمة العربية الإسلامية، فقد بدا تواطؤ الاتحاد السوفيتى " الشيوعى " مع إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية زعيمة العالم الرأسمالى رغم احتداد الحرب الباردة بينهما حينذاك حيث بدأت معركة يونيو ١٩٦٧ بتسريب معلومات كاذبة عن تحركات إسرائيلية على الجبهة السورية، وكان مصدر هذا الخداع هو قيادات الاتحاد السوفيتى الرسمية حيث أفضت بهذا الكذب فى أذن القيادات المصرية، وفى نفس الوقت بدأت حملة إعلامية منظمة لإثارة " عنجهية " جمال عبد الناصر والدق على "وتر " زعامة الأمة العربية فاندفع الزعيم " الملهم " إلى إعلان الحرب بمنع السفن الإسرائيلية من المرور فى خليج العقبة وهو المكسب الذى أحرزته إسرائيل بانتصارها على مصر عام ١٩٥٦ م، وبطلب ترحيل قوات حفظ السلام الدولية، وتحريك القوات المصرية للانتشار فى شبه جزيرة سيناء، وبدأت الحرب التى كانت إسرائيل قد أعدت لها عدتها للاستيلاء على " القدس " مدينة المسجد الأقصى تمهيدا لهدمه، وإقامة الهيكل الثالث مكانه .

كما بدا للأمة الإسلامية ذلك "التواطؤ " حينما اتفقت القوتين العظمين رغم الحرب الباردة بينهما على استبقاء حالة " الاسترخاء " العسكرى فى المنطقة، أو ما سمى وقتها بحالة " اللا سلم واللا حرب " وهو المصطلح المخادع الذى تفتقت عنه

عبقرية أجهزة الإعلام الغربية للتعبير عن رضى " الجميع " باحتلال الأرض العربية، وتشريد الفلسطينيين، واستيلاء اليهود على المسجد الأقصى تمهيدا لهدمه . هذا ما أدركته شعوب الأمة العربية / الإسلامية بوجدانها الذى أضاءته نيران الهزيمة المروعة وقد شرعت تحرق الأوهام .

لقد أدركت الأمة أن الإسلام هو "هويتها " ، وهو الحل لأزمتها الحضارية، أو الإجابة الصحيحة عن سؤال النهضة، ومن ثم فقد بزغ فجر الصحوة " الإسلامية"، وأخذ نورها يتدفق وينتشر فى أرجاء العالم الإسلامى، من إندونيسيا فى أقصى الشرق إلى المملكة المغربية فى المغرب الأقصى، وبوغت المراقبون الغربيون وأتباعهم من النخب السياسية والثقافية فى العالم الإسلامى بذلك " البعث " الروحى يندفع فى قلوب المسلمين، خاصة بين الشباب إذ قد تعالت صيحات العودة إلى الله فى كل مكان، وضرورة إجراء مصالحة معه (سبحانه وتعالى) لتحقيق النصر على الأعداء، والفوز فى الدنيا والآخرة، وأصبحت مقولة لن ينصلح حال هذه الأمة إلا بما صَلُحَ عليه أمر أولها أى بالرجوع إلى أحكام ومعايير الإسلام قضية منطقية مقبولة لدى جماهير الأمة فى شتى أنحاء العالم الإسلامى، وأخذت المساجد تمتلئ بالمصلين، وأطلق الرجال لحاهم ، وارتدت النساء الملابس المحتشمة الفضفاضة وغطت رؤوسهن بالخمار، بل وبدأ النقاب (غطاء الوجه) ينتشر، وبدأ الغرب واتباعه فى العالم الإسلامى يشعرون بالقلق العميق من هذا " الصعود الإسلامى " ، الذى يهدد استقرار نظم الحكم التابعة سياسياً و " أيديولوجيا " للغرب، والتى تتخذ من أحد النموذجين الرأسمالى (الليبرالى) ، أو الاشتراكى (الشيوعى) مثلا أعلى تَهْتَدِى وتَقْتَدِى به . وجاءت حرب العاشر من رمضان السادس من أكتوبر ١٩٧٣ م لتزيد " الصحوة الإسلامية " قوة على قوتها إذ دخلت القوات العربية المعركة تحت شعارات إسلامية، واصطبغ القتال العربى بصبغة دينية فى أجواء شهر رمضان الذى أعاد إلى المسلمين ذكرى " الجهاد فى سبيل الله " ، والقتال دفاعاً عن

الإسلام، وكان الأداء العسكرى الجيد من جانب القوات العربية، خاصة القوات المصرية واقتحام خط بارليف، وتحطيم أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر، وكسر نظرية الأمن القومى الإسرائيلى، وتعريض الدولة اليهودية لأول مرة فى تاريخها إلى خطر حقيقى يهدد كيانها ذاته ... لقد مَثَّلَ كل ذلك بالمقارنة بعار الهزيمة المروعة فى يونية١٩٦٧ م حين سادت شعارات القومية العربية والاشتراكية دون أدنى شك دعماً كبيراً لصالح الصحوة الإسلامية.

ولذلك اشتد عود تيار "الإحياء الإسلامى" بجميع طوائفه، أو ألوان طيفه وتنوع جماعاته فى كافة أنحاء العالم الإسلامى، وأصبح صوته مسموعاً فى الحياة السياسية، ومن ثم احتدم الاشتباك بين النظم الحاكمة فى العالم الإسلامى المتمتعة برعاية وعناية الغرب من ناحية وجماعات الإحياء الإسلامى على الناحية الأخرى، وشهدت نهاية العقد الثامن من القرن العشرين الميلادى مصادمات عنيفة بين تيارات الإحياء الإسلامى الصاعدة التى أطلق عليها حينذاك فى دوائر الغرب والمستغربين اسم الإسلام السياسى ثم الإسلام الأصولى(٨٦) و النظم الحاكمة السابحة فى فلك الغرب، وقد توجت تلك المصادمات بالثورة الإيرانية بقيادة "آية الله الخمينى" (١٩٧٨ م -١٩٧٩ م)التى تعد بحق ذروة المواجهة بين الغرب، وتيار الإحياء الإسلامى.

ولا شك فى أن نجاح هذه الثورة فى تقويض نظام حكم الشاه الذى يعد واحداً من أعتى نظم الحكم استبداداً وإيغالاً فى التبعية والتغريب كان زلزالاً استراتيجياً دفع بتيار الإحياء الإسلامى الذى يسميه الغرب والمستغربون "الإسلام الأصولى" ليكون المشكلة الأمنية العالمية الأولى من وجهة النظر الغربية خاصة مع تبنى الخُمينى وقادة إيران الجدد لسياسة "تصدير الثورة"، فتحالفت الدول الغربية الرأسمالية؛ أمريكا ودول أوربا الغربية من أجل وأد هذه الثورة الإسلامية فى مهدها، واستعانت فى هذا بالنظام العراقى الذى يتبنى أيديولوجية اشتراكية أو بالأحرى شيوعية تتسربل بزى القومية العربية

ويحظى برعاية الاتحاد السوفيتى (؟!!!) ، وكانت الحرب العراقية / الإيرانية التى استمرت زهاء ثمانية أعوام كاملة باحتشاد الدول الغربية مجتمعة مع حلفائها من الدول العربية وراء صدام حسين من أجل إجهاض الثورة الإسلامية الإيرانية ، وتقويض بناء أول " جمهورية إسلامية " فى القرن الميلادى العشرين ... كانت تلك الحرب مواجهة عسكرية عنيفة بين الغرب المحتجب وراء النظام العراقى وبين الإسلام الذى تمثله إيران الثورة ، فالغرب المعتدى الراغب فى إبقاء العالم الإسلامى فى التبعية يضرب الإسلام المتحفز إلى التحرر من أغلال وقيود التبعية ، والمتطلع إلى المشاركة الإيجابية فى صنع التاريخ ، وتقرير مصير البشر ، وبناء الحضارة الإنسانية .... يضرب بيد أبناء الإسلام الدائرين فى فلك التبعية .

ورغم أن الحرب العراقية / الإيرانية قد انتهت فى عام ١٩٨٨ من الناحية العسكرية بالتعادل ، فلا نصر ولا هزيمة لأى طرف ، ورغم أن الإعلان الفج والأسلوب الأهوج لسياسة "تصدير الثورة" الإيرانية قد فشل فشلاً ملحوظا إلا أن النتيجة" النهائية لتلك المواجهة التاريخية بين الغرب (المتخفى وراء عراق صدام حسين وحلفائه) على ناحية وتيار الإحياء الإسلامى الصاعد (المتمثل فى إيران الثورة) على الناحية الأخرى قد انتهى دون أدنى شك لصالح هذا التيار الراغب فى استعادة مجد الإسلام ، وإخراج العالم الإسلامى من وهدة التبعية للغرب التى لا تعنى فى الحقيقة سوى البقاء فى التخلف ، وإزاحة " الأمة الإسلامية" عن مكانتها الجديرة بها ، وهى قيادة البشرية فى طريق معرفة الله وتحقيق تكليف استخلاف الله للإنسان فى الأرض... تلك المكانة التى أشار إليها القرآن بمقام الأمة الوسط .

لقد صارت جمهورية إيران الإسلامية - بعدما ترسخ بناؤها وثبتت أركانها من خلال المواجهة مع الغرب - نموذجا يُحْتَذَى من جانب حركات تيار الإحياء الإسلامى وجماعاته المتنوعة التى ازدادت قوتها وبرز حضورها فى المشهد السياسى فى شتى

أنحاء العالم الإسلامى، ولذلك فقد شهدت تلك السنوات مواجهات بالغة العنف بين هذا التيار، أو جماعات الإسلام السياسى أو الأصولى طبقاً للتعبير الغربى من ناحية، وبين نظم الحكم التابعة أو الغرب نفسه على الناحية الأخرى مثل اغتيال الرئيس المصرى أنور السادات على يد جماعة " الجهاد الإسلامى " فى مصر، وانتشار أعمال العنف وخطف الطائرات واحتجاز الرهائن، واشتعال الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٨٧م .وفى هذه الفترة تحديداً ازداد اشتعال الحرب الإعلامية ضد الإسلام الذى بدا من وجهة النظرة الغربية فى أتون هذه الحملة هو الخطر الداهم الذى يوشك أن يُطْبِقَ على الغرب، فيدمر الحضارة الغربية تدميرا، وقد اشتركت أغلب نظم الحكم فى البلاد الإسلامية الموالية للغرب بحكم التاريخ الاستعمارى فى هذه الرؤية، بل لعلها " بالغت "كثيرا فى تصوير حجم الخطر الذى يتهددها، ويهدد الاستقرار .... ذلك الخطر الناجم من تصاعد قوة " تيار الإحياء الإسلامى " .... أو ما أطلق عليه تعميما وتعمية " الإرهاب الإسلامى " من أجل أن تكسب المزيد من تدعيم الغرب لها فى مواجهة هذا الخطر المشترك الذى يجمعها مع القوى الغربية فكما يقرر (ريتشارد نيكسون) فى صراحة تامة أن من يسميهم بالتقدميين والمتنورين من الحكام المسلمين يشاركون أمريكا والغرب فى نفس الأهداف والمصالح (٨٧).

ومن حقنا هنا، بل من واجبنا العلمى الباحث عن الحقيقة أن نسأل عن ماهية وطبيعة هذه الأهداف والمصالح المشتركة التى تجمع أمريكا والغرب مع من يسميهم "ريتشارد نيكسون" التقدميين والمتنورين فى العالم الإسلامى ؟!! .

يقول " جون .ل. إسبوزتيو : " وإذ أدركت حكومات كثيرة فى العالم المسلم ميل الغرب إلى رؤية الإسلام باعتباره خطرا ، استغلت خطر الراديكالية أو الإرهاب الإسلامى (وقد ساوت بين الأصولية الإسلامية والنزعة الإسلامية والإسلام السياسى) ليكون عذرا لها فى السيطرة على الحركات الإسلامية، أو قمعها، وضخمت هذه الحكومات المخاوف من راديكالية إسلامية متحجرة فى الداخل، وفى الغرب على

السواء، تماما مثلما كان الكثيرون فى الماضى يستغلون مقاومة الشيوعية عذرا لتبرير الحكم الاستبدادى، ولكسب تأييد القوى الغربية، ويتم تبرير حظر التنظيمات الإسلامية وسجن الناشطين، وانتهاك حقوق الإنسان بنفس العذر . إننا نواجه شبابا متعصبين يهددون مستقبلنا". (٨٨) "وقد استغل الدبلوماسيون العرب التابعين لبلاد تربطها علاقات قوية مع الغرب الأنماط الغربية الشائعة عن حركة إسلامية أصولية متحدة على نطاق العالم لكى يعلنوا " الأصولية عالمية فى مداها ولها فروع فى كل مكان ... والمد الأصولى سرعان ما يهدد الدول الصناعية عندما يتزعزع الاستقرار فى معظم البلاد العربية " (٨٩).

وهى نفس الرؤية الإسرائيلية التى يعبر عنها اسحق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق بقوله " إن العالم العربى والعالم عموما سوف يدفع الثمن إذا لم يتم وقف سرطان الإسلام الأصولى المتشدد فى أكاديمية الخومينى وأتباعه فى إيران " (٩٠).

ويقول أحد القادة الإسرائيليين " إن نضالنا ضد الرعب الإسلامى القاتل يعنى أيضاً أن نوقظ العالم الذى يرقد نائماً ... إننا ندعو كل الأمم والشعوب لكى تكرس انتباهها للخطر الكبير الكامن فى الأصولية الإسلامية ... هذا خطر حقيقى وجاد يهدد السلام العالمى .. إننا نقف على خط النار ضد خطر الإسلام الأصولى "(٩١).

فلم يكن غريبا - إذاً - فى ضوء ما تقدم أن يُعَدَ الإسلام فى الرؤية الغربية هو العدو الأساسى الذى ينبغى مجابهته بعد زوال الخطر الشيوعى بتفكك منظومة الدول الشيوعية، وانهيار الاتحاد السوفيتى فى مطلع العقد الأخير من القرن العشرين . وقد عبر كل صانعى القرار الغربيين من حكام وساسة ومخططين ومفكرين استراتيجيين عن هذه الرؤية، أو هذا الاعتقاد، وتناولت كافة وسائل الإعلام أقوالهم وكتاباتهم بما لا يدع مجالاً للشك فى أن هذا هو التيار الغالب والحاكم على السياسة الأمريكية والغربية بصفة عامة .

لقد تم إنشاء حلف شمال الأطلنطى (الناتو) كمنظمة عسكرية للدفاع عن الدول الرأسمالية الغربية ضد التوسع الشيوعى الذى يقوده الاتحاد السوفيتى، والدول الشيوعية فى شرق أوربا التى انتظمها معا حلف " وارسو "، فلما انهار الاتحاد السوفيتى فى مطلع العقد الأخير من القرن العشرين، وتفككت منظومة الدول الشيوعية زال بالتالى حلف " وارسو"، فكان من المتوقع حل وتفكيك حلف الناتو لزوال العدو الذى كان سبباً فى إنشائه، ولكننا رأينا على العكس من هذا التوقع المنطقى أنَّ حلف الناتو يتم الإبقاء عليه بل وتقويته والتوسع فيه بضم دول أوربا الشرقية (الشيوعية سابقاً) التى كانت تنتظم مع الاتحاد السوفيتى فى حلف وارسو، وتحددت لحلف الناتو " الجديد " أهدافاً جديدة، واستراتيجية جديدة تضع محاربة الإرهاب العالمى على رأس التكليفات المنوط بالحلف القيام بها. فمن أين يأتى الخطر الذى يهدد دول الحلف فى صورته الجديدة؟ أو بكلمات أخرى لمن يُعِّدُ الحلف قوته وأين سيوجه أسلحته ؟! والإجابة الى تعطيها الوقائع وكلمات قادة الغرب دون أدنى شك وبلا جدال هى «العالم الإسلامى».

يقول الرئيس الفرنسى جاك شيراك ؛ القلب النابض للوحدة الأوروبية، والمدافع الأول عن توسيع حلف الناتو : " لابد من إيجاد دفاع أوروبى حقيقى لأنه لا توجد حضارة تستطيع أن تعيش طويلا إذا لم تكن لديها وسائل الدفاع عن نفسها، وإنه من المنطق أن يتسع الحلف باتجاه الشرق، لكن هذا الاتساع لن يكون من نتائجه أبدا تخويف روسيا، أو إهانتها "(٩٢).

إذن الحلف لن يتجه ضد روسيا ومن ثم فهو متجه أساساً ضد العالم الإسلامى، خاصة والرئيس الفرنسى يتحدث هنا باسم الحضارة الغربية فهو يتكلم بلسان صدام الحضارات وقوله : «لا توجد حضارة تستطيع أن تعيش طويلاً إذا لم تكن لديها وسائل الدفاع عن نفسها " تعبير عن الخوف من الخطر الإسلامى كما أنه يحمل إحساسا عميقا

بشيخوخة الحضارة الغربية التى أصبحت كالإنسان العجوز الذى يشعر بدنو الأجل ولكنه يريد أن يعيش طويلا !!!.

ولقد وضع النقط فوق الحروف السيد / جياتى ديميلكس، الذى كان رئيساً لمجلس الوزراء الأوروبى، عندما سأله مراسل مجلة النيوزويك الأمريكية عن السبب فى بقاء حلف الأطلنطى بعد نهاية المعسكر الشيوعى فقال " صحيح أن المواجهة مع المعسكر الشيوعى لم تعد قائمة ولكن ثمة مواجهة أخرى لا بد أن نستعد لها وهى مواجهة العالم العربى والعالم الإسلامى وعلى أوروبا أن تحل مشكلاتها لتتفرغ لهذا العدو الخطير"

كما قرر مراد هو فمان؛ الدبلوماسى الألمانى الذى أعلن إسلامه " إن احتمالات المواجهة العسكرية لحلف شمال الأطلنطى مستقبلاً يتجه مؤشرها ضد الإسلام والمسلمين فلم يبق غير الإسلام والمسلمين عدواً لحلف شمال الأطلنطى " (٩٣).

«إن التاريخ تسوقه قوة أخرى كذلك هى الصحوة السياسية فى العالم الإسلامى .. فهى انتفاضة عالمية " (٩٤) واللافت للنظر هنا تشبيه الصحوة الإسلامية بالانتفاضة الفلسطينية ضد الدولة الصهيونية ولكن الصحوة الإسلامية انتفاضة على مستوى العالم كله (عالمية) ضد السيطرة الأمريكية / الغربية المراد فرضها على العالم كله !!.

وإذا كانت الانتفاضة والمقاومة المسلحة هى السبيل الوحيد أمام الفلسطينيين للحصول على حريتهم، ودولتهم المستقلة المعبرة عن هويتهم فإن التمرد على السيطرة الغربية / الأمريكية هو السبيل الوحيد أمام العالم الإسلامى للحصول على " حريته الحقيقية" !!.

(ب)

لا هوت الهيمنة الأمريكية

فى صبيحة انتصار أمريكا الكاسح فى حربها ضد العراق المسماة " عاصفة الصحراء ، والمزعوم أنها " حرب تحرير الكويت " أعلن جورج بوش (الأب) فى مطلع عام ١٩٩١ ولادة النظام العالمى الجديد الذى صارت أمريكا بمقتضاه القطب الوحيد الذى يأمر فيطاع أو كما قال : " نحن قادرون على فعل كل ما نريد على الخريطة الدولية ... بل ونحن أحرار فيما نتصوره دفاعاً عن مصالحنا الأساسية. (٩٥) وفى أحاديثه الأخيرة قبل مغادرته البيت الأبيض ، أعلن جورج بوش عن اعتقاده بأن القرن القادم (الحادى والعشرين) سيكون قرناً أمريكياً يعنى ستفرض أمريكا فيه سيطرتها على العالم كله ، وستصبغ الكوكب الأرضى كله بالصبغة الأمريكية ، وهو ما يعنى أنها ستفرض نمط الحياة الأمريكية على جميع الأمم والشعوب على حساب الثقافات الأخرى ، وهذا هو معنى أو خلاصة مفهوم " العولمة "

وعلى خطى " جورج بوش " الرئيس الأمريكى من الحزب الجمهورى ، سار " بيل كلينتون" الرئيس الأمريكى من الحزب الديموقراطى ، فأعلن فى بداية عهده عن اعتقاده وعزمه على جعل القرن القادم أمريكيا ، مما يدل على أن فرض السيطرة الأمريكية على العالم استراتيجية دائمة للولايات المتحدة الأمريكية ، ولذلك فقد صرح " وارين كريستوفر " وزير الخارجية عام ١٩٩٢ " إن أمريكا سوف تواصل قيادتها للعالم ، وهى مستعدة للعمل بطريقة حاسمة لحماية مصالحها فى أى مكان وفى أى لحظة ، وإذا احتجنا لإجابة جماعية (يعنى لإقامة تحالف دولى) فسوف نفعل ذلك مع الدول التى تؤيدنا ، ولكننا فى حالات الضرورة سوف نتصرف بمفردنا " (٩٦) .

وبعد " وارين كريستوفر " جاءت " مادلين أولبريت " فقالت " إن أمر قيادة العالم بلا منازع هو من نصيب الولايات المتحدة، وعلى جميع الدول أن تدرك أننا لو أردنا إحداث أى تغيير فلابد سنفعله فالعالم لنا ... العالم للأمريكان"(٩٧).

ولا شك فى أن كلمات " مادلين أولبريت " تحمل شعورا عاليا بسمو الشعب أو بالأحرى " العنصر " الأمريكى، وحتمية سيادته على سائر الأمم والشعوب الأخرى . هذه العنصرية التى تتجلى فى قولها " إن ضحايا الشعب العراقى من البشر تعد ثمنا معقولا لاستمرار العقوبات " .

إن أمريكا تتصرف باعتبار أنها السيد الأوحد فى العالم الذى يجب أن يأمر فيطاع بلا معارضة أو مجادلة، بل أنها تلعب دور " البلطجى " أو " الفتوة " الذى يقوم بحماية الآخرين مقابل أن يدفعوا له أجر الحماية أو كما قالت صحيفة " شيكاغوتربيون " متحدثة بلسان السياسة الأمريكية " يجب أن تدفع القوى الغنية أجر حمايتنا لها ، فنحن نحتكر القوة فى سوق الأمن العالمى ونسيطر على اقتصاد العالم"(٩٨).

وبغض النظر عن المبالغة الشديدة فى تقدير القوة الأمريكية، وعن الغطرسة المقيتة التى تدفع إلى مثل هذا الحديث الذى ينضح بالكبرياء والغرور، فإن أسوأ ما فيه هو اعتبار أن أمريكا هى مصدر الشرعية، وأن بقاء الأنظمة الحاكمة مرهون بإسباغ الحماية الأمريكية عليها وهو الأمر الذى أجاد التعبير عنه ولخصه فى عنوان مقاله " لا هوت الهيمنة الأمريكية " (٩٩) الأستاذ / يوهان جالتونج حين صدر المقال بكلمة للرئيس الأمريكى تافت فى عام ١٩١٢ يقول فيها " يجب أن نحمى شعبنا وأملاكه فى المكسيك إلى أن تفهم حكومة المكسيك بأن هناك إلها فى إسرائيل، وأن الواجب يحتم طاعته " . وإسرائيل المذكورة هنا هى الولايات المتحدة الأمريكية لأن أبناء الشعب الأمريكى يرون أن بلادهم هى " مملكة الله الجديدة على الأرض " ، كما كانت فلسطين أو أرض كنعان بالنسبة لبنى إسرائيل الخارجين من أرض مصر تحقيقا للوعد الإلهى لهم .

فالأمريكان يؤمنون أنهم هم الأمة المفضلة، أو شعب الله المختار الذى عليه أن يقود العالم، ويقرر الكاتب فى مقاله الذى نشر عام ، ١٩٨٧ " إن أمريكا تعتبر نفسها ممثلة الله على الأرض، وهى لذلك تقوم بتصنيف الأمم والشعوب إلى حلفاء أو أعداء، فأما الحلفاء فهم الذين يعتمدون نظام اقتصاد السوق الحر ويؤمنون بالإله اليهودى - المسيحى والديمقراطية على الطريقة الأمريكية، وأما الأعداء فهم الذين لا تتوافر فيهم هذه الصفات، ويعترف الكاتب فى وسط المقال " هكذا اتفقنا على تكوين جبهة ضد الإسلام " ، وينهى المقال القصير بالغ الدلالة والإحكام بقوله " فللولايات المتحدة اتحاد مع الله، وتتحالف الأمم الأخرى معها من موقع التبعية لها والخضوع كالعلاقة بين الأطراف والمركز، فالأمم الغربية مُلكُ الولايات المتحدة والولايات المتحدة فى حلف مع الله ... هذا هو اللاهوت المستتر للسياسة الخارجية الأمريكية"(٩٩).

وتأتى الأحداث متواترة لتقدم الأدلة المتتالية على صحة مقولة " لاهوت الهيمنة الأمريكية " ، فالكونجرس الأمريكى لم يعد يشرع للمجتمع الأمريكى، ويراقب الحكومة الأمريكية، بل صار يشرع للعالم كله، ويراقب أعمال الحكومات الأخرى، وعلى سبيل المثال لا الحصر أصدر الكونجرس الأمريكى قانون " داماتو - كنيدى" لمعاقبة الشركات التى تتعامل مع إيران وليبيا باعتبار أن أمريكا ترى أن هذين البلدين من الدول الراعية للإرهاب، ومعنى صدور هذا القانون هو توسيع نطاق السلطة التشريعية للكونجرس الأمريكى لتفرض سلطانها على " غير الأمريكيين " من أصحاب الشركات التى تنتمى لجنسيات أخرى !!!

ولقد تدخلت أمريكا فى الشئون الداخلية السودانية منذ وقت مبكر جداً، وعندما أعلن جعفر النميرى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى السودان، وهى دولة ذات سيادة، أعلن جورج بوش (الأب) وقت أن كان نائباً للرئيس أن " أمريكا لن تسمح بتطبيق أحكام الشريعة على المسيحيين فى السودان " !!! وفى الوقت الحاضر تتدخل

أمريكا لفرض اتفاقية سلام بين الحكومة السودانية والحركة الشعبية لتحرير السودان فيما يعرف باتفاق " ماشا كوس " ، وقد فسر الدبلوماسى الأمريكى المختص بشئون السودان هذا التدخل بإرجاعه إلى اهتمام " شخصى " من جانب الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن ، وعلى رأس المطالب الأمريكية التى تطالب بها الحركة الشعبية لتحرير السودان إلغاء تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية تحت شعار فصل الدين عن الدولة أى العلمانية ، وإلا فالبديل هو فصل جنوب السودان عن شماله ، ومحاصرة " السودان " أى الجزء الشمالى حيث الحكومة المركزية الحالية تنفيذا لأحكام قانون " الحرية من الاضطهاد الدينى " ، وهو قانون آخر أصدره الكونجرس الأمريكى ليتدخل به فى شئون الدول ويمهد الطريق ويسهل مهمة " المبشرين " الأمريكيين الذين ينتشرون فى كافة أرجاء العالم لإدخال البشر فى ملكوت الله الذى يعنى ههنا " ملكوت الهيمنة الأمريكية " .

وبعد الحصار الاقتصادى ، يأتى الغزو العسكرى والاحتلال فى إطار " الحرب على الإرهاب » باعتبار أن السودان دولة راعية للإرهاب وكانت تستضيف على أرضها فى وقت ما " أسامة بن لادن " وتنظيم القاعدة وغيره من التنظيمات الإسلامية الإرهابية .

بل إن الكونجرس الأمريكى قد أصدر أخيراً قانون " سلام السودان " ، وهو القانون الذى يحق بمقتضاه للإدارة الأمريكية أن تراقب ، وتُقَوِّمَ عمل الحكومة السودانية " لتقرر هل هى جادة فعلا فى إجراء التفاوض مع الحركة الشعبية لتحرير السودان ، أم أنها غير جادة ، وفى الحالة الأخيرة تتعرض لعواقب وخيمة !!! .

ويعلم القاصى والدانى أن سر الاهتمام «الشخصى» للرئيس الأمريكى بشئون السودان إنما يرجع أساسا إلى تفجر ينابيع النفط فى جنوب السودان ، وتعجل الشركات الأمريكية لوضع يدها على هذا الكنز من الذهب الأسود قبل أن يصل إليه المنافسون ، ولا يمكنها أن تلقى بملايين الدولارات لاستثمارها فى بترول السودان لتحترق

فى أتون الفتنة السياسية / الدينية المشتعلة هناك، ومن ثم فلا بد أولا من توفير الأمن والسلام حتى يتحقق الاستثمار . وفى نفس الوقت من المحال أن تطمئن أمريكا وشركاتها على أموالها ومصالحها فى ظل نظام حكم ذى نزعة إسلامية يتحدث عن " الهوية " الإسلامية العربية، ويقوم بتطبيق أحكام الشريعة تعبيرا عن هذه " الهوية " لأن هذه الهوية لا بد أنها سوف تدفع به على الدوام لطلب التحرر من التبعية للغرب وإقامة تنمية مستقلة وبناء حضارة تخالف النموذج الغربى / الأمريكى فى الغايات والوسائل . ؟؟ إن الشركات الأمريكية تريد أن تبرم العقود وتوقع على اتفاق الصفقة الآن وفى ظل هذه الظروف الراهنة وتحت هذه الضغوط التى تفرضها الحرب الأهلية على النظام الحاكم لتضمن الحصول على بترول السودان بسعر رخيص يكاد أن يكون مجانا، وهذه ولا شك هى إحدى فوائد « التبعية» الرائعة من وجهة النظر الغربية / الأمريكية فلابد إذن من القضاء على هذه " الهوية " العربية الإسلامية المزعجة حتى تستمر وتستقر التبعية هادئة مطمئنة فى أمن وسلام !!!.

ويتساءل الكثيرون عن معنى " تحرير السودان " الوارد فى شعار الحركة الشعبية .... ما معنى التحرير هنا إذا كانت السودان دولة مستقلة ذات سيادة ؟! ويبدو أن الإجابة الصحيحة هى تحرير السودان من أغلال الهوية العربية الإسلامية بتحريره من أحكام الشريعة ليجرى حُراً فى فلك التبعية وهو ما يعنى أن يصير لقمة سائغة فى فم الشركات الأمريكية العملاقة .

وفى معرض تعليقه على قانون " هلمز - برتون" الذى وافق عليه الكونجرس الأمريكى فى ٣ / ١ / ١٩٩٦ م، ووقعه الرئيس كلينتون من الحزب الديموقراطى فى ١٢ / ٣ / ١٩٩٦م، والذى صدر لكى تغرى القيود الاقتصادية بإسقاط الرئيس كاسترو ويتم دعم نظرية إقامة حكومة منتخبة ديموقراطية فى كوبا يقول "روجيه جارودى : «وهكذا يظهر مرة أخرى دجل نظرية" التعددية الحزبية " فى الولايات المتحدة حيث يسود حكم " الحزب الواحد " ؛ حزب المال ويستولى على قادة هذا الحزب الواحد سواء من الديموقراطيين أو من الجمهوريين هم عظيم هو فرض هيمنتهم على العالم بأسره لكى يفتحوا لشركاتهم ومؤسساتهم أسواقاً بلا حدود"(١٠٠) .

فبعد أن وضعت أمريكا قدمها فى أفغانستان لتضع يدها على بترول " بحر قزوين، " ، أسرعت بالانتقال إلى العراق تحت شعار نزع أسلحة الدمار الشامل وتطبيق أحكام الشرعية الدولية (قرارات الأمم المتحدة) ، لتضع يدها على بترول العراق، وبذلك تُحكم قبضتها على بترول الخليج العربى "الفارسى" ، وتستكمل سيطرتها على بترول العالم كله وتتحكم بالتالى فى الاقتصاد العالمى كله .

وفى عصر " لاهوت الهيمنة الأمريكية " تصبح الأمم المتحدة ومنظماتها مجرد ألعوبة فى يد السياسة الأمريكية أى وسيلة لتحقيق سيطرة أمريكا على العالم ، ولكن هذه الغطرسة الأمريكية " تغيظ " بوقاحتها بعض المنافسين لها على السيطرة مثل أوربا المتحدة بقيادة فرنسا، والعملاق الصينى المتحفز للانطلاق، وروسيا أو ما بقى من إمبراطورية الشر السابقة الراغبة فى العودة إلى المشهد السياسى العالمى، ولذلك يحرص هؤلاء المنافسون على ضرورة أن ترجع أمريكا إلى الشرعية الدولية أى الأمم المتحدة متمثلة فى مجلس الأمن قبل أن تنفذ أمريكا قرارها بغزو العراق الذى تخفف وطأته على السامعين بتسميته خداعاً " ضرب العراق " ، وقبلت أمريكا الرجوع إلى الأمم المتحدة حتى تستكمل استعدادها للغزو فى أنسب الظروف، والجميع يعلم أن رغبة المنافسين ليست إلا إثباتا للذات، وطلبا للمشاركة فى غنائم ما بعد الغزو، وقد شرحت " كوندا ليزا رايس " مستشار الأمن القومى للرئيس الأمريكى الموقف بقولها الذى تناقلته جميع وسائل الإعلام " إن الرئيس الأمريكى لم يذهب إلى الأمم المتحدة طالبا الموافقة على قرار من الشرعية الدولية (منظمة الأمم المتحدة) . لقد ذهب لتخيير المجتمع الدولى بين خيارين اثنين : إما إعطاء أمريكا تفويضا على بياض بغزو العراق عسكريا، أو أن تقوم الولايات المتحدة بذلك بمفردها حيث إنها قادرة على ذلك عسكريا فى جميع الأحوال، وعودة مفتشى الأسلحة من الأمم المتحدة ليست هدفا فى حد ذاتها . ثم إن هناك عناصر إصلاحية فى العالم الإسلامى نريد دعمها مثل قطر والبحرين والأردن. . .

ثم إن العراق هنا ليس كل القصة حيث أن النضال من أجل القيم الليبرالية الأمريكية يجب ألا يتوقف عند حدود العراق فقط "

إن هذا الكلام الذى سجلته كل وسائل الإعلام لم يصدر عن عابر سبيل، بل من فم السيدة التى تقوم بعمل مستشار الأمن القومى لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية . وإنها تتحدث عن الغزو والنضال من أجل نشر القيم الليبرالية الأمريكية وفى نطاق الغزو والنضال لا يمكننا الحديث إلا عن فرض القيم الليبرالية الأمريكية .

ولنلاحظ أن مجال الغزو والنضال الأمريكى يتسع ليشمل العالم الإسلامى كما اعترفت المرأة وأنه لن يقف أبدا عند حدود العراق فقط ولنلاحظ أخيرا أنها قدمت لنا النماذج التى يجب احتذاؤها فى العالم الإسلامى لننال الرضى الأمريكانى !!! .

(ج)

جذور الهياج الغربى

يتضح من كلام مستشار الأمن القومى الأمريكى أن العالم الإسلامى هو الميدان الأول للصراع العنيف أو الصدام الناتج من سعى أمريكا إلى فرض سيطرتها على العالم، وهى الحقيقة التى سبق أن تنبأ بها الكاتب الهندى المسلم م.ج. أكبر فى مطلع الثمانينات حين قال " المواجهة القادمة للغرب ستأتى بلا شك من العالم المسلم . إذ أن النضال فى سبيل نظام عالمى جديد سوف يكتسح الأمم الإسلامية من المغرب حتى باكستان ويبدأ من هناك" ، (١٠١) هاهنا نسمع مرة أخرى لفظة " النضال " من أجل نظام عالمى جديد، ومعلوم من الآن أن أمريكا هى التى تقود الغرب فى هذا النظام العالمى الجديد الذى لا يعنى سوى أن أمريكا هى سيدة الكوكب الأرضى، والرجل يقرر منذ ذلك الوقت المبكر أن هذا النظام " **سوف يكتسح الأمم الإسلامية من المغرب حتى باكستان** " ونرجو أن نمعن النظر إلى كلمة" **يكتسح** " هذه ونحن نتطلع إلى المستقبل الذى يحث الخطى ليكون حاضرا . وبسبب هذا الاكتساح سوف يتولد الصدام الذى أراد الغرب أن يخفى حقيقته البشعة، ووجهه القبيح فألبسه ثوب الحضارة وقناع الثقافة.

تحدث البروفيسور " صمويل هنتنجتون " (١٠٢) عن صدام الحضارات فقال" تقوم نظريتى على أن التناقض الرئيسى فى النظام العالمى الجديد لن يكون ايديولوجياً، ولا اقتصادياً، بل إن الانقسام الكبير بين الناس (الجنس البشرى)، والعامل الحاسم فى النزاعات (أو القوة المهيمنة على التناقض) هى الثقافة(الحضارة)، ورغم أن الدولة القومية ستظل أقوى عنصر (أو اللاعب الأكبر) على مسرح الشئون العالمية، إلا أن التناقض الأساسى فى السياسة الدولية سيكون بين مختلف الحضارات، والصدام بين هذه الحضارات هو الذى سيسيطر على السياسة العالمية حيث تشكل حدود هذه الحضارات ساحات القتال المقبل (١٠٣).

ومن قبل " صمويل هنتنجتون " ، وعلى نفس الطريق ، وفى نفس الوقت تقريبا كان قد سار البروفيسور " برنارد لويس " ، أستاذ دراسات الشرق الأدنى فى جامعة برنستون الأمريكية ، والذى يعد أحد أبرز الخبراء فى دراسات الإسلام والشرق الأوسط فألقى محاضرة عام ١٩٩٠م، ثم نشرت صورة منقحة منها كمقالة رئيسية فى جريدة الأطلنطى الشهرية تحت عنوان " جذور الهياج المسلم " ، حيث حاول تأصيل تاريخ الصراع بين الإسلام والغرب كما فعل صاحبه " صمويل هنتنجتون" ليخلص إلى حتمية الصدام فى المستقبل .

" إن الصراع بين الإسلام والغرب استمر حتى الآن على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان . وقد تَكَوَّنَ من سلسلة طويلة من الهجمات والهجمات المضادة والحملات الصليبية ، الغزو والاسترداد ، واليوم فإن معظم العالم المسلم تسيطر عليه مرة أخرى حالة استياء عارمة وعنيفة ضد الغرب. وفجأة صارت أمريكا العدو الأكبر ، تجسيداً للشر والخصم الشيطانى لكل ما هو خير ولا سيما المسلمين والإسلام . لماذا ؟! [١٠٦] .

ولا شك فى أن تساؤله إنما يعبر عن " غيظ " الغرب من هذا " العناد " الإسلامى الذى لا يريد الاعتراف بتفوق الغرب رغم هزيمة المسلمين العسكرية ، وفقرهم ، وتخلفهم طبقًا للمقاييس الغربية ، ولكنهم رغم كل هذا لا يزالون يشعرون أنهم على حق ، وأن عقيدتهم صحيحة ، ويشعرون بالفخر والسيادة لاعتناقهم هذه الديانة المقدسة أو كما قال صمويل هنتنجتون عن الحضارة الإسلامية " أهلها مقتنعون بتفوق ثقافتهم " ، ولا شك فى أن هذا الاقتناع يمثل التحدى الأكبر سياسيا وثقافيا للغرب المتغطرس المعجب بنفسه . ولذلك فقد جسمت الصحوة الإسلامية ، أو صعود تيار الإحياء الإسلامى فى نهاية القرن العشرين الخيبة الكبرى لدوائر صناعة القرار فى الغرب ، فبعد ما يقرب من قرن كامل من التغريب تحت رعاية السلطة الاستعمارية ، ثم الحكومات الوطنية التى تبعتها فى محاولات مستمرة ، ومحمومة ، وجهود دؤوبة

لطمس معالم الثقافة، ومحو "الهوية" الإسلامية ظلت حية، بل واستمدت من إمكانات الحضارة الغربية ما قواها وساعدها على الانبعاث من جديد .

فى بداية القرن العشرين كانت دوائر صنع القرار فى الغرب، ورجال السلطة الاستعمارية، ومن الاهم من أبناء المستعمرات يعتقدون بعجز الإسلام عن الحياة فى العالم المعاصر الذى تشيده الثقافة الغربية الحديثة، ويعربون عن قرب زوال الإسلام وثقافته، فيتساءل مثلا اللورد كرومر المندوب السامى البريطانى فى مصر مستهزئا، شامتا، ولابساً قناع الإشفاق عن مدى قدرة الإسلام على التواؤم مع مقتضيات الواقع "المعاصر" . ويكتب أحدهم " إن ديانات آسيا الضخمة قد انكمشت وتحولت إلى مجرد عصا جافة حينما اتصلت بالحقائق الباردة للعلوم الغربية . (١٠٧)بينما يكتب آخر " إن احتكاك الإسلام بالحضارة سيقضى عليه ويؤذن بنهايته . (١٠٨)كانت هذه هى صورة "مستقبل" الإسلام كما يراها أو بالأحرى يتوهمها ويتمناها الغرب فى مطلع القرن المسيحى العشرين وتغريب المجتمعات الإسلامية برعاية السلطات الاستعمارية يجرى على قدم وساق .

ثم .... بينما كان القرن المسيحى العشرين يقترب من نهايته، صار كل المراقبين الغربيين من الحكام، ورجال المخابرات، والمفكرين الإستراتيجيين ومخططى السياسات والصحفيين، والمعلقين، والأكاديميين، ورجال الإعلام يتحدثون عن الإسلام باعتباره " الخطر الداهم" الذى يهدد الحضارة الغربية، و" الرعب القادم " ليبتلع الغرب فى جوفه المظلم .

وفى الفجوة الهائلة بين" الصورتين " تكاد تضيع جهود التغريب هباء منثورا، وذلك هو أعمق مصدر لخيبة الأمل الغربية، وأهم أسباب " الهياج الغربى " ضد الإسلام العنيد الذى لا يريد أن يموت، فلقد انبعثت أقوى جماعات تيار الإحياء الإسلامى فى الدول التى تعرضت لأشد حملات التغريب ؛ مصر ولبنان وتونس والجزائر وإيران

ويكفى أن نتذكر أن " الثورة الإسلامية الكبرى» - التى نجحت فى الوصول إلى السلطة، والتى تعد بحق احد أهم أحداث القرن العشرين، ولا ينكر أحد أنها زلزال استراتيجى قَلَبَ الخطط الغربية رأسا على عقب، وغيرت ولم تزل تغير فى الخريطة السياسية للشرق الأوسط والعالم - وقعت فى " إيران " التى تكالبت عليها فى التاريخ الحديث كل من روسيا، وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية التى أعادت الشاه إلى العرش فى واحدة من أكبر وأسوأ عمليات المخابرات المركزية الأمريكية القذرة ... وأن نتذكر أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ قد اكتسحت أول انتخابات حرة تجرى فى الجزائر ؛ البلد العربى الذى تعرض لأبشع عملية تغريب أدت إلى تغيير لسانه فأصبح الشعب الجزائرى ينطق بالفرنسية ، وأن نتذكر أن حزب الرفاة الإسلامى اكتسح الانتخابات فى تركيا ؛ رائدة التغريب والعلمانية فى العالم الإسلامى، وها هو حزب العدالة والتنمية الإسلامى، والابن البكر لحزب الرفاة يعيد إلى الحياة فى فجر القرن الحادى والعشرين أباه الذى اغتالته بيد العسكر الديموقراطية الغربية ذات المعايير المزدوجة !!!.

بل قد أصبح الإسلام يقدم البديل لأبناء الحضارة الغربية نفسها بعد فشل الأيديولوجيات، وظهور مفاسد الحضارة الغربية فى طورها الإلحادى المعاصر، وعجزها عن الاستجابة لأشواق الإنسان الروحية المنبعثة من أعماق كيانه، ويشهد كل المراقبين المحايدين بانتشار الإسلام بسرعة مذهلة فى أمريكا ودول أوروبا الغربية ؛ فرنسا وألمانيا وبريطانيا ، ...

ويكفى أن نذكر على سبيل المثال أن الإسلام أصبح الديانة الثانية فى فرنسا، وأن عدد المسلمين من الفرنسيين يناهز خمسة ملايين نسمة، وفرنسا ليست جزيرة معزولة عن بقية أوربا، بل هى إحدى حصون الثقافة الغربية، وما يجرى فيها يجرى أيضا فى سائر أوروبا، بل وفى كل أنحاء العالم . هل نحتاج إلى التذكير بأن انتشار الإسلام الذاتى فى أفريقيا يهدد جهود التبشير ؟! (١٠٩).

وتنتشر المنظمات الإسلامية فى أوروبا وأمريكا بحيث صار للإسلام صوت مسموع

فى وسائل الإعلام، والحياة السياسية الغربية، كما لا يخفى على أحد اجتذاب الإسلام للعديد من الشخصيات المرموقة فى الغرب ولعل موقف الأمير " تشارلز " ؛ ولى العهد فى المملكة البريطانية المتحدة هو المثل الواضح لذلك التغيير الكبير الذى يجرى فى أعماق المجتمعات الغربية التى تعانى الآن من أزمة حضارية عنيفة دعت قلة من " الحكماء" منهم مثل الأمير تشارلز إلى مراجعة النفس، وإعادة فحص وتمحيص القيم الغربية، والحوار مع الإسلام، تلك التغييرات العميقة تدعو أيضا فى نفس الوقت صناع القرار وأصحاب المصالح المسيطرين على الأغلبية إلى الاحتشاد لمحاربة هذا " الخطر الداهم " الذى يهدد أساس الحضارة الغربية، ولذلك يبدو أن صناع القرار فى الغرب قد عقدوا العزم على أن يشنوا حملتهم الأخيرة على الإسلام بغية محوه، أو على الأقل إسكات صوته بتغريب أهله ومحو هويتهم .

ومن هنا نفهم قول لويس برنارد " لا يخطئ زعماء الأصوليين عندما يرون أن الحضارة الغربية هى أكبر تحد يواجه أسلوب الحياة الذى يرغبون فى انتهاجه أو استعادته لشعوبهم . . . . ويجب أن يكون واضحًا من الآن أننا فى مواجهة حالة وحركة تتجاوز بكثير مستوى القضايا والسياسات والحكومات التى تتابعها . إن هذا ليس أقل من صدام بين الحضارات . . . . . ربما يكون غير عقلانى ولكنه بالتأكيد رد فعل طبيعى لمنافسة قديمة ضد تراثنا اليهودى- المسيحى وحاضرنا العلمانى والامتداد العالمى لكليهما"(١١٠).

هذه بالطبع لهجة من يعلن عن حرب محتومة لا سبيل لمنعها، أو إيقاف اندلاعها " يجب أن يكون واضحا من الآن " وهى حرب عميقة متعددة المستويات " تتجاوز بكثير مستوى القضايا والسياسات والحكومات التى تتابعها " أى الحكومات التى تتابع تلك القضايا والسياسات لأن هذه الحرب الجذرية تتعلق " بأسلوب الحياة "الذى يُراد تغييره ولما كان أسلوب الحياة هو الحضارة التى تعد التجسيم المشهود للثقافة فهدف هذه

الحرب إذن هو " فرض " أسلوب جديد للحياة مكان الأسلوب القديم المراد تغييره، أو بالأحرى إبادته ومحو آثاره، فهى إذن ليست " أقل من صدام بين الحضارات " هدفه النهائى استئصال شأفة الإسلام، ومحو هويته " المسلمين " بطمس معالم ثقافتهم الإسلامية، وهو صدام " غير عقلانى " لأنه فى جوهره صدام دينى بين الإسلام على جانب ضد اليهودية والمسيحية أو ما يسمية برنارد لويس " التراث اليهودى - المسيحى " على الجانب الآخر، وهو صدام محتوم من وجهة النظر الغربية التى يمثلها برنارد لويس " أى من جانب صناع القرار فى الغرب، لأنه تنافس أو صراع قديم مستمر " على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان " كما قال، وهذا المدى هو بالضبط عمر الإسلام على الأرض حتى الآن!!!

وفى كتابه " ثقافات فى صراع " يؤرخ للصراع الطويل الممتد بين الغرب المسيحى والشرق الإسلامى، ويعلن أن الانتصار الغربى المسيحى قد بدأ عام ١٤٩٢ وهو عام الاسترداد المسيحى لغرناطة ؛ آخر معقل لدولة المسلمين فى الأندلس (شبه جزيرة ايبريا) وأن ذلك الانتصار سيستمر إلى النهاية ...

إننا إذن على شفا عصر من الحروب الدينية المستعرة الذى يعيد إلى الأذهان عصر الحروب الصليبية، ولم لا وقد أفلتت كلمة " الحرب الصليبية " من بين شفتى الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن، وهو فى " مشهد " التهديد بالانتقام من المسلمين الإرهابيين الذين دبروا ونفذوا هجمات الحادى عشر من سبتمبر.

يقول المفكر الاستراتيجى الفرنسى " ألان منيك "" : إن عصرنا الراهن يتجه إلى ما يمكن تسميته بالعصور الوسطى الجديدة حيث يغيب النظام ويضيع المركز وتختفى السلطات من كل المناطق الرمادية وينهار العقل كمبدأ مؤسس ... كل ذلك لصالح الأيدلوجيات البدائية والخرافية التى اعتقدنا منذ زمن طويل أنها اختفت " (١١١).

فأما قوله " ينهار العقل كمبدأ مؤسس لصالح الأيديولوجيات البدائية والخرافية التى اعتقدنا منذ زمن أنها اختفت " فيعنى بصريح العبارة صعود العقائد (الديانات) إلى مركز الصدارة لتكون القوة المؤثرة فى توجيه السياسات، وإدارة الصراع الدولى،

وهذا هو نفس المضمون الذى عبر عنه "برناردلويس، "و" صمويل هنتنجتون" ، وأغلب - إن لم يكن كل المراقبين - أصحاب الشأن من حكام وساسة ومخططين وأكاديميين .

وأما وصفه للعقائد الدينية بأنها أيديولوجيات بدائية وخرافية كان يعتقد مع غيره أنها قد اختفت من الوجود منذ زمن طويل، فليس إلا ثمرة كونه أحد ضحايا الإلحاد الذين ذهبت بعقولهم أساطير الغرب الفكرية ؛ التنوير والعلمانية الشاملة وما بعد الحداثة . . . إلى آخر هذه الخزعبلات التى تعد تعبيراً عن إفلاس الفكر الغربى فى شيخوخته الراهنة التى تؤذن بأفول حضارته، رغم التوهج الظاهر فمثلها كمثل الشمس التى تصير أشد تألقاً عند غروبها قبل أن تمضى إلى الظلام .

وحديثه عن " اختفاء السلطات من كل المناطق الرمادية " فإشارة إلى إدبار زمن الحلول الوسطى والاتجاهات التوفيقية، أو بالأحرى التلفيقية لقدوم عصر الإجابات الجذرية الحاسمة القاطعة المانعة لأى لبس عن الأسئلة الجوهرية المصيرية تحت شعار " إما معنا أو ضدنا " أو " من لم يكن معنا فهو ضدنا " الذى رفعته أمريكا وهى تعلن عن حملتها العالمية " الحرب ضد الإرهاب " . ولا شك أن تلك الإجابات ستفضى حتماً إلى صراعات محتومة ومحتدمة، ومن هنا تتولد الفوضى التى جعلها " روجية جارودى " عنواناً للفصل الأول من كتابه " أمريكا طليعة الانحطاط " . إنها " الفوضى العالمية الجديدة " جيوبوليتيكا الفوضى " (١١٢) معرضاً باصطلاح النظام العالمى الجديد الذى ابتدعته أمريكا شعاراً لسيطرتها على العالم فهذا هو تأويل قول ألان منيك " حيث يغيب النظام ويضيع المركز " الذى يحمل رنة الأسى " الأوروبى " لضياع المركز من أوربا إذ انتقلت القيادة إلى أمريكا بلا منازع !!!

أما عودة العصور الوسطى فلا أعتقد أنها تحتاج إلى تأويل وشرح بعد كل ما قدمنا !!! كما لا أعتقد أنه يوجد الآن عاقل تبلغ به الغفلة أو الوقاحة حد إنكار أن السياسة الخارجية الأمريكية تنبع أساساً من رؤية صدام الحضارات إلى درجة أن أصحابنا من أهل التغريب قد أصابهم الاضطراب الشديد الذى كاد أن يبلغ بهم حد الجنون والهذيان .

(د)

وجوه التغريب وأقنعته

فى هذه " العصور الوسطى الجديدة" التى تندفع نحونا أو نندفع نحوها تُشن حملة عارمة عاتية على الإسلام تتناوله جملة وتفصيلاً بغية اقتلاعه من قلوب معتنقيه واستئصال شأفته من المجتمع، فينعدم تأثيره وتنمحى " هوية " أهله، فيصيرون قطيعاً سلس القياد بلا غاية تنبعث من أنفسهم التى أصبحت فارغة من هويتهم، فيسهل دفعهم فى أى اتجاه يريده " من " يقودهم .

وليس فى هذا الأمر من جديد إلا فى شدة الحملة بتزايد الإمكانات التى يتيحها عصر الثورة التكنولوجية فى مجال الاتصال والإعلام ونشر المعلومات، وفى مجال التسليح، ففى مطلع القرن العشرين وقف "جلاد ستون " رئيس الوزراء البريطانى فى مجلس العموم ورفع ترجمة المصحف الشريف فى يده وصاح " ما دام هذا الكتاب باقياً فى الأرض فلن يقر لنا قرار فى بلادهم "(١١٣) . وفى بداية القرن الحادى والعشرين وقف الرئيس الأمريكى جورش بوش الابن ورفع المصحف الشريف، أيضاً أمام كاميرات وسائل الإعلام وقال " هذا هو كتاب الإرهاب " (١١٤) .

(ا) العلمانية :

وأول القذائف التى تُطلَق وتوجه إلى الإسلام ككل فى محاولة لتنصيره - إن صح التعبير - لفرض " رؤية " عصر التنوير الغربى للدين على الإسلام . تلك الرؤية التى تعتبر الدين بصفة عامة إن لم يكن منظومة من الخرافات البدائية أو الأساطير، فهو على أحسن تقدير مجرد نسق من المعتقدات، أو بالأحرى الأوهام الشخصية التى لا ينبغى أن تخرج إلى " الغير "، بل يجب أن تظل داخل حدود " النفس " الفردية غير مسموح لها بالانتقال إلى خارج الذات الفردية للتأثير فى المجتمع، أو لضبط حركة الحياة الاجتماعية

أو تشكيل بناء مؤسسات الدولة، بل غير مسموح للفرد بالتعبير عن معتقداته "الشخصية" للآخرين، فضلا عن الدعوة إليها ومحاولة جذب الآخرين للإيمان بها والانتماء إليها، لأن ذلك يعد من قبيل "التدخل" المكروه والمحظور فى حياة الآخرين ومحاولة ممقوتة للتأثير عليهم تفسد حريتهم الشخصية / الفردية فى اختيار المعتقدات أو "الأوهام" التى يحبون أو يميلون إليها بأهوائهم، بل إن الدعوة إلى الله والتعريف بالدين ينظر إليها فى هذه الرؤية "التنويرية" باعتبارها "تلويثا" لمناخ الحرية الذى ينبغى أن يعيش فيه ويتنفسه البشر، فلا يُسْمَحُ للفرد فى ذلك المناخ إلا بالذهاب إلى المعبد وإقامة "الطقوس" فى هدوء وصمت دون جلبة أو ضجيج يزعج الآخرين ويعكر عليهم "صفو" استمتاعهم بالحياة.

ويُرَوَّجُ هذا المفهوم تحت شعار "العلمانية" التى تعنى عندهم -ليس فقط- فصل الدين عن الدولة- كما يزعمون- بل تعنى أيضا المنع التام للدين من التأثير فى حياة الفرد أو المجتمع. وتُعد- فى نظر أهل التغريب- شرطاً أساسيًا لتحقيق النهضة واللحاق بركب التقدم، بل قد يعدونها من فرط غلوهم أو بالأحرى جهلهم الشرط الوحيد للخلاص من التخلف وإنجاز التقدم.

وقد تبدو "العلمانية" مفهومة فى سياق الحضارة الغربية المسيحية باعتبار أن الإنجيل قد نص على أن يعطى المسيحى المؤمن "ما لله لله وما لقيصر لقيصر" فاصلاً بذلك القول ما بين العقيدة (الدين) والدنيا أو ما بين الكنيسة ومؤسسات الدولة وأنشطة المجتمع خارج الكنيسة وعلى رأسها السوق، وقد تبدو تطورا ضرورياً ونتيجة منطقية محتومة بالنظر إلى التاريخ الأوربى الذى شهد مفاسد عارمة لآباء الكنيسة ورجال الكهنوت، تلك المفاسد القائمة على مفهوم "الروح القُدُسِ"؛ الإقنوم أو الشخص الإلهى الثالث فى العقيدة المسيحية.

وإذا كانت "العلمانية" -حتى فى طورها المتطرف الشامل- تبدو مفهومه فى سياق

الحضارة الغربية، أو يمكن فهمها فى ذلك السياق، فإن الذى لا يمكن فهمه أبداً هو محاولة إقحام " العلمانية " فى سياق الحضارة الإسلامية التى انبثقت من " نص مقدس " يختلف شكلا ومضمونا عن " الكتاب المقدس " لدى المسيحيين، لأن " القرآن الكريم " لا يفصل بين العقيدة والدنيا، أو بين المسجد ومؤسسات الدولة وأنشطة المجتمع ومن بينها "السوق"، فهو ينص صراحة على أن رسالة الرسول (صلى الله عليه وسلم) تتضمن جزئين لا يتجزآن، أى قسمين محال فصلهما هما: " الهدى " الذى يعنى العقيدة وما يرتبط بها من عبادة وأخلاق، " ودين الحق " الذى يعنى أحكام الشريعة التى تطبق على المسلمين (المؤمنين) وغيرهم على النحو الذى أشرنا إليه آنفا فى الباب الأول يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (١١٥). ويقول " ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ (١١٦).

ويقول ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (١١٧). فجعل تحكيم الرسول (ﷺ) جزءاً لا يتجزأ من الإيمان، وتحكيمه يعنى اتخاذه حَكَماً قاضيا يفصل فى الأمور التى تشجر بين المؤمنين. وهذه الوظيفة أو هذا المنصب هو مجال الخلافة، أى المقام الذى يخلف فيه الحكام رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فإنهم لا يخلفونه فى النبوة أو الرسالة بل فى الحُكْم.

وليس فى العقيدة الإسلامية " إقنوم ثالث، " ومن ثم فلم تنشأ فى التاريخ الإسلامى طبقة رجال الكهنوت، فليس فى الفكر الإسلامى سلطة إلهية ممنوحة لأحد من الخلق، ولذلك لم يشهد التاريخ الإسلامى ظاهرة توغل أو تغول " رجل الدين " فى الحياة السياسية حيث لا توجد من الأصل طبقة أو طائفة تسمى رجال الدين أو الكهنوت حتى يمكنهم أن يفسدوا الحياة الاجتماعية فى كافة مجالاتها السياسية

والاقتصادية والعلمية باستبدادهم مستغلين سلطتهم الدينية الإلهية فلم يعرف التاريخ الإسلامى إلا فقهاء فى الدين أى علماء فى هذا الفرع من المعرفة الإنسانية الناشئة من إعمال العقل بالتأمل والتدبر وتفسير " الوحى " الإلهى ومحاولة تنزيل " أحكامه " الثابتة على وقائع الحياة المتغيرة فيما يعرف باسم "الاجتهاد " ، وهو عمل بشرى خالص ، اختلف الناس فى تقديره على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان ، بل وتقاتلوا ليثبت كل فريق منهم أنه وحده على الحق لأسباب مختلفة تنبعث كلها من مصالحهم الدنيوية ، ولكن لم يزعم أى فريق ولا تجرأ على الزعم بأن " روح القدس " (أو " الروح القدس " بالمفهوم الإنجيلى) هو الذى أوحى إليه أو ألقى عليه هذا الرأى ، فقد أُغْلِقَ باب النبوة وخُتِمَ عليه بموت محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ولم يبق إلا الاجتهاد فى العلم من أجل فهم أعمق ومعرفة أوسع بهذا " القرآن الكريم " الذى يحمل كلمة الله الأخيرة .

إن آيات القرآن تتوجه بالخطاب إلى العقل الإنسانى تطالبه بالتفكر فى خلق السماوات والأرض ، وتنهاه عن الغفلة عما بثه الله فى الكون من آيات دالة على عظيم قدرته التى لا يستطيع الاقتراب من إدراكها إلا العلماء الذين استحقوا أن يكونوا جديرين بمقام الخشية لله ، فأى تعارض - إذن - يمكن توهمه بين العلم والإيمان فى القرآن . . . . ألم يكن أعظم العلماء فى تاريخ الحضارة الإسلامية فى أوج ازدهارها هم أيضاً من الفقهاء فى الدين ، العلماء بأحكام وأسرار التنزيل !!!

لقد عاش علماء الدين الإسلامى ؛ الفقهاء والمفسرون إما فى كنف الحكام متمتعين بالثروة والحماية ومستعدين لتبرير تصرفات الحكام وإجراءاتهم السياسية بإعطائها غطاءً شرعياً ، وإما مطاردين من السلطة الحاكمة مُهددين فى أرزاقهم بل فى حياتهم دفاعًا عن كلمة الحق التى يؤمنون بها ، ومن ثم فإن مأساة التاريخ الإسلامى إنما تكمن فى الاستبداد السياسى الذى يفضى إلى لَىِّ أعناق " النصوص المقدسة " وأحكام

الفقهاء لتوافق أهواء الحكام ؛ أهل السلطة السياسية على النقيض من التاريخ الأوربى الذى شهد استبداد " الباباوات " وتلاعبهم بالأباطرة والملوك، فما هى الحاجة إلى " العلمانية " من أجل إحداث نهضة فى مجتمع إسلامى لم يعرف فى تاريخه استبداد رجال الكهنوت إذ لا وجود للكهنوت فى العقيدة الإسلامية؟!! .

أم أن نخبتنا المثقفة لا تعرف شيئاً سوى محاكاة الغرب على طريقة القرود أو الببغاوات، مع أنهم يصدعون رؤسنا طوال الليل والنهار عن الإبداع وإطلاق الحرية وفتح جميع الأبواب أمام العقل البشرى !!! .

وجوهر " العلمانية" هو أن ينحسر سلطان العقيدة الدينية، فلا يؤثر على السياسة التى ينبغى أن تجرى- طبقاً لهذا المفهوم - على أحكام العقل البشرى لتحقيق المصالح ودرء الأخطار المادية وحدها . وقدر متواضع من التأمل البصير يبين لنا أن "العلمانية" خرافة أو أسطورة غربية لا يؤمن بها إلا أصحاب الشعارات الجوفاء من أهل التغريب الذين شَوَهَّت عقولهم نفايات الثقافة الغربية، فإن الأحداث السياسية الآن وفى كل العصور تنضح بأن " العقيدة الدينية " هى أكبر القوى فى مجريات السياسة وتحريك التاريخ، فهل يمكن مثلاً فهم وتفسير الحروب الصليبية دون إدخال الإيمان المسيحى لشعوب أوروبا فى جوهر التاريخ أو قلب حركة الأحداث ؟!

هل يمكن تفسير قيام إسرائيل كدولة فى قلب العالم الإسلامى دون اعتبار للصهيونية التى تعد فى الأساس حركة دينية / سياسية؟ وهل يمكن تفسير التأييد الأمريكى الدائم لإسرائيل دون الرجوع إلى المسيحية المتهودة أو الأصولية المسيحية؟ وها هى منظمات الأصولية المسيحية تنتشر كالوباء فى أكبر مجتمع " علمانى " فى الولايات المتحدة الأمريكية ؛ النموذج الذى يراد لنا نحتذيه فى كل كبيرة وصغيرة تحت شعار " العولمة"(١١٨) .

هل يمكن تفسير حقيقة أن " بولندا " كانت أول الدول خروجاً على منظومة

المعسكر الشيوعى وفى ذروة الحرب الباردة دون الرجوع إلى حقيقة أن المذهب السائد فى " بولندا» هو الكاثوليكية دون بقية دول العالم الشيوعى التى كانت تدين بالأورثوذكسية ؟ وأنَّ حركة تضامن وزعيمها اللامع " ليش فاونسا " كان يتلقى دعماً كبيراً ومباشراً وغير منكور من " بابا الفاتيكان " المتحدث باسم أوروبا الغربية ولن نمضى أكثر من هذا فى ضرب الأمثلة لتوضيح الحقيقة الساطعة كالشمس فى الظهيرة ولكن العميان لا يبصرون حتى إذا أحرقت الشمس جلودهم !!! .

ثم عن أى " علمانية" نتحدث والجميع يشهدون بأن صدام الحضارات الذى ينبنى على الاعتقاد بصراع إسلامى / يهودى - مسيحى هو المنطق الذى يقود السياسة الأمريكية ؛ القطب الأوحد فى العالم المعاصر وقد قرأنا ما قاله " لويس برنارد " و" آلان منيك " و"صمويل هنتنجتون " ، ....

ومن عجيب ما يتحفنا به أدعياء التنوير الزائف فى بلادنا المنكوبة بهم إعجابهم الشديد بتيار " لاهوت التحرير " ؛ السائد فى أمريكا الجنوبية (اللاتينية) ، والذى يقود الحركات الثورية هناك المدافعة عن الجماهير الفقيرة المحرومة التى تطحنها آلة الرأسمالية المتوحشة ، وطليعة هذا التيار طائفة من رجال الدين المسيحيين الذين أقاموا زواجا فكريا بين" الإنجيل " والماركسية فى محاولة لتقديم ديانة مسيحية إنسانية تقف إلى جانب الشعوب المقهورة على النقيض من الكاثوليكية"الرسمية "التى تؤيد السلطة الحاكمة الظالمة التى كانت دائما -ومنذ عصر الكشوف الجغرافية- فى جانب الاستعمار تمهد له الطريق وتكمل عمله بنزع فتيل الثورة من قلوب الجماهير الغاضبة لتدهور أوضاعها نتيجة نهب ثروات البلاد .

" ولاهوت التحرير " يقوض من الأساس مفهوم العلمانية ، فها هو الدين يشارك فى أعماق الحياة السياسية ويقود حركة التغيير الشامل فى المجتمع ويلقى إعجاب مثقفينا من أهل التغريب الذين يطالبوننا بالتخلى عن التخلف بترك الدين وراء ظهورنا لنلحق بركب التقدم رافعين لواء" العلمانية " !!

فهل " العلمانية" شعار أو بالأحرى سلاح موجه ضد الإسلام فقط ؟ !!

(٢) : الديموقراطية

نقر ونعترف دون أدنى مواربة بأن الفكر الإسلامى بصفة عامة قد تخلف عن مواجهة مقتضيات التطور البشرى، وأن ذلك قد حدث نتيجة للتجمد والتقولب داخل الصياغات والمضامين التى أنتجها أسلافنا من فقهاء المذاهب والمفسرين السابقين، ولكن هذا الجمود الذى يشار إليه بإغلاق باب الاجتهاد إنما هو الثمرة الخبيثة للاستبداد السياسى حيث صعد إلى سدة الحكم من هم ليسوا بأهله وقربوا إليهم من علماء الدين والفقهاء المستعدين دائما لتبرير الوضع القائم وتسويغ أعمال " السلطان " الذى لا يريد بالطبع تغيير الواقع، وهكذا تجمد الفكر الإسلامى كنتيجة منطقية لاستبداد الحكم. إن الحرية الحقيقية أى الديموقراطية هى - إذن - سبيل الخلاص للمجتمعات الإسلامية من الجمود الذى يفضى إلى التخلف لأنها سبيل تحرير العقل وإطلاق قدراته.

إننا - نحن المسلمين - فى أمس الحاجة - لكى ننهض من عثرتنا الحضارية - إلى الديموقراطية لا إلى العلمانية ولا معنى لتساوى المفهومين كما يروج المضللون من أهل التغريب . والسؤال من الذى يحول بيننا وبين الديموقراطية ؟ !!

والإجابة الواضحة إنه الغرب نفسه !!

إن فرنسا مدعومة من كل القوى الغربية هى التى تدخلت ؛ ودفعت بعسكر الجزائر للتحرك وإلغاء نتائج أول انتخابات حرة ونزيهة تشهدها الجزائر، لأنها أسفرت عن فوز ساحق لجبهة الإنقاذ ذات التوجه الإسلامى.

والولايات المتحدة الأمريكية هى التى تدعم النظم الاستبدادية(الديكتاتورية) فى كافة أرجاء العالم الإسلامى، وبقية أنحاء العالم المتخلف أو النامى غير الغربى . وهل ينكر أحد أن المخابرات المركزية الأمريكية هى التى تخطط وتدبر (تنفذ) الانقلابات العسكرية لتمنع الثورات الشعبية المطالبة بالديموقراطية، وتمكن طائفة من أسوأ الحكام

وأكثرهم استبداداً من الحكم رغم أنف شعوبهم؟! هل نحتاج إلى التذكير بأن أمريكا بيد مخابراتها المركزية هى التى أعادت شاه إيران إلى عرش الطاووس حاملا لقب شاهنشاه الذى يعنى ملك الملوك، وهو أسوأ الألقاب عند الله كما ذكر النبى محمد (ﷺ) فى أحد أحاديثه الشريفة، وأنهت بتلك العملية القذرة فى مطلع الخمسينات الثورة الشعبية التى أتت " بمصدق " إلى كرسى رئاسة الوزراء بعد انتخابات حرة ونزيهة؟. هل نحتاج إلى ذكر المزيد من الأمثلة للتذكير بأن الغرب بقيادة أمريكا هو الذى يساند أسوأ النظم الحاكمة استبدادا، وبُعْدا عن الديموقراطية ما داموا يحافظون على المصالح الأمريكية / الغربية التى تتناقض فى جوهرها مع مصالح الشعوب فى العالم غير الغربى وفى مقدمته العالم الإسلامى.

لقد كان" صدام حسين " فى العراق هو الرجل الطيب والزعيم القومى البطل الذى يحارب التطرف والأصولية الإسلامية عندما غزا إيران بغية تقويض النظام الثورى الإسلامى، وتم إغداق السلاح والمال عليه طيلة ثمانى سنوات كاملة فى حرب الخليج الأولى (١٩٨٠- ١٩٨٨)، ثم صار هو الشرير وواسطة العقد فى محور الشر من وجهة النظر الأمريكية / الغربية لأنه حصل على سلاح أكثر من اللازم أثناء فترة "التعاون" ، وينبغى على الغرب أن يسترد سلاحه حتى لا يقع فى أيدى العرب والمسلمين فكانت حرب الخليج الثانية المسماة عاصفة الصحراء أو حرب تحرير الكويت التى دشنت مولد النظام العالمى الجديد، والتى وصفها ريتشارد نيكسون بأنها إصلاح مرتفع الثمن تكلف ما يزيد على مائة مليار دولار للخطأ الذى وقع فيه الغرب عندما قدم السلاح لصدام حسين فى أثناء حربه مع إيران !![١١٩].

ويشرح صمويل هنتنجتون حقيقة الموقف الغربى الذى يفسر لنا كل هذه الأحداث ويلقى ضوءا كاشفا لحقيقة موقف الغرب من الديموقراطية التى يرفع شعارها فيقول: «إن العديد من الدول العربية بالإضافة إلى كل الدول المصدرة للنفط بدأت تصل إلى

مستويات من التنمية الاقتصادية والاجتماعية لم تعد تتلاءم معها نظم الحكم المطلقة وستصبح الحاجة إلى الديموقراطية أقوى ، بل لقد حدث فعلا بعض الانفتاح فى النظام العربى السياسى ، ولكن المستفيد الأول من هذا الانفتاح هو الحركة الإسلامية فى العالم العربى (والإسلامى) . باختصار إن الديموقراطية الغربية تدعم وتمكن القوى المعادية للغرب " (١٢٠).

هذا هو " النص " الأصلى المكتوب لأهل الغرب أنفسهم ، وتأويله هو أن ترك اللعبة الديموقراطية تجرى على أصولها فى البلاد العربية والإسلامية المصدرة للنفط ، والتى يمكنها إحداث نهضة حقيقية أو النجاح فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية ....

......ترك الديموقراطية تجرى على أصولها سوف يؤدى لا محالة إلى فوز الحركات الإسلامية فى الانتخابات ، لأن تلك الحركات هى المعبرة عن هوية الشعوب ومن ثم فسوف يصل إلى مقاعد الحكم من ينطلقون من مرجعية إسلامية ويملكون توجها إسلاميا ويتخذون من القيم والمعايير الإسلامية مثلا أعلى ونموذجا يُهتدى به وهؤلاء بالضبط هم الخطر على مصالح الغرب وقيمه ، ولذلك فيجب على الغرب - واللبيب بالإشارة يفهم - أن يبذل جهده لمنع التطور الديموقراطى فى البلاد العربية والإسلامية .

ألا تفسر هذه الكلمات ما يجرى فى الانتخابات فى كافة أنحاء العالم الإسلامى ؟ ! فمن الذى يحمى الاستبداد ويدعم الديكتاتورية ويمنع الديموقراطية ؟ ! ! !

ولذلك فهو يقدم ضمن نصائحه للغرب فى إدارة صدام الحضارات الذى يبشر باندلاعه هذه النصيحة ذات المغزى " دعم الجماعات الموالية للمصالح والقيم الغربية داخل الحضارات الأخرى " (١٢١).

والنتيجة المنطقية المحتومة لمنع الديموقراطية وهو ما يعنى حرمان الشعوب من التعبير عن نفسها والإفصاح " السياسى " عن هويتها الثقافية هى العنف أو التطرف أو الإرهاب وغيرها من الأسماء والشعارات التى تصف ظاهرة " الغلو " الدينى الناتج عن

الاستبداد الذى يزرعه الغرب ويرعاه !!! وهكذا يتبين لنا صحة تحليل الأستاذ / طارق البشرى الذى أوجزه فى عنوان مقاله " سيبقى الغلو ما بقى التغريب [١٢٢].

وعندما تندلع أعمال العنف السياسى من جماعات وتنظيمات ترفع شعارات إسلامية، فيفزع الناس من مشاهد الاغتيالات وإراقة الدماء واحتجاز الرهائن وخطف الطائرات ... إلى آخر مظاهر أزمة الديموقراطية فى العالم العربى الإسلامى، تتعالى الصيحات تندد بالإرهاب الإسلامى والإسلام العدوانى المقاتل .... ويهتاج الغرب والمستغربون ويحذرون من الرعب الإسلامى القادم لا محالة لتدمير الحضارة ... ويا له من نفاق !!! ... يُهَاجم الإسلام باعتباره متناقضاً مع الديموقراطية، فإذا دخلت حركات التيار الإسلامى المعترك السياسى وخاضت تجربة الانتخابات واتهمت بأنها تخطط للاستيلاء على السلطة «وخطف الديموقراطية " لتمنعها بعد ذلك، ولذلك يجب منعها من الاشتراك فى العمل السياسى تحت شعار المقولة السوقية المبتذلة " لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة " حفاظًا على الديموقراطية ؟ !!!

ومع أن الديموقراطية تعنى سعى كل الأحزاب أو التيارات السياسية للاستيلاء على السلطة عن طريق الانتخابات، ولكن من أجل منع الإسلام من التعبير عن نفسه سياسيا أو بالأحرى منع الأمة من الإفصاح عن هويتها الإسلامية سياسيا ، لا مانع من إغراق الأمة فى أوحال الفتن الطائفية، أو إحراقها بنيران الحروب الأهلية وإبقائها فى حفرة التخلف ما دام كل ذلك يصب فى صالح الغرب والفئة المتعاونة معه التى يصفها " ريتشارد نيكسون " بالتقدميين المتنورين الذين تتفق أهدافهم ومصالحهم مع أمريكا والغرب !!.

وأعتقد أن الجزائر تقدم لنا التجربة العملية، والشرح الميدانى لهذه النظرية الغربية فى الديموقراطية حيث أثبتت أن من حصلوا على أعلى الأصوات نجحوا فى الدخول إلى السجن !!!

إن تطرف التغريب أو الأصولية العلمانية - إن صح التعبير - تخرج على

مقتضيات أى منطق عقلانى وتبلغ أحيانًا حد الجنون المفضى إلى الهذيان مثل بيان قيادة هيئة أركان الجيش التركى الذى تناولته الصحف ووسائل الإعلام، والذى أعلنت فيه أن الإستراتيجية التركية تقوم على أساس أن التيار الإسلامى هو العدو الرئيسى للنظام العلمانى فى تركيا وأن الجيش التركى مستعد للقيام بحرب الألف عام (!!!) ضد هذا العدو الرئيسى للجمهورية التركية !!! . هذا العدو الرئيسى هو الذى يحصد ببساطة ورضى تام أغلب أصوات الشعب التركى فى أى انتخابات تجرى بنزاهة وشفافية !!!

إن الأزمة الجوهرية فى العالم الإسلامى هى أزمة " شرعية نظم الحكم " فى أغلب دوله وهذه الأزمة هى القلب السقيم الذى ينبض بكل أمراض مجتمعاتنا . وإذا كنا فى أتون هذه الأزمة قد وجدنا أنفسنا على شفا عصر جديد تندلع فيه الحروب بغية محو هويتنا أو استئصال شأفة ثقافتنا الذاتية تحت شعار " العولمة "، التى تعد آخر صيحة فى تيار التغريب الذى انطلق مع الحملات الاستعمارية حين أدرك الغرب أن تمسكنا بهويتنا هو الصخرة التى ستتحطم عليها ضربات أطماعه فى بلادنا وثرواتنا . فأوجب الواجبات علينا أن نستجيب لهذا الخطر الداهم أو التحدى الأكبر بإعادة فحص ثقافتنا وتمحيص فهمنا لرسالة القرآن ... ليس من أجل " تغيير لغة الخطاب الدينى " كما يطلب الغرب الذى يشتهى " إسلاماً " مسخاً يوائم نفسه مع مقتضيات الأطماع الغربية وتعليمات " السيد " الأمريكى، وليس من أجل " تحسين صورة " الإسلام والعرب والمسلمين فى أعين الغرب، كما تزعم نخبتنا السابحة فى فلك التغريب أو بالأحرى بحر التغريب الذى يتأهب ليغرقنا، لأن " تحسين الصورة " لن يجدينا فتيلاً ما دام الأصل قبيحاً بحكم الواقع وعداوة الغرب لنا بالغة العمق بموجب تراث طويل من التناقض الوجودى والصراع التاريخى يعترف الطرف الآخر بأنه استمر أربعة عشر قرناً من الزمان، ولا يريد صناع القرار هناك أن يجدوا له نهاية، كما أنَّ التجمل لعين العدو الكاره لن يزيدنا إلا هواناً ... وإنما من أجل أن نحقق ذاتنا بإعادة استكشاف تراثنا بغية الوصول إلى جوهر ما فيه، وإزالة ما تراكم عليه عبر العصور من أخطاء وخطايا البشر والتاريخ لنعرف رسالتنا ونرى طريقنا ونصنع حضارتنا التى تعبر عن هويتنا أو تحقق ذاتنا فنجد أنفسنا .

نحن - إذن - فى أمس حاجة إلى «رؤية» جديدة منبعثة من ذاتنا تضئ لنا طريق الخروج من ظلمات هذه اللحظة التاريخية المفعمة بالأخطار ، إننا في أمس حاجة إلى "فقه جديد" يضع قضية الحكم أو السلطة السياسية فى قلب اهتمامه، وأعتقد أنه لابد من الاتفاق أى الإجماع على ضرورة توافر ثلاثة شروط فى أى نظام سياسى للحكم حتى يمكن «الحكم» بمشروعيته وهذه الشروط الثلاثة هى البيعة والعدل والشورى، وهذه هى معالم النظرية السياسية فى الإسلام .

** الشرط الأول : البيعة

فأما " البيعة » فتعنى أنه لا يجب أن يصل إلى سدة الحكم إلا من أخذ من الأمة (الشعب) بيعة صحيحة، فالرسول (ﷺ) لم يصبح حاكمًا أو رئيسًا لدولة المسلمين فى المدينة المنورة (يثرب) إلا بعد أن بايعه المسلمون على ذلك، وكما قلنا من قبل فإنهم لم يبايعوه على النبوة والرسالة؛ لأنهما تؤخذان من الله أى تنزلان من السماء ولا تعطيان من الأرض، وإنما هم قد بايعوه على الإمامة أو رئاسة الدولة وهذه البيعة هى مظهر قبولهم ورضائهم به (ﷺ) حاكما والبيعة ثابتة بالقرآن والسنة والتاريخ (الواقع) الإسلامى فى عصر الخلافة الراشدة التى أُمِرْنَا أن نهتدى بها ، وإذا كان الفقهاء قد أجازوا فى العصور الماضية جواز الاستيلاء على السلطة بالقوة أو بحد السيف فى مجتمع المؤمنين فإنما ذلك كان رضوخًا للأمر الواقع ومتابعة لما كان سائدا فى تلك العصور على مستوى الإنسانية كلها، بل لا يزال سائدًا حتى فى « عصر العولمة» وادعاء سيادة الليبرالية الغربية، ولكن هذا الموقف الفقهى لم يكن أبدًا رضوخًا لمقتضيات النص القرآنى أو الأحاديث الشريفة، وكلنا يعلم أن الخليفة فى العصر الراشد لم يكن يحصل على منصبه- إن صح التعبير- إلا بعد بيعة عامة تؤخذ من عوام المسلمين فى المسجد الجامع بالمدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية حينذاك، وكل ما

حدث بعد ذلك العصر الذهبى ينبغى رفضه دينيا وعدم الاقتداء أو الاهتداء به فى مجال تقنين «مشروعية» السلطة السياسية فى مجتمع إسلامى، وكل المناقشات التى- للأسف- لا تزال حتى يوم الناس هذا تدور فى الكتب والأبحاث التى تتناول هذه القضية - حول هل يكون الإمام (الخليفة) من قريش أم من غيرها من القبائل أو هل يجوز أن يكون عبدا أم لابد من أن يكون سيداً حراً إلى آخر هذه القضايا التى عفا عليها الزمن ... ونقول كل هذا لغو فارغ يقع خارج العصر، وبعيداً عن احتياجات الناس الضرورية، ويعبر عن بعض عجز الفقهاء عن إدراك الفرق بين الشريعة والفقه، أو بين ما هو جوهرى يقتضيه النص المقدس، وما هو هامشى فرضه الواقع غير المقدس أو بين الإسلام وتطبيق المسلمين له على الأرض، والعجز عن الخروج من قوالب وصياغات الأسلاف كما لو كانت أقوال المفسرين جزءاً لا يتجزأ من التنزيل، وعجزهم عن التمييز بين الأحاديث التى تأمر وتنهى أى تعطى تعليمات يجب الالتزام بها والأحاديث التى تتنبأ عن واقع سيحدث فى المستقبل ولكننا غير مأمورين بطاعتها لأن الواقع / التاريخ غير مقدس .

السؤال الهام هو : كيف يصل شخص ما إلى منصب الإمامة أو الخلافة أو الإمارة أو رئاسة الجمهورية أو أى أسم يعبر عن رئاسة الدولة أو قيادة الأمة ؟!!! إجابة القرآن والسنة وتاريخ الخلفاء الراشدين هى البيعة ، وهى الإجابة التى ينبغى إسلامياً الالتزام بها والبيعة إذن هى مصدر الشرعية وهى تعنى أن الأمة هى مصدر السلطة وهذا هو جوهر الديمقراطية .

أما كيف تأتى البيعة هل بالانتخاب الحر المباشر أو بالاستفتاء أم بغير ذلك من الوسائل؟ فهذا أمر تحدده ظروف كل مجتمع ولكن « الجوهر» الذى ينبغى التشبث به هو صحة البيعة وتعبيرها الصادق عن الحقيقة ، حقيقة أن الناس قد اختاروا وأفصحوا عن رأيهم دون قهر أو إجبار .

** الشرط الثانى : العدل

وإذا كانت البيعة تعطي الحكم مصدره الشرعى فى المجتمع المسلم فإن « العدل » يمنحه مضمونه الشرعى فالقرآن يأمر المسلمين بأن يحكموا بالعدل .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾(١٢٣) .

وبالطبع لا يمكن دينيًا البحث عن العدل خارج " حكم الله" أعنى خارج أحكام الشريعة الإسلامية لأن " حكم الله" هو العدل ، ولذلك فإن من يحكم بغير ما أنزل الله من أحكام فهو ظالم بلا شك ، لأنه لو كان عادلاً حقًا لحكم بما أنزل الله ، أى لوافق حكمه حكم الله ، وإلاّ فإن ترك حكم الله والحكم بغيره مع الادعاء فى نفس الوقت بإقامة العدل فإنه اتهام لله (جل فى علاه) بالظلم - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١٢٤) ومحال بالطبع بموجب الإيمان توهم أن الله قد أنزل بعض الأحكام فى القرآن ليتم إهمالها أو تركها ليستبدل بها غيرها !!! إن ترك أحكام الشريعة واستبدال غيرها بها قضية لا يمكن تبريرها دينيا ما دمنا قد شهدنا لأنفسنا أو بالأحرى على أنفسنا بالإسلام !!! لذلك خاطبنا الله محذرا من الوقوع فى هذا الظلم فقال : ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١٢٥) .

قوله ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ خطاب إلى أمة الرسول محمد (ﷺ) يقطع الطريق على أى محاولة لتبرير أو تسويغ ترك الحكم بما أنزل الله فى وحيه من أحكام تنظم حياة المؤمنين فى مجتمعهم ، فهذا النص إبطال لجميع الحجج (الأسباب) التى يمكن أن يتعلل بها الحكام لترك الحكم بما أنزل الله ، لأن كل الأسباب التى يمكن طرحها فى هذا الشأن محال أن تخرج عن كونها خشية من استثارة عداوة جماعات من الناس لا

يحبون ولا يريدون تنفيذ حكم الله أى تطبيق أحكام شريعة الإسلام التى هى "دين الحق" كما سبق أن بينا، ولا يوجد أدنى شك فى أن وقائع التاريخ على مر العصور تبرهن على صحة هذه القضية، فالسلطات الاستعمارية الغربية هى التى حظرت العمل بأحكام الشريعة واستبدلت بها قوانين أوروبية ، وأوروبا الغربية تقف الآن صفا واحداً وراء "بابا" الفاتيكان لمنع تطبيق أحكام الشريعة فى السودان تناصرها أمريكا ؛ القطب الأوحد فى عالم ما بعد الحرب الباردة التى تبذل ضغوطا هائلة لإلغاء العمل بأحكام الشريعة وإعلان العلمانية بفصل الدين عن الدولة، وإلا فتقسيم السودان وتقويض بنيانه وحصار وتجويع أهل الشمال هو البديل الآخر .

لذلك يحذرنا الله - نحن الذين نعلن الإسلام - أن تستذلنا وتستزلنا خشية هؤلاء الناس فنقع فى خيانة عهد الإيمان الذى يلزمنا بطاعة شريعة الإسلام، فالله أحق بالخشية من الناس مهما بلغت قوتهم وقدرتهم على إنزال الأذى بنا لأن الله (جل فى علاه) أقوى وأقدر وأبقى . واستعمل هنا لفظ "الخشية" وهى الخوف القائم على العلم للتنبيه على أن "العلم" بقوة الأعداء الكافرين وقدرتهم علينا بموجب ما نعلمه من الأسباب لا ينبغى أبدا أن يجعل خشيتنا منهم تفوق أو حتى تساوى خشيتنا من الله، بل يجب أن تزيل خشيه الله خشيتهم وتمحوها من قلوبنا فنهى عن خشيتهم قائلاً ﴿ فلا تخشوا الناس﴾ يعنى الذين " ﴿ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (١٢٦) ، وأمر بخشيه وحده قائلاً ﴿ واخشون ﴾ لأننى الجدير بالخشية "إن كنتم مؤمنين" و" إن كنتم تعلمون" .

وصَوَّرَ جسامة وبشاعة ترك الحكم بما أنزل الله بتشبيهه ببيع آيات الله نظير ثمن بخس، وكل ما فى الدنيا قليل إذا قورن بما عند الله من ثواب عظيم نحصل عليه فى الآخرة إذا أطعنا الله والتزمنا بحكمه ﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (١٢٧) من الدنيا فقال ﴿ ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ﴾ والثمن القليل المقصود هنا هو الغنائم التى يحصل

عليهـــا " الحكام" نظير تركهم لحكم الله، ثم يأتى الحكم القاطع ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكافرون ﴾ .

وتحويل الخطاب إلى أمة محمد (ﷺ) ابتداء من قوله ﴿ فلا تخشوا ﴾ بعد حديثه فى أول الآية عن بنى إسرائيل ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ .

هذا التحويل فى السياق يقطع الطريق على بعض الفقهاء "المعاصرين" الذين ادعوا أن هذه الآية (٤٤ من سورة المائدة) تخص بنى إسرائيل " الذين هادوا " الذين أمر الله أنبياءهم ثم الربانيين والأحبار من بعدهم بأن يحكموا بينهم بما أنزل الله فى التوراة وبهذا الزعم الخاطئ والتخصيص الذى لا مسوغ له حاولوا تبرير ترك الحكم بما أنزل الله راضخين للضغوط السياسية التى بذلت وما تزال تبذل لاستمرار هذا الوضع المغلوط أو بالأحرى المقلوب فى مجتمع يعلن الإسلام، بل وتتصدر الدساتير فى كثير من دوله عبارة " الإسلام هو الدين الرسمى للدولة" أو ما يؤدى معناها !!! ولما كان ترك الحكم بما أنزل الله عملاً يصدر ممن يعلنون إيمانهم لذلك جاءت الآية لتصف حقيقة موقفهم، فقالت : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١٢٨) .

فمن هم الفاسقون ؟!

يجيبنا القرآن فيقول ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ هاهنا تكمن أزمة الأمة الإسلامية بل مأساة الغالبية العظمى من دول العالم الإسلامى، ولا سبيل إلى النجاة من براثنها إلا بالإجماع على إعادة الاعتبار إلى مبدأ "البيعة" كمصدر وحيد لشرعية الحكم فى المجتمع المسلم، وهذا هو جوهر "الديمقراطية الإسلامية" ، ومن ثم ينبغى الاتفاق على رفض منهج "الانقلاب" رفضا تاما أعنى الاستيلاء على السلطة بالقوة الذى كان بداية الابتعاد التدريجى عن الإسلام نصا وروحًا، خاصة وأن ميزان القوة المباشرة على

المستويين الداخلى والخارجى فى غير صالح تيار الإصلاح أو الإحياء الإسلامى، ويستتبع هذا كنتيجة منطقية أن جهد تيار الإحياء الإسلامى الذى تقوده النخبة ذات المرجعية الإسلامية ينبغى أن يُصَّبَ على إعادة تربية الفرد والجماعة المسلمة لإيقاد سراج الإيمان فى القلوب وإخراج الأفراد من السلبية واللامبالاة، والوقاية من الانحدار إلى مستوى حياة الجسد البهيمية بالانخراط فى حياة اجتماعية / سياسية نشطة عبر مؤسسات المجتمع المدنى مثل النقابات والنوادى والجمعيات الأهلية والأحزاب التى ستصطبغ بالهوية الإسلامية وستوجهها وتديرها معايير الثقافة الإسلامية، وفى كلمة واحدة إعادة الأمة إلى الحياة الإسلامية الإيجابية على النحو الذى كانت عليه فى زمن المثل الأعلى أو الأسوة الحسنة، عصر النبى (ﷺ) والخلافة الراشدة، ولكن بوسائل العصر، وفى ضوء معرفة عميقة شاملة بمقتضيات العصر وجوهر رسالة الإسلام دون التحجر عند التطبيق الأول أو أى تطبيق آخر لأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان وهذا هو الاجتهاد .

والمنافقون الفاسقون لا يجدون طريقهم إلى سدة الحكم إلا فى أمة تخلت نخبتها المثقفة عن أداء واجبها وخانت أمانتها وفقد أفرادها إحساسهم بهويتهم الثقافية وشعورهم برسالة أمتهم، وعندما تفيق الأمة من غيبوبتها التاريخية وتستعيد رسالتها سوف تحسن اختيار حكامها الذين يعبرون عن هويتها، فإن سؤال الهوية يتضمن شقين لا ينفصلان أو جزئين لا يتجزآن هما " من نحن ؟ وما هى رسالتنا ؟" .

** الشرط الثالث : الشورى :

ولكن حصول الحاكم المسلم على البيعة والتزامه بتنفيذ حكم الله أى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية لا يضمن الوقاية من الوقوع فى أخطاء جسيمة تفضى بالأمة إلى الخسران، لأن الحكام بشر والبشر خطاءون، وتستولى عليهم الأهواء والأطماع، والسلطة تغرى بالفساد، وكل سلطة مفسدة، وسلطة مطلقة تعنى فسادا مطلقا كما

قال أحد حكماء الغرب، ولوقاية الأمة من هذه الأخطاء والأخطار جاءت « الشورى » ؛ الركن الثالث فى بناء الحكم الإسلامى أو المبدأ الثالث فى « النظرية » السياسية الإسلامية وهى ثابتة بالقرآن وسنة النبى (ﷺ) وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، ويكفى أن نقرأ قول الله (سبحانه وتعالى) يخاطب النبى (ﷺ) بإعتباره إماماً حاكماً للمسلمين المؤمنين : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١٢٩) .

« الأمر » هنا هو الشأن العام الذى يهم الأمة، ومن ثم فهو موضوع عمل السلطة الحاكمة فى أى مجتمع ومعنى أن يأمر الله الإمام الحاكم بالتشاور مع الجماعة المحكومة أو الرعية التى يشير إليها ضمير الجمع "هم" فى أمره (سبحانه وتعالى) "شاورهم" المعنى هو الإلزام بإجراء حوار بين الحاكم والشعب (المحكومين) فى الشأن العام (الأمر) الذى يتعلق بمصلحة الأمة ويستتبع هذا بالضرورة المنطقية خروج من يمثلون الجماعة المحكومة أو الشعب حيث يقومون بالحوار مع الحاكم متكلمين باسم الجماعة (الشعب) .

وهذا الأمر الإلهى « شاورهم » يضع - إذن - الأساس لبناء كيان يمثل الأمة أى يتحدث باسمها ويرفع صوتها إلى الإمام الحاكم، ليتم إجراء الحوار الذى هو طاعة أمر الله بالتشاور أو الشورى ، وفى نفس الوقت فإن التشاور أو الشورى يعنى بالضرورة تعدد الآراء واختلاف وجهات النظر فى « الأمر » أى الشأن العام المعروض للشورى، وإلاَّ فيم سيكون الحوار أو التشاور إذا لم يكن هناك إلاَّ رأى واحد أو وجهة نظر واحدة، ومن هنا نفهم أن الأمر الإلهى بالشورى يضع الأساس أيضًا لبناء التعددية السياسية فى المجتمع المسلم فى إطار « العدل » الذى بينا أنه حكم الله أو أحكام الشريعة الإسلامية .

ويتضح لنا الآن أن « الشورى » تمنع انفراد الحاكم بالسلطة، وهو ما يعنى أنها تحارب الاستبداد وما يجره على الأمة من أخطاء وأخطار ، وإذا كان الاجتهاد البشرى قد

أفضى إلى إنشاء "البرلمان » أو مجلس الشعب أو مجلس النواب أو مجلس الشيوخ أو غيرها من الكيانات للتعبير عن صوت الأمة والتحدث باسم الشعب وإنشاء الأحزاب السياسية للإفصاح عن التعددية المحتومة فى المجتمع البشرى بموجب أن الله قد خلق الناس مختلفين منذ البدء ، فإننا نرى أن هذه الوسائل هى التجسيم أو التطبيق الإنسانى لمبدأ «الشورى» الإلهى (القرآنى) الذى ذكر الله أنه «صبغة» المجتمع المسلم كما جاء فى سورة «الشورى » التى قال الله فيها معددا خصائص المجتمع المسلم :﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (١٣٠).

فوضع الشورى بين فريضة الصلاة ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ وفريضة الزكاة ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وكل ذلك على سبيل التفصيل لمجمل الاستجابة لله التى ذكرها فى صدر الآية «والذين استجابوا لربهم» لأن معنى السياق يقول : وكان من استجابتهم لربهم أنهم أقاموا الصلاة وجعلوا أمرهم شورى بينهم، وآتوا الزكاة وأدوا الصدقات إنفاقا من أموالهم التى رزقهم الله بها طاعة لله الذى آمنوا به وتوكلوا عليه، واجتنبوا ما نهى عنه وغفروا لمن استثار غضبهم من أخوتهم المؤمنين طمعًا فى مغفرة الله لهم، وردوا على اعتداء من بغى عليهم من أعدائهم الكافرين انتقامًا منهم لأن العدل يقتضى مقابلة السيئة بالسيئة والاعتداء باعتداء مثله، ولكن من يعفو بالتنازل عن حقه فى الانتقام بعد القدرة عليه محتسبا أجره على الله فسوف ينال أجره من الله ولكن ينبغى أولا إثبات القدرة على رد العدوان تحقيقًا للعدل لأنه (سبحانه وتعالى) ﴿ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾(١٣١).

﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا

السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

هذا هو مجمل السياق الذى وردت فيه صفة «الشورى» ولا أعتقد بوجود عاقل فقيه أو فقيه عاقل يشكك فى فرضية «الشورى» ، بعد وضعها بين فريضتين هما الصلاة التى هى عماد (عمود) الدين، والزكاة التى قوتل مانعوها مقاتلة المرتدين عن الدين الذين أعلنوا التمرد على الخلافة (سلطة الحاكم المسلم) ورجعوا إلى الإشراك بالله بعد الإسلام .

ولكن لماذا لم تنل «الشورى» مكانتها الجديرة بها فى الفقه الإسلامى، بل نكاد لا نرى لها أثراً فى كتب الفقه والتفسير ؟! إن ذلك يرجع دون شك إلى مأساة التاريخ الإسلامى الذى غلب عليه الاستيلاء على السلطة بالقوة وتراجع مبدأ «البيعة» منسحبا حتى كاد أن يكون نسياً منسياً !!!

على هذه الأسس الثلاثة ؛ البيعة والعدل والشورى يقوم بناء الحكم الإسلامى، وهذه الأسس أو المبادئ تمثل المعايير التى ينبغى الاحتكام إليها عند النظر فى مدى مشروعية أى سلطة أو شرعية أى نظام للحكم يقوم فى مجتمع مسلم ، ولاشك فى أن نظرة سريعة على واقع العالم الإسلامى اليوم تخبرنا إلى أى مدى ابتعد المسلمون عن الإسلام الذى نقرأ عنه فى القرآن وسنة النبى وسيرته (ﷺ) ، إن الآية (١٥٩) من سورة آل عمران تدلنا على الصفات التى ينبغى توافرها فى الإمام الحاكم حتى يلتف الناس حوله ولا ينفضوا من حوله ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾.

إنها الرحمة واللين والعفو والمغفرة (نسيان الإساءة) والشورى والعزم (استجماع الإرادة ومقاومة الغواية) والتوكل على الله . فكم من حكام المسلمين اليوم يتوفر فيهم قدر قليل من بعض هذه الصفات ؟!! [١٣٢] .

إن التحدى الأكبر الذى يواجه العالم الإسلامى اليوم هو النجاح فى إقامة مجتمع يحقق مبادئ الحكم الإسلامى الصحيح الذى لا شبهة فى مشروعية السلطة فيه وجدارته بحمل صفة الشرعية الإسلامية، وهذه المبادئ هى البيعة والعدل والشورى، وهى تُكَوِّنُ ما نسميه الديمقراطية الإسلامية التى نعتقد أنها قادرة - بإذن الله - على الاستجابة الصحيحة والناجحة للتحديات التى تواجه العالم الإسلامى، وعلى استعادة الأمة الإسلامية لدورها فى صناعة التاريخ وبناء الحضارة الإنسانية من موقع القيادة باعتبارها الأمة الوسط .

٣- تحرير المرأة وتنظيم الأسرة :

لقد كان منع تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وفرض قوانين أوروبية غربية بدلا منها هو العمل التغريبى الأول الذى قامت به السلطات الاستعمارية فى جميع الدول الإسلامية التى خضعت للاحتلال، وكان الهدف هو طمس هوية المجتمعات الإسلامية بإجبار الإسلام على الانسحاب من الحياة الاجتماعية والانحسار والانحصار داخل المساجد والزوايا، ولكن ظلت الأسرة هى الحصن الحصين للدفاع عن المجتمع الإسلامى والحفاظ على هويته إذ لم تستطع الحقبة الاستعمارية أن تفرض على المسلمين التخلى عن الشريعة الإسلامية فى مجال الأسرة، أو ما كان يطلق عليه قانون الأحوال الشخصية الذى ظل مستمدا نصا وروحًا من أحكام الشريعة الإسلامية، رغم كل الحملات المسعورة التى يشنها الإعلام الغربى وأذنابه «المحليين» المسيطرين سيطرة شبه تامة على الإعلام «الرسمى» فى معظم دول العالم الإسلامى، باعتبار أن الإعلام الحكومى السائد جزء لا يتجزأ من منظومة الحكم، ويقع عليه الدور الأكبر فى غسل أدمغة الشعوب لتبرير أعمال السلطة الحاكمة فى كل المجالات ... تلك الحملات التى صورت الإسلام وشريعته باعتبارها تمثل اضطهادا ضد المرأة بالثرثرة حول تعدد الزوجات الذى يُعد فى الرؤية الغربية على أحسن تقدير انحرافًا نفسيًا وخلقيًا (أما تعدد العشيقات فلا بأس به بل هو علامة التفتح الثقافى وسعة الأفق والانفتاح على العالم) والضجيج حول إعطاء الرجل العصمة، والحق فى التطليق، وإعطاء المرأة نصف

نصيب الذكر فى الإرث، وجعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل أمام القضاء وغيرها من القضايا التى ظلت ولا تزال تثير حملات شعواء مسعورة ضد الشريعة الإسلامية .

رغم كل تلك الحملات أثناء الحقبة الاستعمارية ثم فى عهد الحكومات الوطنية التابعة بعد الاستقلال فإن الشريعة الإسلامية فى مجال الأسرة ظلت سائدة، ولكننا الآن فى عصر «العولمة»، فى ظل النظام العالمى الجديد - أو الفوضى العالمية الجديدة بتعبير «روجيه جارودى» - حيث أصبح الهدف هو اكتساح العالم الإسلامى بأن تصبح الثقافة الأمريكية الغربية نمطًا ثقافيًا واحدًا مسيطرًا على العالم كله ، تحاكى فيه كل المجتمعات الإسلامية المجتمع الأمريكى / الغربى متخلية عن ثقافتها الذاتية للقضاء على البقية الباقية من الهوية الإسلامية الثقافية بالقضاء على المفهوم الإسلامى للأسرة وتقويض أحكام الشريعة الإسلامية فى هذا الشأن لصالح المفاهيم والمعايير الغربية الأمريكية وذلك عن طريقين أساسيين : الأول : هو إجبار الحكومات فى الدول الإسلامية على التوقيع على وثائق واتفاقات تتخفى وراء قناع «عالمى»، وترتدى ثوب منظمة الأمم المتحدة التى تمثل ظاهراً الشرعية الدولية وباطنًا إرادة الغرب بقيادة أمريكا، وتفرض تلك الوثائق والاتفاقات على الدول الإسلامية المفاهيم والمعايير الغربية / الأمريكية، ورغم أن الجهات المنظمة للمؤتمرات الدولية التى تصدر عنها تلك الوثائق والمعاهدات قد تعطى الدول الإسلامية حق التحفظ على بعض الفقرات التى تعد انتهاكًا صارخًا للقيم الإسلامية، إلاّ أن التوقيع النهائى على الوثيقة أو المعاهدة يجعل أثر تلك التحفظات معدومًا فى ظل الضغوط السياسية الهائلة التى ستبذل على الحكومات التى تعانى أصلاً من ضعف الإرادة وهشاشة الشرعية، أو بالأحرى انعدامها بحكم أنها غير منتخبة أى لم تحصل على «البيعة» من الشعوب التى لم تشارك فى اختيار حكامها إلا «بالصمت» عن إبداء رأيها «الحقيقى»، ويتحول التوقيع على تلك الوثائق والمعاهدات المشبوهة إلى سيف مسلط على أنظمة الحكم فى الدول الإسلامية المغلوبة على أمرها من أجل الدفع بشعوبها إلى المزيد من التغريب لمحو الهوية على طريق التبعية .

أما الطريق الثانى - الذى يدعم الطريق الأول- فهو الهجوم الإعلامى الكاسح الذى يساند الضغط السياسى من أجل الالتزام بما فى تلك المعاهدات والوثائق تحت شعارات جوفاء مثل الالتزام بالشرعية الدولية وما تتفق عليه الأسرة الإنسانية (!!) ومحاربة الانعزال والتخلف والنضال من أجل حقوق الإنسان والتقدم والدفاع عن المضطهدين وما إلى ذلك من شعارات يمكن أن نطلق عليها ما قاله الإمام على بن أبى طالب (رضى الله عنه) « كلمة حق يراد بها باطل »، ولعل مؤتمر السكان والتنمية الذى عقد فى القاهرة فى سبتمبر ١٩٩٤ هو خير مثال يمكن أن نضربه فى هذا المجال ولنترك التعليق عليه للأستاذ الدكتور / جلال أمين فى كتابه «التنوير الزائف» والأستاذ الدكتور / جلال أمين هو أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وحاصل على الدكتوراه فى الاقتصاد من جامعة لندن، ولا يمكن بحال أبداً اتهامه بالأصولية الإسلامية أو الانتماء إلى إحدى منظمات الإرهاب الإسلامى أو حتى تأييد تيار الإحياء الإسلامى .

يقول الدكتور / جلال أمين(١٣٣) : " عندما قرأت الوثيقة المعروضة على المؤتمر لإقرارها كانت خلاصة موقفى هى : نعم نحن فقراء ولكننا لسنا متخلفين ، لما قرأت الوثيقة ذهلت إذ وجدت كل فقرة من فقراتها تقريبًا تفوح منها رائحة حضارة معينة ونمط حياة معين هو السائد الآن فى أوربا الغربية وأمريكا الشمالية ، وهم يريدون توقيعنا عليها وكأنها تعبر عن تفضيلاتنا نحن أيضاً، ومن أجل هذا بالطبع اخترع ما يمكن تسميته بلغة هيئة الأمم المتحدة، وهى لغة خاصة تكتب بها كل التقارير الصادرة عن هذه الهيئة ومنظماتها المختلفة، لغة تحاول إخفاء هذه الرائحة الخاصة والمصالح الخاصة والتظاهر بأن العالم واحد تحكمه مصالح واحدة غير متضاربة وتسوده قيم واحدة غير متباينة، فالوثيقة تفيض بالكلام عن السكان والعلاقات الجنسية ولكنها لا تكاد تلفظ بكلمة «الزواج» أو كلمة « الأسرة» .

والوثيقة تعتبر من قبيل المسلمات وجود علاقات جنسية قبل الزواج وبدونه وتعتبر هذا حقًا من الحقوق الواجبة الاحترام ، والوثيقة تحاول بنجاح كبير ألا تجرح

شعور الشواذ جنسيًا (١٣٤) من الرجال والنساء فتفصل فصلاً حاسمًا بين العلاقة الجنسية والإنجاب، وتعتبر حرية الاختيار فى هذا الأمر من الحريات الأساسية، المهم هو أقصى قدر من الإمتاع. «الفرد» إذن هو الأساس فى نظر هذه الوثيقة وميوله وأهواؤه، أيًا كانت غرابتها فى نظر بعض الثقافات الأخرى (بل وأيًا كانت غرابتها حتى فى نظر الثقافة الغربية نفسها منذ عشرين سنة فقط) واجبة الاحترام وفى سبيل ذلك تضحى بأى مقدسات دينية أو تقاليد أو أعراف تسود الثقافات الأخرى .

والوثيقة تتملق بشدة الحركات النسوية الجديدة فى الغرب وكأنها جاءت بدورها بآخر اكتشافات العقل الإنسانى ووضعت يدها على آخر أسرار التقدم البشرى عندما تنادى بالمساواة فى كل شئ بين الرجل والمرأة وكأن المساواة المطلقة بين الجنسين، وليس الاعتراف باختلاف الدور والوظيفة هى أسمى أنواع العلاقة بين الرجل والمرأة، وتعبر الوثيقة عن هذا الهدف بعبارات تكاد تكون مضحكة، ولو كان بإمكانها أن تطالب الرجل بإرضاع الأطفال أسوة بالنساء لفعلت !! والمؤتمر نفسه وما دار فيه، وما فعلته وسائل الإعلام المصرية قبله وأثناءه، ... كل هذا يدل على مدى عمق شعور معظم كتابنا ومعلقينا بالعار إزاء الغرب، إذ ما كل هذه الحرص على أن يرضى عنا الأجانب ؟! وما كل هذا الاهتمام برأى الأجانب فينا ؟!

والمذيعة التليفزيونية تبدو وكأنها تستجدى من الأجنبى أن يمدح مصر ويثنى على طيبة المصريين وكرمهم ؟! ماذا يهم إذا اعتبرنا الأجانب طيبين أو غير طيبين ؟!!! وما كل هذا الاهتمام بممثلة أمريكية تفضلت وتعطفت علينا فقالت كلمة رقيقة عن المصريين ؟ وما هذا الإخراج المستغرب السخيف لنشيد الجهاد لعبد الوهاب فى الحفل الذى أقيم لأعضاء المؤتمر فى القلعة حيث لا تكاد تستطيع من فرط صخب الأوركسترا أن تعرف هل هذا نشيد لعبد الوهاب أم لمؤلف أوربى ؟! وهل المصرى الذى يغنى اغنية " كل مصرى ينادى " ينطق بالعربية أم بالإيطالية ؟!

وها هو المؤتمر يعقد جلساته يوم الجمعة أيضا لمجرد أن الغرب يعتبره يوما كبقية الأيام ويعلن مذيع التليفزيون ان أعمال المؤتمر ستتوقف يومى السبت والأحد اللذين يصفهما دون أن يبدو عليه أى استغراب بأنهما " عطلة " نهاية الأسبوع "!!!!(١٣٥)

ثم يمضى الدكتور جلال أمين فيقول " بالإضافة إلى ذلك لماذا يفرض علىَّ أن أقبل أن زيادة نسبة النساء العاملات خارج المنزل بأجر (أى لدى الغير) هو دائما شئ أفضل من العكس ؟ !وهو ما تعتبره الوثيقة من المسلمات لمجرد أن هذه هى التجربة الغربية فى هذا الأمر ؟ ولماذا تعتبر الوثيقة التخطيط فى موضوع السكان أمرا مرغوباً فيه ومطلوباً (رغم أنه يتضمن التدخل فى حريات الناس) بينما تعتبر التخطيط فيما عدا هذا شيئاً سيئاً ؟ !"

والكاتب القدير بهذه الملاحظة الذكية يكشف عن الدافع الخفى الكامن وراء الشعارات والسياسات الغربية الظاهرة، فباسم " العولمة " وتحرير التجارة العالمية وزيادة معدل نمو الاقتصاد العالمى يطلب من الدول النامية - ومن بينها الدول الإسلامية بالطبع- كف أيدى الحكومات عن التدخل فى الشئون الاقتصادية لفتح أسواق البلاد أمام المنتجات الأجنبية، وإزالة جميع العراقيل أمام تدفق السلع واعتبار تدخل الدولة لحماية المنتجات المحلية أمراً قد عفا عليه الزمن وثبت فشله، وكذلك التخطيط المركزى الذى يجب إلغاؤه وترك العملية الاقتصادية برمتها لقوى وآليات السوق والهدف من وراء ذلك بالطبع هو ضمان فتح الأسواق أمام المنتجات الغربية بصفة عامة، والأمريكية بصفة خاصة، لتحقيق أكبر ربح للشركات العملاقة متعددة الجنسيات أو عابرة القارات التى أصبحت تمثل الحكومة الخفية الحقيقية التى تلبس قناع الحكومات الرسمية الظاهرة(١٣٦).

أما فى مجال تحديد النسل الذى يسمى على سبيل الخداع والتمويه تنظيم أو تخطيط الأسرة فإن جميع الخبراء " العالميين " يجمعون على ضرورة تدخل الحكومة من

أجل إنجاح برامج تحديد النسل فى الدول النامية، وفى مقدمتها بالطبع الدول الإسلامية ولا يخفى على أحد أن تمويل تلك البرامج يقع على عاتق الحكومات الغربية والأمريكية ضمن المعونات الأجنبية، وتشرف منظمات الأمم المتحدة إشرافا دقيقا على أجهزة تنظيم الأسرة (تحديد النسل) فى البلاد النامية والإسلامية، بل وتراقب الحكومات الغربية هذا الأمر مراقبة لصيقة، والإجماع الغربى معقود على أنَّ تدخل الدولة ودورها الحاسم فى هذا الشأن أمر لا جدال فيه والسر وراء ذلك هو الرعب الغربى من زيادة عدد سكان العالم الإسلامى والدول النامية بصفة عامة حتى أن جميع المراقبين الغربيين يعتبرون " التهديد السكانى " هو أحد أوجه التهديد الإسلامى البارزة، ويطالبون صراحة، ودون مواربة بتقليل عدد سكان العالم الإسلامى أى عدد المسلمين وينظرون برعب شديد لزيادة عدد السكان وارتفاع خصوبة المسلمين فى مقابل تدنى خصوبة الغربيين مما يهدد - من وجهة النظر الغربية - باكتساح المسلمين وسكان الدول " الجنوبية" النامية للدول الغنية الغربية، ويتقنع ذلك الرعب الغربى وراء شعار إنسانى براق هو تخطيط الأسرة من أجل إنجاح برامج التنمية و " أسرة أقل عددا تساوى حياة أفضل " وهكذا يتبدى لنا أن " الدولة " المراد تقليص دورها فى الاقتصاد ينبغى فى نفس الوقت أن يزيد تدخلها فى مجال تحديد النسل !!!

وهو ما يدفع الدكتور / جلال أمين إلى القول " ليس هناك ما يجبرنى على أن أقبل هذا كله وكأنه من المسلمات إلا شئ واحد أن يكون فى أعماقى شعور قوى جداً بالعار إزاءهم يدفعنى دفعاً إلى أن أفعل المستحيل لكسب رضاهم . وهذا هو للأسف ما فعلناه خلال هذا المؤتمر "(١٣٧).

ونقول أن هذا للأسف هو ما فعلته ولا تزال تفعله نخبتنا التى وضعت فى مركز صناعة القرار خلال ما يناهز قرناً من الزمان، عانت فيه ولا تزال من شعور عميق "بالعار" إزاء الغرب واستولى عليها الإحساس بالدونية، وفقد الهوية فسارت على طريق

التبعية ولم تجد لها سبيلاً سوى محاكاة الغرب، ومن ثم فقد تعامت عن الحقيقة الساطعة الصارخة التى تقول بكل لسان أن الغرب أعنى المشروع الحضارى للغرب كان ولا يزال هو العدو التاريخى لأمتنا الإسلامية، ومن ثم فقد فشلت فى رفع مستوى استجابتنا للعدوان الغربى علينا إلى مستوى التحدى الحضارى أعنى تحدى الهوية وكانت هذه الخطيئة التاريخية هى مصدر فشل مشروع النهضة العربية الإسلامية ولا يزال هو الينبوع لإخفاقنا المستمر وهزائمنا المتواصلة !!!

ولكن ينبغى أيضًا الاعتراف وبنفس القدر من الوضوح والصراحة أن عصور الانحطاط -انحطاط الهمة- عندما تخلت الأمة عن رسالتها وتحول " الوحى " الإلهى من خطاب مقدس مباشر بين الله والإنسان إلى مجرد " تراث " يتقادم ويتباعد عن الوعى الإيجابى أو الإدراك النشط تتناقله الأجيال على نحو آلى، وتحولت العبادات إلى عادات وطقوس اجتماعية تفتقد حرارة الإيمان ونور الإخلاص وتوقد الحب، وصارت الغرائز والأهواء هى دوافع السلوك، وتسربت إلى الثقافة الإسلامية موروثات الثقافات "الأخرى" فى المجتمعات التى انتشر فيها الإسلام، فأخذ يفقد صفاءه ونقاوته وانتشرت الآراء الفاسدة والمرويات المغشوشة و " الأقوال " التى يساء فهمها، وساد الجمود والتحجر على ما جاء به الأسلاف تحت شعار " ليس فى الإمكان أبدع مما كان " ودخلنا فيما أسماه " مالك بن نبى " (١٣٨) حالة القابلية للاستعمار .... فى تلك الفترات الحالكة من تاريخ العالم الإسلامى سادت الآراء التى تعتبر المرأة " عورة " ينبغى سترها فى البيت من المهد إلى اللحد وفقدت المرأة مشاركتها الحيوية والإيجابية فى بناء حضارة أمتها على النحو الذى نراه فى " عصر الرسالة (١٣٩) .

فلما جاء الاستعمار وبدأت حملات " التغريب " تشتد، انتفضت الأمة لتدافع عن هويتها، فاندفعت تتمسك وتتشبث بالمفاهيم والأعراف التى تمثل لديها " التراث الإسلامى" الذى يجب المحافظة عليه، ولم تنتبه بالطبع وهى فى حالة الفزع من الضياع

وفى غمرة الدفاع عن النفس إلى ما تسرب إلى ذلك التراث من مفاهيم خاطئة وآراء مرجوحة وأقوال مغلوطة، ولعل " النقاب " وما يثيره من مناقشات ومجادلات عنيفة وعقيمة هو الرمز المعبر عن أزمة مجتمعات إسلامية تتخبط فى طريقها، فإن صورة الفتاة المنقبة التى تمشى فيما يشبه الخيمة السوداء هى الصورة المقابلة للعجوز الشمطاء التى تضع " المكياج " الفاقع على وجهها البغيض الذى نثر الزمن عليه التجاعيد، ومن فمها الذى يتصاعد منه دخان السيجارة أو السيجار تخرج الكلمات التى تتحدث عن " تحرير المرأة " !!! إن كلا الصورتين (الغلو الدينى المتزمت الأجوف والتغريب المفروض المتطرف) ما هما إلا وجهان لعملة واحدة هى انعدام الديموقراطية وحرمان الناس من التعبير عن هويتهم ومن استعمال عقولهم بحرية !!

٤-الدفاع عن الأقليات والحرية من الاضطهاد الدينى

لا يمكن بالعقل تصور تحرير المرأة كقضية منفصلة عن تحرير المجتمع الإسلامى ككل ولكن أدعياء تحرير المرأة على طريق التغريب يحاولون عبثا مناقشة قضية المرأة منفصلة عن بقية قضايا المجتمع التى فى أساسها تقوم قضية الديموقراطية وشرعية السلطة السياسية، ولكن متى كان أدعياء التحرير دعاة التغريب يستمعون إلى العقل؟ ويبدو أن تحرير المرأة فى نظرهم يشبه تحرير السودان فى نظر الحركة الشعبية أعنى تحريرها من الشريعة الإسلامية !!!

ولا يخجل الذين يتهمون الإسلام باضطهاد المرأة من اتهامه باضطهاد الأقليات غير المسلمة، رغم أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يقبل غير المسلمين من اليهود والنصارى داخل الدولة التى تحتكم إلى شريعته، ورغم أن تاريخ الإسلام ناصع البياض فى توفير الأمن والحرية لغير المسلمين من رعاياه مع بعض الاستثناءات التى تفرزها فترات الانحطاط والتدهور السياسى، على العكس من تاريخ الغرب (أوروبا وأمريكا) حالك السواد فى اضطهاد المخالفين فى العقيدة، ولماذا نذهب بعيداً؟ وها هى شعوب

أمريكا وأوربا الغربية فى فجر القرن الحادى والعشرين وفى ظل ادعاءات " العولمة " العريضة تقوم باضطهاد الجاليات العربية والإسلامية، فتحرق المساجد وتطلق النار عشوائيا على كل من يُشْتَبه فى عروبته أو إسلامه، أو يلقى القبض عليه دون اتهام أو اشتباه بدليل أو قرينة، بل وتستصدر القوانين الخاصة بمعاملة المسلمين والعرب عند قدومهم إلى أمريكا تمييزا وإساءة لهم عن سائر الناس لمجرد أنهم مسلمون وعرب.... كل ذلك لأن أمريكا قد اتهمت بعض العرب والمسلمين بتنفيذ هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ دون أن تقدم دليلا واحداً يمكن قبوله بالعقل ... شُرِّعَتْ هذه المعاملة المهينة حتى إذا كان هؤلاء العرب والمسلمون الراغبون فى دخول أمريكا قد جاءوا من أجل وضع الأموال فى بنوكها أو متابعة استثماراتهم فيها ... تلك الاستثمارات التى تضخ الدم فى قلب وشرايين الاقتصاد الأمريكى، وتجعل منه الاقتصاد الأول فى العالم فهل يمكن أن توجد غطرسة وتجبر فى جانب يقابلهما هوان وتذلل فى الجانب الآخر أبشع من هذا ؟!!

ولقد بينا من قبل - فى حدود ما يسمح به المقام - كيف يأمر القرآن المؤمنين بالبر والإقساط إلى الكافرين حتى المشركين منهم ما داموا لا يحاربون الدعوة الإسلامية ولا يعتدون على المسلمين أو يتعاونون مع المعتدين (١٤٠). ويأمرهم بعدم التعاون أو التحالف -فقط- مع الكافرين الذين يقاومون الدعوة ويعتدون على المؤمنين أو يتعاونون مع المعتدين عليهم (١٤١). ومن ثم فإن القتال فى سبيل اللَّه أو الجهاد متجه فقط إلى الذين يعتدون على المؤمنين ويحاربون انتشار الإسلام بالدعوة التى حدد الله وسائلها -كما بينا سابقا - فالقتال فى سبيل الله قد شُرِعَ من أجل حماية حق الإنسان فى اختيار عقيدته أى الحرية الدينية، ونصوص القرآن الكريم والأحاديث الشريفة قاطعة فى منع إجبار الناس على الدخول فى الإسلام كما أنها توضح استحالة الإكراه على الإيمان واستحالة أن يؤمن الناس " كلهم جميعا " ، ولكن الدعوة إلى الإسلام هى رسالة

الأمة الإسلامية التى لا تستطيع أن تتخلى عنها وإلا فقدت هويتها ودورها فى صناعة التاريخ وبناء الحضارة الإنسانية، ومن ثم فإن الصراع لا ينشأ إلا عندما يقاوم الآخرون نشر الدعوة ويضطهدون المؤمنين المستضعفين، والقتال لا يشتعل إلا من جانب أولئك الذين لا يريدون سماع " كلام الله " كما كان حال كفار قريش، ويرفضون رفضا باتا أن يكون للأمة الإسلامية دور فى التاريخ أو حضارة تخالف حضارتهم ومن هنا فقط ينشأ " صدام الحضارات " !!

ومرة أخرى علينا أن نعترف ونقرر بكل وضوح وصراحة أن كتب التفسير والفتاوى قد حملت الكثير من المرويات التى لم يحسن فهمها ومعرفة الظروف التى قيلت فيها، مما جعل الإسلام يبدو كما لو كان دينا عدوانيا يهاجم الناس بغية الاستيلاء على أموالهم على خلاف حقيقته، كما أن التمييز بين الكافر المعادى والكافر المسالم قد سقط من فهم وأقوال بعض الفقهاء كثيرا - على خلاف ما نص عليه القرآن- وأن الكثير من آيات القرآن الكريم وأحكامه قد تم التغافل والتغاضى عنها بزعم " النسخ " الذى توسع فيه بعض الفقهاء والمفسرين دون مسوغ حتى أننا إذا سايرناهم فى أوهامهم لنسخت الآية التى يطلقون عليها آية السيف فى سورة التوبة ما يساوى ربع القرآن أو ثلثه ؟!!.

إلى أولئك الأعداء الذين يهاجمون الإسلام بادعاء أنه يضطهد الأقليات غير المسلمة بغية تقويض بنيانه، وإلى هؤلاء الذين يسيئون إليه من أبنائه وأدعيائه بجهلهم وعجزهم الفادح والفاضح عن فهم القرآن نقدم إليهم جميعا العهد الذى أعطاه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) باعتباره رئيسا للدولة الإسلامية فى المدينة المنورة إلى نصارى نجران، عندما قدموا إليه يعلنون ولاءهم ورضاهم بالدخول فى طاعته أى الخضوع لسلطته، وعلينا أن نلاحظ صوت " رجل الدولة " الذى يشعر بالمسئولية عن جميع مواطنيه ويعمل على توفير الحياة الكريمة لهم وحفظ حقوقهم على اختلاف أديانهم فى كلمات الرسول (ﷺ) : (عهد رسول الله (ﷺ) إلى نصارى نجران) (١٤٢).

** لنجران وحاشيتها ولجميع النصارى جوار (حماية) الله وذمة رسوله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم (أماكن العبادة) وكل ما تحت أيديهم (ممتلكاتهم) من قليل أو كثير .

** أن أحمى جانبهم وأذب (أدافع) عنهم، وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم ومواضع الرهبان ومواطن السياح (أماكن الحج والزيارات الدينية) حيث كانوا من بحر أو بر شرقا وغربا بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتى (المساواة الكاملة بين المسلمين وأهل الكتاب باعتبار المواطنة) .

** فلا يُغَيَّرُ أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته . (حفظ الحرية الدينية وعدم التدخل فى شئون المسيحيين الدينية وترك تنظيمها لهم بموجب أصول ديانتهم) .

** ولا خراج ولا جزية إلا على من يكون فى يده ميراث من ميراث الأرض ممن يجب عليه فيه للسلطان حق، فيؤدى ذلك على ما يؤديه مثله ولا يُجَار عليه ولا يُحْمَل منه إلا قدر طاقته وقوته على عمل الأرض وعمارتها ولا يُكَلفً شططا ولا يُتَجَاوز به حد أصحاب الخراج من نظرائه .

(العدالة واليسر فى فرض الضرائب على النصارى وأهل الكتاب باعتبارهم مواطنين فى الدول الإسلامية) .

** ولا يدخل شئ من بنائهم فى شئ من أبنية المساجد ولا منازل المسلمين (المحافظة على ممتلكات أهل الكتاب والحرص على منع الاعتداء المحتمل عليها من جانب المسلمين باعتبارهم أصحاب السلطة فى البلاد تحت أى ذريعة حتى بناء المساجد) .

** من سأل منهم حقا فبينهم النصًفَ (المساواة أمام القضاء) غير ظالمين ولا مظلومين . (حق أهل الكتاب فى اللجوء إلى القضاء لأخذ حقوقهم حتى من المسلمين لأن الجميع متساوون أمام القضاء وضرورة تحقيق العدل) .

** ولا يجبر أحد ممن كان على ملة النصرانية كرها على الإسلام، ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن (هل يمكن تصور وجود نص على الحرية الدينية أقوى وأوضح وأصرح من هذا ؟!!) .

** ويُخْفَضُ لهم جناح الرحمة ويُكَفُّ عنهم أذى المكروه حيث كانوا وأين كانوا فى البلاد . (ماذا نقول عن المرويات التى تتناقلها كتب التفسير والفتاوى التى تحرم إلقاء السلام على أهل الكتاب يهودا كانوا أم نصارى وتحظر سيرهم فى وسط الطريق أو قعودهم عند قدوم المسلم إلى آخر هذه الآراء التى يبدو أن أصحابها لا يقرأون القرآن ولا يفهمون أحاديث النبى ولا يعرفون من قضية أهل الكتاب فى دولة الإسلام إلا ما يسمونه آية السيف ؟!!! ماذا نقول والرسول نفسه (ﷺ) يقول " ويخفض لهم جناح الرحمة..!!)

** ولهم إن احتاجوا -فى حرمة بيعهم وصوامعهم أو شئ من مصالح أمور دينهم- إلى مساعدة من المسلمين وتقوية لهم على مرمتها (ترميمها يعنى إصلاحها) أن يُعَانوا على ذلك ولا يكون ذلك دَيْناً عليهم بل تقوية لهم على مصلحة دينهم ووفاء بعهد رسول الله " (ﷺ) (وهذا البند يعنى إلزام الدولة الإسلامية بمساعدة النصارى وأهل الكتاب عموما على بناء معابدهم وإصلاحها وأن تكون تلك المساعدة منحة لا ترد وليست قرضا!!!) .

علينا أن نتذكر أن الصليبيين عندما غزوا القدس دمروا جزءاً من المسجد الأقصى وحولوا الأجزاء الأخرى إلى إسطبل ومخزن ومسكن لفرسانهم، وما تبقى صار كنيسة رفعوا عليها الصليب وأن نابليون عندما اقتحم الجامع الأزهر فى بداية " عصر التنوير" الغربى حوله أيضا إلى إسطبل ودخلت خيوله فدنست بيت الله الذى أقيم للصلاة والعلم !!!

وعلينا أن ننتبه إلى أن الأقليات غير المسلمة قد صارت هى النافذة التى تعمل أمريكا والغرب بصفة عامة والصهيونية العالمية بصفة خاصة على النفاذ منها إلى قلب العالم الإسلامى لتقويض بنيان دوله وتفتيتها بإدعاء حماية الأقليات الدينية من الاضطهاد وهى نفس الحجة الاستعمارية القديمة التى توصلت بها دول أوربا إلى تقطيع جثة دولة الخلافة الإسلامية العثمانية.

ويقتضى منا هذا الانتباه إلى ضرورة مراجعة قضية الأقليات الدينية فى دول العالم الإسلامى والاجتهاد من أجل بناء موقف فقهى متكامل[١٤٣] يستند إلى فهم صحيح لمجموع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة الواردة فى هذا الشأن، مع ضرورة مراعاة مقتضيات العصر، ليس من أجل تقديم صورة للإسلام توافق أهواء الغرب بل من أجل الحصول على إجابات إسلامية صحيحة عن إسئلة العصر واضعين نصب أعيننا أن ملايين عديدة من المسلمين ربما تناهز ربع الجسم الإسلامى كله أى ما يزيد على ثلاثمائة مليون مسلم يوجدون على هيئة أقليات فى الدول غير الإسلامية، والعدل يقتضى دائماً المعاملة بالمثل أى الانصاف فكما سنعامل الاقليات غير المسلمة سيعامل الآخرون الأقليات المسلمة!!!

٥- العولمة وتحرير الاقتصاد:

لا نحتاج إلى مجرد الإشارة إلى أن التعليم والإعلام هما الميدانان الأكثر أهمية وخطورة فى حرب التغريب التى تُشَن علينا الآن باسم "العولمة"، لأن المدارس والجامعات والمعاهد ومراكز الأبحاث وأجهزة الإعلام التى تدخل كل بيت مثل الإذاعة والتليفزيون والكمبيوتر (الحاسوب) خاصة مع عصر الثورة التكنولوجية الهائلة فى وسائل نقل المعلومات بالأقمار الصناعية والإنترنت، تلك الوسائل التى يجدها الإنسان فى كل مكان ربما حتى فى أصغر القرى وأكثرها بعدا عن العواصم والمدن الكبيرة مثل الجرائد اليومية والأسبوعية والمجلات ودور السينما والمسارح وأندية الفيديو ومقاهى

الإنترنت وغيرها من وسائل الاتصال ونقل المعلومات . . . نقول إن كل تلك الوسائل والوسائط صارت اليوم هى المصانع التى يتم فيها " تجهيز " العقول البشرية وتشكيلها على النحو الذى يريده صاحب الرسالة الإعلامية، أو هى " المغاسل " التى يجرى بها غسل " أدمغة الجموع البشرية من كل ما لا يريده " المسيطرون " على آلة الإعلام الجهنمية التى تقوم ببناء وتوجيه " الرأى العام " ، فإذا علمنا علم اليقين أن " سوق الإعلام العالمية تحتكرها الشركات العملاقة متعدية الجنسية عابرة القارات والقوى الصهيونية التى تريد محو كل الثقافات " الأخرى " خاصة الثقافة الإسلامية التى تمثل تحديا دينيا (لا هوتيا) / سياسيا للغرب فضلا عن كونها الخصم التاريخى، إذا علمنا كل ذلك أدركنا حجم الحملة التى تشن على الإسلام وثقافته فى شتى تجلياتها حيث يُصَوَّر الإسلام كما لو كان العقبة الكؤود التى تعترض طريق المسلمين إلى النهضة وتحقيق التقدم، واعتبار التمسك بتعاليم الإسلام أو المحافظة على قيم ومعايير الثقافة الإسلامية واحترام اللغة العربية كما لو كانت أعراضاً من أعراض التخلف عن العصر .

وليس فى هذه الحملة العارمة المسعورة على الثقافة العربية الإسلامية من جديد إلا شدة الهجوم وتنوع صيغه وأساليبه وقدرته على " الغزو " الثقافى بفضل الإمكانات التى يتيحها التقدم التقنى (التكنولوجى) فى ميدان الاتصالات وسرعة نقل المعلومات . إنها نفس الحملة أو الغارة القديمة التى صاحبت الغزو الأوروبى .

فلقد حرصت ونجحت السلطات الاستعمارية ومنذ القرن التاسع عشر على " تغريب " التعليم من أجل إنتاج " نخبة " مشبعة بثقافة الغرب ومنفصلة عن ثقافة أمتها، أى أنها نخبة تعانى " فصاما " ثقافيا . وإلى هذه النخبة " مشوهة" الهوية سلمت مقاليد الحكم فى مرحلة ما بعد الاستقلال والتحرر الظاهرى من أغلال الاحتلال لتحقيق أهداف الاستعمار ولكن بأيدٍ " محلية وطنية " !!

والآن فى عصر العولمة فإن الهدف هو " تغريب" الشعوب نفسها على أوسع نطاق

وهو ما يعنى إشاعة التغريب على مستوى الجماهير، وإذا كان التعليم والإعلام يمهدان الطريق للغزو الغربى بتغيير الأنفس، فإن الهدف هو الاقتصاد لأن " العولمة " فى حقيقتها الأولية ظاهرة اقتصادية نشأت من تطور النظام الرأسمالى، أو نظام حرية السوق فى الدول الغربية الذى أفضى إلى تكوين عدد محدود من الشركات العملاقة، بعد تدمير جم غفير من الشركات الصغيرة التى لم يكن أمامها فى حرب التنافس الطاحن المتوحش - التى يشعلها دافع الربح كهدف واحد وحيد - إلاّ الانهيار أو الاندماج فى شركات أكبر.

وهذه الشركات العملاقة نفسها لا تستطيع أن تبقى أو أن تستمر فى الحياة اقتصادياً إلاّ بأن تنفتح أمامها أسواق جديدة على الدوام، ومن ثم فقد صار لزاماً أن تكون الكرة الأرضية بأسرها -أى العالم كله- سوقاً مفتوحة أمام منتجات هذه الشركات دون اعتبار للحدود السياسية للدول القومية ومصالحها أو القيم الثقافية (الدينية / الأخلاقية) للشعوب المختلفة التى قد تمنع أو تقلل من استهلاك بعض أنواع السلع التى لا تتلاءم أو تتوافق معها ، وكذلك دون النظر إلى الاحتياجات " الحقيقية " للشعوب.

فالشئ الهام بل الوحيد الجدير بالمراعاة هو استمرار هذه الشركات العالمية عابرة القارات على قيد الحياة وزيادة نموها وأرباحها، بغض النظر عن أى اعتبار آخر ومن هنا نشأت " العولمة " التى تعنى تحويل الكوكب الأرضى إلى سوق واحدة مفتوحة أمام الشركات متعددة أو متعدية الجنسية، ونشأت معها ثقافة جديدة تلائمها وتمهد لها الطريق بمحو وإزالة كل ما يعترضها من قيم ومعايير تنتجها الثقافات الأخرى " القديمة" التى حان الآن موعد اندثارها . إنها ما يسميه روجيه جارودى" ديانة وحدانيه السوق " التى تعبد المال من دون الله فى الأسواق والبورصات وتَعِد الإنسان بجنة جسدية أرضية زائفة قوامها الشهوات والأوهام التى تتيحها المخدرات !!!.

إن للإسلام نظاماً اقتصادياً ينبنى أساساً على عقيدة أن الله هو مالك كل شئ، ومن ثم فالمال فى الحقيقة هو مال الله وما الإنسان ؛ فرداً وجماعة إلاَ " مستخلفٌ فيه " ولا يحق له التصرف إلافى حدود عقد الخلافة (الوكالة) الذى أبرم بين الإنسان وخالقه منذ القدم فى بدء الخلق عندما قبل الإنسان حمل الأمانه، فليس للوكيل (الخليفة) أن يتصرف خارج إطار الأوامر واللوائح أو التنظيمات التى حددها صاحب المال الأصلى حين منح حق الاستخلاف (الوكالة) للإنسان . وأهم بنود هذه الأوامر واللوائح الواردة فى عقد الخلافة اثنان هما : الأمر بالزكاة والنهى عن الربا .

فأما الزكاة فقد فقدت منذ زمن طويل مضمونها السياسى الجوهرى، كعمل من أعمال السيادة يعبر عن هوية الدولة الإسلامية وفقدت كفاءتها فى إقامة العدالة الاجتماعية ومنع استقطاب (تركز) الثروة فى أيدى قلة من الأغنياء فى مقابل أغلبية ساحقة ومسحوقة من الفقراء، وذلك حين تخلت السلطة فى الدول الإسلامية عن واجبها الشرعى (الرسمى) فى تحصيل (جباية) الزكاة وإنفاقها فى مصارفها الشرعية ، على خلاف ما يقتضى نص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وسلوك الخلفاء الراشدين الواجب الاتباع، حيث انحدرت فريضة الزكاة لتكون مجرد عبادة فردية يقوم بها بعض الأفراد المتقين، إن شاءوا وعلى النحو الذى يتفق مع قدرتهم المحدودة كأشخاص، على معرفة أفضل السبل (المصارف) لإنفاق الزكاة، فلا شك أن الحكومة بأجهزتها الرسمية ستكون أفضل عِلْماً وقدرة من الأفراد على إنفاق تلك الأموال على النحو الذى يحقق أكبر عائد اجتماعى / اقتصادى للأمة.... هذا إن توفرت الإرادة لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية !!!.

وأما تحريم القرآن بل محاربته " للربا " فقد صار كأن لم يكن، لأن " القانون " فى أغلب الدول الإسلامية لا يحظر التعامل بالربا، وقد أقيمت البنوك وانتشرت فى كل أنحاء العالم الإسلامى رغم أن تحريم تعاملات البنوك " الربوية " هوالحكم الفقهى الذى

استقر عليه إجماع علماء الدين، بل ويسارع رجال المال المسلمون وهم من أكبر أثرياء العالم بوضع أموالهم فى البنوك الرأسمالية الغربية " الربوية " فى أمريكا وأوربا من أجل استثمار أموال النفط الطائلة، بل وقد بلغت الغفلة ببعضهم أن كانوا يتعففون عن " أكل " الأرباح الربوية مفضلين ترك الثروات الباهظة وفوائدها الهائلة لأعداء الأمة الإسلامية يتقوون بها على محاربة الأمة الإسلامية، ولا يخفى على أحد أن أكبر البنوك العالمية المسيطرة على اقتصاد العالم تقع تحت السيطرة الكاملة لليهود !!!

ثم قامت مع الصحوة الإسلامية فى الثلث الأخير من القرن المسيحى العشرين بعض البنوك " الإسلامية " التى انتهجت طرقا للتعامل تعتمد أساسا على مفهوم "المضاربة "، التى تعنى المشاركة بين صاحب المال وصاحب الخبرة فى استثمار المال واقتسام الربح أو تحمل الخسارة على النسبة التى يتم الاتفاق عليها مسبقا فى عقد المضاربة، وأخذت هذه البنوك "الإسلامية" تمتص من السوق بعض الأموال التى يرغب أصحابها من المسلمين الأتقياء فى استثمار ثرواتهم طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية.

وسار أمر الاستثمار المالى فى الدول الإسلامية عشرات السنوات على هذا النحو المعبر بدقة وبلاغة عن تشوه الهوية أو الفصام الثقافى، إذ توجد البنوك الموصوفة فقهياً بأنها ربوية بجوار البنوك أو بيوت المال المسماة بالإسلامية جنبا إلى جنب فى تعبير مدهش عن أزمة الهوية التى تعانيها الأمة الإسلامية !!!.

ثم جاءت نهاية القرن العشرين وبزوغ فجر النظام العالمى الجديد وحلول " العولمة " كمضمون (محتوى) اقتصادى / اجتماعى / فكرى (أيديولوجى)، أو فى كلمة واحدة: «ثقافى» لذلك النظام (الشكل) السياسى الجديد لُيطْلَب من علماء الدين المسلمين الكف نهائياً عن وصف البنوك الرأسمالية بأنها " ربوية" ، وإصدار الحكم القاطع بأن تعاملاتها تتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية، وكذلك تعاملات البورصات وأسواق المال، لأنه فى عصر "العولمة " -التى تعنى فرض نظام "السوق الحرة " كرهاً وبالقوة - لم يعد من المسموح به الحكم

أو التعليق من جانب "الآخرين" المتخلفين على مقدسات "العولمة" أى ديانة وحدانية السوق التى تُعد البنوك وأسواق المال والبورصات من أهم معالمها أو معابدها !!

ورغم أن المناقشة التفصيلية لأعمال البنوك ومدى توافقها مع أحكام الشريعة الإسلامية، وكذلك مدى مطابقة أعمال البنوك المسماة بالإسلامية لأحكام الشريعة، رغم أن كل ذلك يخرج بالطبع عن نطاق هذه الدراسة، فإننى يمكننى القول هنا أن تحريم الإسلام ذلك التحريم القاطع المبين لخطورة هذه "الخطيئة" البشعة على الحياة الإنسانية، قد قام فى الأساس - من الوجهة الاقتصادية - على منع تحويل المال (١٤٤) أو بالأحرى "النقود" إلى سلعة يتم المتاجرة فيها بالبيع والشراء، كما يتضح من نص الأحاديث النبوية الشريفة على حظر "بيع الدراهم بالدراهم" أو "الدنانير بالدنانير"، لأن تحويل النقود إلى سلعة يتم المتاجرة فيها مع أنها قد اخترعت أساساً للمبادلة مع السلع بديلا عن المقايضة، إنما يتضمن حتما خطورة زيادة النقود فى الحجم أو الكمية دون زيادة مقابلة فى حجم أو كمية السلع فى السوق، رغم أن الوضع المثالى من الوجهة الاقتصادية يفترض أن تكون كمية أو قيمة السلع مساوية أو مماثلة لكمية النقود أو قيمتها بموجب أن النقود اخترعت أساسا للتبادل مع السلع، لأن "الربا" يعنى ببساطة، بيع كمية من العملات النقدية مقابل كمية أكبر من نفس العملات، وهو ما يتفق مع الدلالة اللغوية للفظ "الربا" الذى يعنى الزيادة (١٤٥)، وهذه الزيادة فى كمية العملات النقدية لم يقابلها زيادة فى إنتاج "السلع" أو الأشياء التى اخترعت النقود لمبادلتها، ومن ثم فالنتيجة النهائية هى زيادة النقود دون زيادة تقابلها فى إنتاج السلع، وهو ما يعنى فى الحقيقة انخفاض قيمة النقود فى السوق لأن كمية أكبر منها صارت تُقَابِلُ أى تتبادل مع نفس الكمية من السلع الموجودة فى السوق دون زيادة، وهو مايعنى بكلمات أخرى : زيادة قيمة السلع، أى ارتفاع الأسعار أو الغلاء، وهو ما يسميه رجال الاقتصاد "التضخم" الذى لا يؤثر بالطبع إلا على الطبقات الفقيرة حيث

تتناقص قيمة ما معها من " نقود " إذ تقل قدرة تلك النقود على شراء السلع التى ترتفع فى المقابل أسعارها ويؤدى التضخم إلى الركود الذى يعنى ببساطة: انخفاض معدل رواج (حركة) السلع أى الانكماش الاقتصادى وتدنى معدل النمو . ويتضح من هذا التحليل المبسط أن الأزمات الاقتصادية كلها تنبع أساساً من " الربا " الذى حول النقود إلى سلعة تباع بسعر أعلى مما تستحق الآن فى السوق عند لحظة إجراء المبادلة !!![١٤٦].

وإذا كانت البنوك " الرأسمالية " لا تفعل فى الحقيقة شيئاً سوى بيع النقود بسعر أعلى مما تستحق أى أنها لا تمارس غير " الربا " كما أوضحنا ، فكيف يمكن وصف تعاملاتها بالمشروعية ؟!!! ومكمن الخطورة فى الربا هو تغيير وظيفة النقود وتحويلها من" وسيلة " لتسهيل تبادل السلع الذى يفضى بالضرورة إلى تنشيط التجارة وبالتالى زيادة الإنتاج السلعى وارتفاع معدل النمو الاقتصادى حيث إن تغيير وظيفة النقود - بتحويلها إلى سلعة تباع بسعر أعلى مما تستحق - يحولها فى النهاية إلى" غاية " تُطْلَبُ لذاتها ويُحْرَصُ عليها أشد الحرص ومن ثم يمهد الطريق إلى عبادة النقود التى نسميها الآن " المال " !!!

فالعبرة - إذن - ليست فى تحديد سعر الفائدة للودائع أو على القروض التى تمنحها البنوك ، بل فى تغيير طبيعة النقود من وسيلة إلى غاية ، فضلاً عن أن تحديد سعر الفائدة للودائع أو على القروض مسبقا إنما يتضمن من الناحية الأخلاقية قدراً من الخداع والأثرة (الأنانية) والكذب والتحايل ، لأن المقرض (البنك ومودع المال) يريد أن يزيد ماله مهما كان موقف المقترض فى مشروعه الاستثمارى ربح أم خسارة !! والمقترض يريد أن يكسب أكثر كثيراً مما سيدفع للبنك ، مما يؤدى حتماً إلى زيادة سعر السلعة (أو الخدمة) التى ينتجها ، والبنك من ناحية أخرى يخفى أرباحه " الحقيقية" عن عملائه المودعين فيه حتى لا يشاركوه فى الربح الوفير الذى حصل عليه من الإقراض بسعر أعلى مما اتفق عليه مع المودعين ، وهكذا يمضى عمل البنك فى " جو " من الكذب

والتحايل والخداع والأثرة وهى سمات أخلاقية سيئة تسمم حياة المجتمع المسلم الذى يريد الله له أن يعيش فى جو من الصدق والصراحة والإخلاص والإيثار، فكيف يمكن وصف تعاملات البنوك الرأسمالية بالمشروعية ؟!!

سؤال نتوجه به إلى مشيخة الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية حيث صدرت مؤخراً فتوى منهما تبيح جميع تعاملات البنوك، وتصفها بالمشروعية، وتزعم أن التحديد المسبق لسعر الفائدة ليس محرماً، بل هو الأقرب إلى العدل والطمأنينة وضمان الحقوق ؟!! (راجع مقال ما هو الربا ولماذا حرم بالهامش رقم (١٤٦).

والسؤال الأهم هو: لماذا تصدر هذه الفتوى من هذا المرجع الدينى صاحب التاريخ المشهود والتأثير البالغ فى كافة أرجاء العالم الإسلامى فى هذا الوقت بالذات ؟!! ما الذى " دفع " الأزهر الآن إلى إصدار هذه الفتوى التى تخالف ما استقرت عليه فتاوى الأزهر نفسه السابقة فى " عهود " أخرى، وكذلك فتاوى المراجع الدينية الإسلامية الأخرى فى أنحاء العالم الإسلامى ؟!!

أليست هى " العولمة " التى تريد فرض نموذج الاقتصاد الرأسمالى (الليبرالى) الغربى على العالم كله ؟!!

إن تجارب " التنمية " الاقتصادية فى المجتمعات الإسلامية هى الشواهد الأقوى والأبلغ دلالة عى كارثة فقدان الهوية المفضى حتما إلى التبعية للغرب، التى تؤدى بدورها إلى استمرار التخلف بدلا من النهضة واللحاق بركب التقدم، لأن بداية الخطأ أو أصل الخطيئة التاريخية يكمن فى اختيار النموذج الغربى (الأوروبى / الأمريكى) مثلاً أعلى للاهتداء به مع الغفلة التامة أو التعامى عن الشروط التاريخية الضرورية التى توفرت للغرب عند قيامه بالنهضة، والتى من المحال توفرها للعالم الإسلامى مثل " النهب الاستعمارى " الذى قدم للأمم الغربية فرصة لن تتكرر أبداً للحصول على طاقة

وأيدٍ عاملة رخيصة - إن لم تكن مجانية - وأسواق مفتوحة بقوة السلاح مما ساعدها على إنجاز التنمية بنجاح ميسور لن يتحقق أبداً لبلدان العالم الإسلامى، حيث لا يمكن فصل تجربة الاستعمار وما تولد عنها من استنزاف لثروات البلاد المحتلة عن مجمل التجربة الغربية فى التنمية.

وعندما شرعت دول العالم الإسلامى ضمن دول العالم الثالث فى القيام بتنمية اقتصادها بعد الاستقلال فى منتصف القرن العشرين تقريبا، فإنها اتخذت من النموذج الغربى قدوة تحتذى، فاندفعت فى خطط " طموحة " للتصنيع الذى بدا لها حينذاك كأنه كلمة " السر " فى النهضة وإحراز التقدم، وأرادت نظم الحكم فيها أن " تتباهى " بمشروعات صناعية عملاقة تضاهى الموجود فى الدول المتقدمة.

ولكن هذه المشروعات تتطلب تمويلاً وتقنية لا تملكها تلك الدول الخارجه تواً من أغلال الاحتلال العسكرى لأراضيها فلم يكن أمامها طريق سوى الاقتراض؛ اقتراض المال والتقنية وهذه بالضبط هى الخطة الغربية المحكمة لإعادة " استعمار " البلدان المستقلة، ولكن من خلال التبعية الاقتصادية عبر أغلال القروض والافتقار إلى التقنية. وهكذا أبرمت العقود وعقدت الاتفاقيات التى ربطت تلك البلدان حديثة الاستقلال بحبال التبعية للدول الغنية المتقدمة.

وإذا كانت فوائد القروض الربوية التى منحتها الدول الغنية، أو المؤسسات الدولية الخاضعة لها بالكلية تزيد على معدل النمو الاقتصادى المتوقع فى حالة نجاح المشروعات فإنه من المحال عقلاً - أى بحساب الأرقام وحدها - تحقيق أى نهضة بالمفهوم الاقتصادى الغربى لأن أعباء الديون تزيد على معدل التنمية.

فى تلك المرحلة من التاريخ أعنى منتصف القرن العشرين كان جميع الأطراف؛ الدول المتقدمة الغنية والمؤسسات المالية الدولية والدول حديثة الاستقلال، كان الجميع يرحبون بدور قوى متزايد للدولة للتدخل فى إدارة الاقتصاد حيث كان المطلوب من

الجانب الغربى جهة رسمية واثقة من نفسها تتولى التوقيع على الاتفاقات وعقود القروض التى تضمن استمرار التبعية، أما الآن فى عصر العولمة حيث أصبح فتح أسواق الكوكب الأرضى مسألة حياة أو موت بالنسبة للشركات العملاقة عابرة القارات واقتصادات الدول الغربية الغنية، فإن الجميع صاروا يعلنون اتفاقهم على حتمية كف يد الدولة عن التدخل فى شئون الاقتصاد، واعتبار أن هذا التدخل خطيئة اقتصادية لا تغتفر لأن التدخل يعنى حماية المنتجات المحلية وقفل الأسواق أمام منتجات الدول الغنية بالإجراءات السياسية مثل الضرائب والجمارك والدعم المقدم للصانع أو الزارع المحلى .

وهكذا انقلبت النظريات الاقتصادية المفترض أنها " علمية " !! من النقيض إلى النقيض لتعبر فى جميع الأحوال عن وجهة نظر الغرب المتقدم الذى تنساق النخب المحلية التابعة له فى ترديد " نظرياته " كما لو كانت الحق الذى نزل به روح القدس !!!

أو كما قال الدكتور / جلال أمين " والذى أرجوه من وراء ذلك أن يتضح للقارئ بدرجة أكبر مما كان واضحاً من قبل ، كيف أن كثيراً مما يعتبر " علماً فى الاقتصاد هو أقرب إلى أن يكون تعبيراً عن مذهب أو أيديولوجية . بعبارة أخرى إن كثيراً مما يعتبر نظريات علمية فى موضوع التنمية الاقتصادية ليس إلا أقنعة تختفى وراءها الوجوه الحقيقية . هذه الوجوه الحقيقية ليست إلا مصالح خاصة وأهواء وتحيزات[١٤٧] .

وهى نفس النتيجة التى وصل إليها" روجيه جارودى " فى كتابه " أمريكا طليعة الانحطاط " معلقاً فى سخرية على " الدجل العلمى " الذى يتظاهر به رجال الاقتصاد حين يتخفون وراء المعادلات الرياضية والأرقام فقال " إنها مجرد عمليات حسابية تعطى قناع العلم لمذهب أيديولوجى فى مجال الاقتصاد "

نخلص مما تقدم إلى الحقائق الآتية :-

** " العولمة " تعنى فرض نظام اقتصاد السوق الحرة على العالم بأسره وهى مجرد

مذهب فكرى أو أيديولوجية، وليست علما متفقا عليه أو مفروغا من صحته .

** إن اقتصاد السوق الحرة المفروض باسم العولمة يطلب إلغاء جميع إجراءات الحماية للمنتجات المحلية بزعم تحرير وتشجيع التجارة العالمية، ومن ثم فهو يأمر الاقتصادات الضعيفة أن تدخل حلبة المصارعة ضد الاقتصادات القوية ... فماذا ستكون نتيجة مصارعة الضعفاء للأقوياء ؟!

** النتيجة المحققة هى دمار الضعفاء وتوقف نشاطهم لصالح الأقوياء وهذا بالضبط ما يريده الغرب المتقدم وشركاته العملاقة متعدية الجنسية وعابرة القارات .

** الإدعاء بأن الرأسمالية الليبرالية الغربية قد انتصرت مذهبيا (أيديولوجيا) إلى الأبد بغير رجعة مجرد كذبة كبرى يرددها أبواق الغرب، ويفضحها أن أغلب الشعوب ماتزال تقاومها بشدة؛ بدليل أن سياسات العولمة لا تفرض إلا بالقوة وعبر الضغوط السياسية من المؤسسات الدولية (صندوق النقد الدولى) المعبرة عن مصالح القوى الغربية الكبرى وأحيانا بالعنف عبر الانقلابات العسكرية التى تدبرها المخابرات الأمريكية، وفنزويلا هى المثل الأحدث فى هذا الصدد .

يقول الأستاذ الدكتور / رفعت العوضى " إن العالم لم يسلم بصحة الرأسمالية .... وإلحاح المنظمات الدولية على فتح البلاد أمام التجارة العالمية هو إعلان عن إفلاس الرأسمالية كنظام جاذب للشعوب من تلقاء نفسها "(١٤٨) .

** إن الإدعاء بترك الاقتصاد يجرى طبقاً لآليات السوق الحرة دون تدخل من الدولة هو أيضاً مجرد أكذوبة كبرى، أو أسطورة ينطق بها الغرب، وترددها أبواقه ويفضحها تدخل الإدارة الأمريكية، على سبيل المثال، لحماية الشركات الأمريكية واستخدام النفوذ الأمريكى السياسى لفوز الشركات الأمريكية بالصفقات العالمية وتدعيم المزارع المحلى لحماية منتجاته من منافسة الواردات الأجنبية، بل إن أمريكا تشن

الحروب من أجل جلب مشروعات لشركاتها وعقد صفقات ناجحة!! وما تفعله أمريكا تفعله أيضاً الدول الأخرى، فماذا يعنى صدور " الأوامر " إلينا بمنع تدخل الدولة وترك الأمور تجرى فى أعنتها؟!!.

** إن الرأسمالية الغربية تحمل فى باطنها جراثيم دمارها، كما يعترف أكبر الباحثين الغربيين علماً وأعمقهم رؤية ففى كتاب " تقرير لوجانو "(١٤٩). يحدد هؤلاء الباحثون الغربيون عدة مصادر للخطر تهدد النظام الرأسمالى من أعماقه، وكلها صادرة عن قلب هذا النظام نفسه الذى يجعل من تحقيق أكبر ربح ممكن هو الغاية العليا، وهذه المصادر يمكن إيجازها فيما يلى :-

١- تدمير البيئة الذى يفضى إلى تدمير الإنسان وإفناء الحياة نفسها على الأرض بسبب الإسراف الشديد فى استعمال التقنية، والإساءة إلى البيئة بسبب جشع الإنسان إلى جمع المال كإحراق الغابات على سبيل المثال وهكذا أصبحنا نتحدث عن تلوث البيئة وتغيير المناخ وغيرها من الأخطار التى تهدد بانقراض الكائنات الحية على الأرض.

٢-زيادة تركيز الثروة فى أيدى قلة قليلة وزيادة مساحة الفقر ليشمل قطاعات أوسع من السكان، سواء على مستوى العالم ككل أو على مستوى الوطن، مما يؤدى بالضرورة إلى زيادة التوترات والاضطرابات الاجتماعية التى تفضى إلى ثورات تقوض النظام الرأسمالى من أساسه . فإن توحش الرأسمالية فى عصر العولمة يؤدى إلى زعزعتها وينذر بزوالها .

٣- إن النظام الرأسمالى بصورته " الربوية " الراهنة يتضمن ما يسمى " بسوق الأوراق المالية، حيث يتم تحويل قيمة السلع وأصول الشركات إلى " أسهم "يتم تقديرها بالنقود، مما يعنى فى النهاية تحويل السلع والأشياء بصفة عامة إلى نقود، أى تغيير طبيعتها اقتصاديا إلى عملات نقدية يتم المتاجرة بها، وباستخدام أساليب أو بالأحرى ألاعيب " شيطانية يتم التلاعب فى أسعار هذه " الأسهم "(= العملات النقدية)، فيتم

رفع سعر بعضها أو خفضه دون أى مبرر " حقيقى " تحت تأثير إشاعات يطلقها أصحاب المصلحة فى رفع أو خفض سعر بعض الأسهم، وبإطلاق دعاية سيئة والتلاعب بأعصاب المستثمرين الذين " يخزنون " أموالهم فى هذه الأسهم أو الأوعية الورقية، وهنا يأتى دور الإعلام الخاضع تماماً بكل أجهزته - ذات التأثير البالغ فى تكوين الرأى العام - لسلطة ونفوذ الشركات العملاقة وكبار رجال المال .

وهكذا يمكن أن يفوز البعض بأرباح طائلة لا تخطر على عقل أحد أو تحدث انهيارات للشركات، بل ولبعض الاقتصادات الوطنية كما حدث لدول جنوب شرق آسيا المسماة " بالنمور الآسيوية " بسبب " التلاعب " فى أسعار أسهم الشركات، وكل ذلك يحدث دون أدنى علاقة بالعمل الاقتصادى الحقيقى المتمثل فى إنتاج السلع .

هكذا يحصل البعض على أرباح مذهلة دون أن يفعل أو ينتج شيئاً على الإطلاق، ودون أن تزيد " السلع " الحقيقية المُنْتَجَةَ العاملة فى السوق، كما يعانى البعض الآخر من انهيارات تحكم عليهم بالموت الاقتصادى (التوقف عن النشاط الإنتاجى) أو حتى بالموت الحقيقى عندما يضطرون إلى الانتحار يأساً من إصلاح ما دمرته البورصة أو سوق الأوراق المالية التى تمثل - بهذا الفهم - أبشع صورة للربا الذى تقوم عليه الرأسمالية الغربية .

إن حجم الأموال (النقود) الهائلة التى يتم تبادلها فى سوق الأوراق المالية على مستوى العالم مذهل حقاً، حتى لعقول رجال الاقتصاد المنغمسين بحكم مهنتهم فى السوق حيث يناهز مئات المليارات من الدولارات يومياً، ويمكننا بالتالى الإحساس بشدة الاهتزازات والاضطرابات التى تحدثها هذه الآلة الشيطانية الربوية المسماة بسوق الأوراق المالية فى حياة الملايين من البشر كل يوم، مما دفع الخبراء على مستوى العالم حتى المتشيعين منهم لنظام حرية السوق إلى اعتبار هذه " الآلة الجهنمية " أحد أهم مصادر التهديد للنظام الرأسمالى كله .

٤- إن اعتبار تحقيق " الربح " الغاية العليا الوحيدة من النشاط الاقتصادى - وهذه هى

فلسفة النظام الرأسمالى أى أساس وجوده - سوف يشجع الكثير من رجال المال إلى الاستثمار فى مجالات الخطيئة، مثل تجارة المخدرات بكافة أنواعها، وتجارة البغاء (الدعارة) وتجارة الأسلحة والتهريب وغيرها مما يقع تحت ما يمكن تسميته " برأسمالية العصابات " ولا نحتاج إلى مجرد الإشارة إلى الأخطار المدمرة التى تصيب الإنسان من زيادة نشاط هذا النوع من الرأسمالية الشريرة، ولكن ما يهم الخبراء هنا هو أن هذه الأنواع من النشاط الإجرامى سوف تجذب المزيد من الأموال (النقود) الباحثة عن الزيادة أى الربح دون نظر لأى اعتبار آخر، ومن ثم يبرز خطر حرمان الأنشطة الاقتصادية القانونية المشروعة من التمويل اللازم لها لذهابه إلى الأنشطة غير القانونية...

هذا الخطر يظل قائماً ما دامت فلسفة " الربح " تبقى سائدة، ولا يخفى على أحد أن تجارة السلاح وتجارة المخدرات هما أكبر نشاطين رأسماليين، ويستحوذان على نصيب الأسد من حجم النقود المستثمرة فى التجارة العالمية، وليس للسلاح والمخدرات من عمل إلا تدمير الإنسان بالموت والمرض !!!.

إن الرأسمالية الغربية فى طورها المتوحش المسمى " بالعولمة" تتطلب حكومات "عميلة" للشركات العملاقة حيث تكون وظيفة السلطة السياسية العلنية - حتى على مستوى رؤساء الجمهوريات ورؤساء الحكومات - مجرد تنفيذ تعليمات أصحاب تلك الشركات عابرة القارات، وتحقيق مصالحهم عبر اتخاذ القرارات السياسية السيادية التى تتلاءم مع تلك المصالح، وإلاَّ فتأليب " الرأى العام " عبر وسائل الإعلام الخاضعة لنفوذ أصحاب تلك الشركات، وما ينتج عن هذا " التأليب " من تقليب وقلقلة للأوضاع السياسية عبر المظاهرات والاضرابات والاعتصامات وأعمال العنف، بل إن "إحداث " انقلاب عسكرى على السلطة الحاكمة فى الدول " المارقة " يكون أحد الحلول التى يمكن اللجوء إليها بقلب هادئ، وعقل بارد .

وبالطبع فإن مفهوم " الوطن " أو الدولة القومية : وما يرتبط به من مفاهيم ثقافية

أخرى ... كل ذلك معرض للتآكل والمحو فى البلدان التى ستكون هدفاً لحملات "العولمة" التى لا تعنى - فى حقيقتها - سوى اسم جديد لجوهر الاستعمار القديم بكل أساليبه ولكن بإمكانات القرن الحادى والعشرين .

إننا - إذن - بصدد فوضى عالمية جديدة تخطط لها الشركات العملاقة وتقوم بتنفيذها حكومات الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، وهى خطط لا تجد أى غضاضة فى الحديث عن " استراتيجية الحد من السكان " (١٥٠) ؛ الاسم الجديد لإبادة الإنسان فى البلدان المتخلفة غير الغربية، وتدور المناقشات حول كيفية الخلاص من أربعة مليارات نسمة بحلول عام ٢٠٠٨ أو ٢٠٢٠ ، حتى يظل عدد سكان العالم ثابتا عند أربعة مليارات نسمة، وهو العدد الذى يجده الخبراء مناسبا تماماً طبقا للإحصاءات والمعادلات لاستمرار الزيادة فى معدل النمو الاقتصادى على مستوى العالم الذى تقوده الشركات الكبرى متعدية الجنسية .

أما وسائل الحد من السكان أى طرق الإبادة فتبدأ بوسائل منع الحمل وإباحة الإجهاض، ولا تنتهى بإشعال الحروب وإثارة النزاعات الطائفية !!! أو كما قالوا " إن استمرار تزايد السكان بهذه النسبة المرتفعة يهدد استقرار الحضارة الغربية، ويقضى على الرأسمالية ويقوض أساسها النظرى والتطبيقى معا، ولذلك فلكى تنجو الرأسمالية وتنجو العولمة لابد من إيقاف هذه الكارثة (زيادة السكان) بكل الوسائل الأخلاقية وغير الأخلاقية ، المشروعة وغير المشروعة "(١٥١).

ومن نافلة القول أن نذكر بأن الكارثة التى يتحدث عنها التقرير تنتج فى العالم غير الغربى، وأن كل الوسائل ستتجه إلى هذا العالم غير الغربى، وفى القلب منه يوجد العالم الإسلامى، ولذلك فقد اعتبر كل المخططين والمراقبين الغربيين أن تخفيض عدد المسلمين (سكان العالم الإسلامى) هدفا استراتيجيا، وذكروا أن من أسباب الصدام بين

الغرب والإسلام أو بالأحرى من أسباب " الرعب "الغربى من الإسلام زيادة عدد سكان العالم الإسلامى .

" زيادة معدل النمو " هو المعيار الوحيد للنجاح الاقتصادى من وجهة نظر الرأسمالية الغربية وهو معيار أعمى يعجز عن رؤية الإنسان، وعن النظر إلى احتياجاته الحقيقية فزيادة معدل النمو الاقتصادى بشركات التدخين أو حتى شركات الأدوية لا يدل أبدا على أن الإنسان قد صار فى حالة أفضل ! ! ولذلك فإن البشرية جميعا فى أمس حاجة إلى نظرية جديدة فى الاقتصاد والتنمية تكون أكثر إنسانية، ويقدم الإسلام عن جدارة بعقيدته وشريعته هذه الأيديولوجية الإنسانية المنشودة .

إن المفهوم القرآنى لخلافة الإنسان على الأرض الذى يجعل من الإنسان وكيلا عن "الله" الخالق (سبحانه وتعالى) فى إدارة شئون هذا الكوكب يعطى هذا المخلوق الكرامة والسيادة والمنزلة العليا فوق سائر المخلوقات التى يستحقها بموجب نفخة " الروح " التى منحها الخالق له، وفى نفس الوقت يضبط سلوكه على الأرض بشروط عقد الخلافة إذ لا يُسْمَحُ للوكيل بمخالفة شروط من أَوْكَلَه .

وبتحقيق هذا المفهوم على الأرض يتم الوقاية والعلاج من كل الشرور والمفاسد التى نتجت عن تكبر الإنسان بغير الحق، ولا تصير " الطبيعة " مجرد مخزن للطاقة ومدفن للنفايات - كما يقول روجيه - جارودى - بل تصبح نعمة كبرى - أو بالأحرى - مجلى لنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى سخرها الله بفضل جوده ورحمته لخدمة الإنسان الذى يجب عليه شكر النعمة برعايتها والمحافظة عليها .

وبفرض " الزكاة " يتم الوقاية من استقطاب الثروة وزيادة الفجوة بين الأغنياء والفقراء، فيحفظ المجتمع الإنسانى نفسه من التوترات والاضطرابات الاجتماعية والسياسية التى يفضى إليها سوء توزيع الثروة، ويتحقق العدل الاجتماعى الممكن فى عالم يحركه التنافس على أرض جُعِلَتْ للابتلاء .

وبالإيمان بأخوة جميع البشر وتساويهم فى الأصل ؛ حيث إنهم جميعا من آدم الذى جاء من التراب بنفخة " الروح " الذى يسرى فى جميع البشر ؛ وتساويهم فى المصير حيث يقفون جميعاً أمام الله للحساب ... بهذا الإيمان تتطهر الإنسانية من كل مظاهر العنصرية . وبمحاربة الربا تنتهى الأزمات الاقتصادية التى أسلفنا الإشارة إليها ، والتى تتكرر فى دورات متعاقبة تحطم حياة الملايين من البشر من حين إلى آخر باستمرار !!!.

إن الإسلام هو أيديولوجية المستقبل الذى يقدم البديل الإنسانى عن الايدلوجية الشيوعية التى باءت بالفشل ، وعن الأيديولوجية الرأسمالية التى ستفشل لا محالة لأنها تحمل جراثيم انهيارها فى باطنها المظلم ، وستلفظها الإنسانية كما لفظت الشيوعية من قبلها .

والسؤال : من يحقق هذه الأيديولوجية الإسلامية الإنسانية على الأرض ويجعل من مُثلُها وقيمها ومعاييرها واقعاً مشهوداً فى حياة الناس ؟! من يحمل على عاتقه تقديم "النموذج الإسلامى" ليكون سراجا يُهتَدَى به وأسوة حسنة يُقْتَدَى بها ؟!

والإجابة هى الأمة الإسلامية التى جعلها الله وسطاً للأمم ، واتخذ منها الشهداء على الناس ولكنها لن تستطيع أن تحمل الرسالة وتؤدى الأمانة إلا إذا تشبثت بهويتها واستنقذت نفسها من براثن التغريب الذى يأتى اليوم باسم " العولمة " ، والخطوة الأولى التى ليس قبلها طريق هى رفض النموذج الغربى للتنمية ورفض اعتباره الطريق الوحيد المتاح أمام البشر ، لأن الحقيقة تقول : إن البشر مختلفون من حيث " هوياتهم " الثقافية وأنه من المستحيل فرض نموذج واحد على كل الأمم فضلا عن أن هذا النموذج ليس بالفعل هو الأفضل ، إذا امتحناه بمعايير إنسانية عامة مشتركة ، أو نظرنا إليه بعقل نزيه متحرر من التحيزات المسبقة والأهواء الخاصة .

إن أمام الأمم المختلفة طرقا مختلفة لتحقيق ذواتها وإنجاز نهضتها ومن ثم فعلينا نحن المسلمين أن نختار طريقنا ... الطريق الذى ترشد إليه ثقافتنا ونحقق به ذاتنا

الحضارية، ومن ثم فإن الشرط الجوهرى الواجب توفره منذ البداية لتحقيق النهضة ؛ التنمية الحقيقية هو الخلاص من التبعية . . . من الإحساس بالدونية أو الشعور بالعار إزاء الغرب بتعبير الدكتور / جلال أمين وهذا هو الاستقلال الحقيقى، ولكن رفض محاكاة الغرب أى تقليده تقليداً أعمى يفرض علينا أن نجتهد لإبداع طريقنا وإذا كنا قد بينا أن الرؤية الإسلامية الحقيقية ترفض " الربا " الذى تقوم عليه الرأسمالية الغربية المعاصرة بكل ما صدر عنه من صيغ ومؤسسات مثل البنوك وسوق الأوراق المالية، فإن هذا يوضح لنا إلى أى مدى يجب أن يمضى ويتقدم اجتهادنا حتى نبدع الصيغ والمؤسسات التى تتحقق بها هويتنا . إننا فى حاجة حقيقية إلى عقول جديدة يضيئها الإيمان برسالتها تستطيع أن تقدم باجتهادها إجابة الإسلام عن أسئلة العصر .

إن " المشروع الحضارى الغربى " هو عدونا التاريخى . هذه هى الحقيقة الدامغة فى الماضى والحاضر والمستقبل . فى العصور الوسطى جاءت الحملات الصليبية . وفى العصر الحديث جاءت الحملات الاستعمارية . وفى عصرنا الراهن تأتى حملات "العولمة" والنضال من أجل القيم الليبرالية الأمريكية وإعادة تشكيل الخريطة من أجل النظام العالمى الجديد، وما لم نتنبه إلى هذه الحقيقة الدامغة سيضيع منا الطريق .

إن الزعم بأننا نحتاج إلى الغرب لكى يمدنا بالتقنية العالية وأحدث ما وصل إليه العلم هو مجرد وهم يبرر به " التغريبيون " تبعيتهم .

أولا :- لأن الغرب لا يعطينا إلا بالقدر الذى يؤدى إلى استمرار تبعيتنا له فقد شجع ما سُمِّى بخطط التنمية الاقتصادية من أجل تغريب أنماط الاستهلاك عند شعوبنا حتى تصبح بلادنا سوقا رائجة لمنتجاته، وعلى سبيل المثال : هل كنا فى حاجة ماسة إلى شرب الكوكاكولا أو تدخين السجائر من أجل إنجاز التنمية وتحقيق النهضة؟ ، هل يمكن تصور استمرار مصانع السيارات الأوروبية دون وجود طرق مرصوفة فى بلادنا ؟!

ثانيا :- إننا وصلنا إلى مرحلة يمكننا فيها إبداع تقنياتنا الخاصة، فلدينا من

الكوادر العلمية رفيعة المستوى ما يمكننا من إبداع تقنياتنا وإذا تذكرنا عدد العلماء والخبراء المسلمين المهاجرين إلى أوروبا الغربية وأمريكا لأسباب ترجع كلها إلى فساد النظم السياسية والإدارية - وهؤلاء هم الذين يقودون أعلى مراكز البحث العلمى هناك فى الغرب - إذا تذكرنا هؤلاء وإمكانية رجوعهم إلى بلادنا إذا وفرنا البيئة الصالحة أدركنا كم نظلم أنفسنا !!!

ثالثا :- أعتقد أنه من العبث فى عصر الجات وقانون الملكية الفكرية والتحكم الشديد فى تصدير التقنية من العبث الحديث عن اقتباس ثمار التقنية الغربية .

رابعا :- لسنا فى حاجة حقيقية إلى أحدث ما أبدعه الغرب من تقنية، لأن حاجتنا الحقيقية لا تكون إلا إلى التقنية التى تناسبنا وتتواءم مع ظروفنا، فإذا كان الغرب يتجه إلى الميكنة الكاملة للمجتمع التى تفضى بالضرورة إلى الاستغناء عن الكثير من العمال ولذلك تصبح البطالة بكل ما تعنيه من اضطراب اجتماعى وسياسى هى إحدى ثمار النموذج الغربى للتنمية، فإننا على العكس يجب أن نتجه إلى مشروعات أقل مستوى فى التقنية (الميكنة) وأعلى كثافة فى العمالة، لأننا فى حاجة حقيقية إلى منع البطالة ولأننا نؤمن بأن العمل والكد فى سبيل الرزق واجب دينى يحقق مغفرة الذنوب، فضلا عن أنه حاجة نفسية ووسيلة لاكتساب ضرورات المعيشة .

التنمية الحقيقية هى تأكيد قيم ثقافتنا الإيجابية، وهذا هو التحرر الحقيقى أو جوهر الحرية ، إن طريق التحرر الحقيقى ليس مفروشا بالورود فى دنيا جعلها الله للابتلاء، فإن السير فيه يتطلب جهدا واجتهادا ، وجهاداً لأن الغرب لن يقف مكتوف اليد وهو يرى " أتباعه " يريدون التحرر من أغلاله «ولا يستطيع مواجهة ومجابهة الشركات العملاقة متعددة الجنسيات التى تحكم العالم من وراء حجاب الحكومات الغربية والمؤسسات الدولية إلا نظم حكم قوية ديمقوقراطية مرتبطة بأهداف شعبها»(١٥٢) .

ولكن من المؤكد أن ليس فى وسع دولة واحدة بمفردها أن تقاوم حملات العولمة الكاسحة، ولذلك فإن من أوجب الواجبات إعادة الحياة إلى الأمة الإسلامية الواحدة التى مزقها أشلاء متنافرة الأبناء والأعداء على السواء !!! .

(٣)

التمزيق السياسى تحدى الوحدة الإسلامية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (سورة الأنعام ١٥٩)

عندما صدع النبى (ﷺ) بأمر الله، ودعا قبيلة قريش ومن حولها من العرب إلى توحيد الإله وإفراد " الله " وحده بالعبادة وترك الإشراك (تعدد الآلهة) والوثنية وما يرتبط بذلك من عبادات وعادات وشرائع ونظم اجتماعية وسياسية واقتصادية فإن العرب رفضوا - فى البداية - الدعوة، وتمسكوا بتراث آبائهم محافظين على " طريقة الحياة التى ورثوها أى تسلموها من أسلافهم، بما تحمله تلك الطريقة من (رؤية) خاصة للكون والإنسان رافضين تغيير رؤيتهم (عقيدتهم) وأسلوبهم فى ممارسة الحياة، وعبَّر القرآن العظيم عن موقفهم هذا بقوله ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (١٥٣) .

ولم يكن هذا الجواب من كفار قريش بدعا من إجابات الأمم السابقة لدعوات رسلهم، ولذلك واسى الله (سبحانه وتعالى) رسوله (ﷺ) مذكرا إياه بما قاله المترفون فى كل العصور عندما جاءهم النذير الإلهى بلسان الرسل السابقين ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (١٥٤) .

وبهذا بين أن الاهتداء يعنى الاقتداء بمن يوضع فى مقام الأسوة أو المثل الأعلى الذى يجب أن يُحتَذَى، ولكن ما نريد أن نلفت النظر إليه هنا أن لفظة " أمة " تعنى بلا جدال طريقة خاصة متميزة عن غيرها من الطرق فى ممارسة الحياة تعبر عن " رؤية " خاصة للكون ولدور الإنسان فيه أو بكلمات أخرى أسلوب فى المعيشة يعبر عن وجهة نظر أو

عقيدة . وهو المعنى الذى أكده القرآن الكريم فى مواضع كثيرة مثل قوله﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾(١٥٥).

«شِرْعَةً : " مبادئ عامة ومعايير (قيم) ثابته يُحْتَكَمُ (يُرْجَعُ) إليها عند الفصل فى القضايا وتقدير الأمور التى تعرض للناس فى شئون حياتهم الدنيا وتقرير الأحكام على الأعمال.

" منهاجاً " : طريقاً لإنزال المبادئ العامة والمعايير (القيم) الثابتة على وقائع المعيشة المتغيرة، فالمنهاج هو أسلوب تحقيق المبادئ وتطبيق (تجسيم) القيم على أرض الواقع فى صور مشهودة . وفى كلمات أخرى فالمنهاج هو طريقة تنفيذ الشرعة ومن ثم تتنوع المناهج (الأساليب) لنفس الشرعة .

أ - ما معنى أمة ؟

وتبين الآية أن الناس يختلفون فى شرائعهم ومناهجهم وبهذا الاختلاف ينقسمون إلى أمم متميزة ﴿ ولو شاء الله لجعلكم ﴾ أيها الناس ﴿ أمة واحدة ﴾ يعنى على شرعة واحدة ومنهاج واحد أى على مبادئ وقيم واحدة وأسلوب واحد فى ممارسة الحياة ولكنه (سبحانه وتعالى) لم يشأ ذلك، ولذلك قال ﴿ ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ يقصد ليمتحن كل أمة منكم فيما أنزل عليها من أوامر ونواه تضمنتها رسالة الله إليها بما تحمله من " شرعة ومنهاج "

إذن فاختلاف البشر إلى أمم متميزة إنما هو على سبيل الابتلاء (الامتحان) الذى من أجله أتى الإنسان إلى هذه الدنيا، ولذلك سيظل الناس مختلفين ما دامت الدنيا قائمة وهى الحقيقة التى صرح الله بها فى قوله (سبحانه وتعالى) : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (١٥٦).والاختلاف هنا يعنى مخالفة رسالة

الله بترك أوامره وارتكاب نواهيه، وهو ما يعنى مخالفة النموذج (المثل) الذى يحبه الله للإنسان ولذلك قال : ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٥٧).

والإشارة فى قوله " ولذلك " إلى الاختلاف والمقصود أنه من أجل أن يختلفوا أى يتميزوا وتتنوع هيئاتهم واستجاباتهم لرسالة اللّه إليهم " خلقهم " لأن فى اختلافهم كشف وتجلية لأسماء الله الحسنى بإظهار ما استودع (استُبطِن) فى نفوسهم من علم الله.

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٥٨).

ومما تقدم نستطيع أن نفهم قول الله (سبحانه وتعالى) واصفاً خليله إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٥٩).

"كان أمة " : كانت حياته تمثل طريقة متفردة فى طاعة الله تعبر عن عقيدة صافية خالصة فى وحدانية الله، إذ جَسَّمت حياته معنى " الهجرة " الدائمة إلى الله ... السفر الدائم الأبدى من الظلمات إلى النور، ومن ثم فقد كان الأسوة الحسنة لجم غفير من البشر وجدوا فى حياته السراج الذى أضاء لهم الطريق إلى الله والقدوة التى يجب احتذاؤها، ولذلك فقد أثمرت حياته مالا يحصى من المؤمنين ومن هنا يصح وصفه (عليه الصلاة والسلام) بأنه " كان أمة ".

والأمة إذن : تعنى : جماعة من الناس يوحِّد بين أفرادها " دين " يؤمنون بعقائده ويلتزمون بعباداته وتشريعاته، ومن ثم فهو يصبغ حياتهم الاجتماعية فى شتى تجلياتها بصبغته الذاتية، يعنى فى كلمة واحدة يعطى الجماعة البشرية " هويتها " الحضارية التى تجعل منها أمة أى جماعة لها رؤيتها الذاتية للكون وطريقتها الخاصة المتميزة فى ممارسة الحياة، فالدين - بمعناه العام وبما يتضمنه من عقيدة وعبادة وأحكام اجتماعية وضوابط

أخلاقية - هو واهب الهوية الحضارية للجماعة البشرية، وصانع التاريخ لأنه قلب الثقافة الذى تكمن فيه بذرة الحضارة التى لا تعنى فى النهاية سوى طريقة خاصة متميزة فى ممارسة الحياة تعبر فى الواقع المشهود عن عقيدة أى رؤية ذاتية للكون .

إن الإنسان كائن اجتماعى بموجب طبيعته المادية (الأرضية أو الجسدية)، حيث لا يُتَصَور عقلاً إمكانية وجود بشرى على هذه الأرض دون العيش فى جماعة إذ يستحيل على الإنسان أن يحيى منفرداً، لأن إنتاج فرد واحد من الإنسان يحتاج - لمجرد أن يخرج إلى الوجود - إلى زوجين من البشر ؛ ذكر وأنثى، أما استمراره فى الحياة فيحتاج إلى جهد جم غفير من بنى الإنسان . وهذا الاحتياج الحتمى المادى إلى الحياة الجماعية أو العيش فى جماعة حقيقة كونية تشمل كل الكائنات الحية وإليها أشار القرآن الكريم حين قال ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾(١٦٠).

"أمم" : جماعات يوحد بين أفراد كل جماعة منها طريقة خاصة من طرق الحياة أو أسلوب متميز فى ممارسة المعيشة وتلك الطريقة أو ذلك الأسلوب يميز كل جماعة عن غيرها من الجماعات أى يجعل منها نوع أو جنس أو كيان قائم بذاته ومن هنا يصح تسمية أى جماعة منها بأنها "أمة" ، وهى فى هذا تشبه البشر الذين ينقسمون إلى " أمم" حسب طرائقهم فى ممارسة الحياة ولذلك قال " أمثالكم » !!!

ويقول الله مخاطبًا جماعة المسلمين : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (١٦١) .

" سنن " : أمم . والسنن هى طرائق العيش أو أساليب الحياة .

وسمى الأمم " سُنَنًا " للدلالة على أن ما يجعل من أى جماعة بشرية "أمة" هو اتصافها بطريقة للعيش أو أسلوب للحياة يعَرِّفَها أى يصبح أداة تعريف لها تتميز به عن غيرها من الجماعات البشرية الأخرى.

وقد ذكر الله (سبحانه وتعالى) أنه قسَّمَ الناس إلى شعوب وقبائل بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١٦٢) .

فأما الانقسام إلى شعوب فإنه كان ثمرة «تشعب» الناس فى الأرض بهجرتهم من مكة، أم القرى حيث عاش آدم أبو البشر مع أمنا حواء وذريتهما التى تعد الجيل الأول من الناس أو بتعبير القرآن " الآباء الأولين "(١٦٣) .

فبارتحال الناس من مكة إلى شتى أنحاء الكوكب الأرضى بحثًا عن رزق أوسع أو طلبًا للأمن وفرارًا من القتل أو لغير ذلك من أسباب، نشأت الشعوب حيث استقرت الجماعات فى الأرض بعد تشعبها من مكة إلى شتى البقاع . ونفهم - إذن - أن الانقسام إلى شعوب إنما هو تمييز للجماعات البشرية بنسبتها إلى الأرض أو المكان الذى تستقر فيه حياتها وهو الأساس الأول فى بناء الجماعة القومية فلا يمكننا الحديث عن شعب بلا أرض أو بلا وطن استقر عليه زمنًا طويلاً يكفى لخلق الارتباط بين أفراد الجماعة ويمنحهم الشعور بالانتماء .

ومن لطيف إشارات القرآن أن أعطى لفظ "الأمة" معنى " الزمن " فى مثل قوله (سبحانه وتعالى) : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١٦٤) .

" أمة معدودة " : مدة معلومة أى زمن محسوب .

وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ (١٦٥) .

" بعد أمة" : بعد زمن (وقت) .

والمقصود هو الإشارة إلى أن الزمن هو الأساس الجوهرى فى تكوين "الأمة" حيث

فى الزمن يُصْنَعُ "التاريخ" بتفاعل الجماعة (الشعب) مع الأرض (المكان) ومع الشعوب الأخرى، فيعطى التاريخ لكل شعب من الشعوب ذاكرته "القومية" أو تراثه الذى تتناقله الأجيال .

وأما الانقسام إلى قبائل فإنه يعنى تمييز الجماعات البشرية بنسبتهم إلى الأب الأول أو القائد الزعيم الذى تعد الجماعة بمثابة أبنائه أو ذريته على نحو يشبه اعتبار البشر جميعًا أبناءً آدم ، والمقصود - إذن - أن الانقسام إلى قبائل إنما يعنى تقسيم البشر إلى سلالات بنسبتهم إلى "الآباء الأولين» .

ويتبين لنا مما تقدم أن أسس بناء الجماعة القومية هى : الأرض (المكان) الذى تستقر فيه الجماعة لتكون شعبًا والسلالة (القبيلة) التى تمنح الجماعة وحدة الدم أو "الهوية" الجسدية إن صح التعبير والزمن الذى يُصْنَعُ فيه التاريخ الذى يهب الجماعة البشرية ذاكرتها القومية (الجماعية) ويخلق منها أمة.

ولكن الإنسان ليس مجرد جسد أو كائن يعيش على الأرض كغيره من الكائنات الحية، لأنه " الخليفة" الذى سخر الخالق له كل ما فى السماوات والأرض، وهو الكائن الباحث عن الخلود لشعوره العميق بأنه يحتوى على "سر" مقدس لا يعرف كنهه، ومن محاولاته الدائمة لاكتشاف ذلك السر والاتصال به طلبًا للخلود، نشأت الثقافة التى يعد "الدين" بمعناه العام هو قلبها النابض بالحياة، وبالدين يكتمل بناء الجماعة الإنسانية لُتكَوِّنَ أمة ، حيث لا يمكننا - عقلاً - تصور قيام مجتمع إنسانى واستمراره دون وجود تآلف بين أفراده يخلقه اشتراكهم فى "رؤية" عامة واحدة للكون، واتفاقهم على احترام منظومة من القيم والمعايير "المقدسة" وخضوعهم جميعًا لنفس الضوابط التى تهذب غرائزهم الفطرية (الطبيعية) المودعة فى أجسادهم و " الدين" بمعناه العام هو الذى يصنع كل ذلك، وبه يتكون التاريخ الذى يهب الأمة ذاكرتها القومية (= تراثها) و " هويتها " الحضارية

حتى يصح أن نعطى لفظة " الأمة" معنى " الدين" كما قال الشاعر " هل يستوى ذو أمة وكفور " يعنى ذو دين (إيمان) ، ولفظة " الأمة" إذن فى النص القرآنى تعنى ما نشير إليه نحن بلفظ الحضارة التى تكمن بذرتها فى الدين .

(ب) الأمة الإسلامية

عندما يخاطب الله المسلمين فإنه (سبحانه وتعالى) لم يخاطبهم باعتبارهم قبيلة (سلالة) مثل بنى إسرائيل الذين خاطبهم فى القرآن أكثر من مرة بقوله " يا بنى إسرائيل " ولم يخاطبهم باعتبارهم شعبًا يسكن بقعة من الأرض ولم ينسبهم إلى مكان كما نسب قبيلة عاد إلى الأحقاف وثمود إلى الحِجْرِ بل خاطبهم باعتبارهم "أمة" أى جماعة إنسانية لها رسالة موجهة إلى الآخرين .

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس.. ﴾

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ... ﴾

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ... ﴾

والمعنى المستخلص من الآيات :

المسلمون كلهم جميعا فى كافة أرجاء العالم أمة واحدة، فهم جماعة كبيرة من البشر توحدهم عقيدة واحدة إذ يؤمنون بإله واحد وتجمعهم معا طريقة خاصة فى ممارسة الحياة منبثقة من ثقافتهم الإسلامية التى خلقها إيمانهم بالقرآن، وهى طريقة تميزهم أو تفرقهم عن الأمم الأخرى التى لها أساليب أخرى مختلفة فى تناول الدنيا .

المسلمون ليسوا قبيلة أو سلالة كما أنهم ليسوا شعبا يسكن بقعة معينة من الأرض لأن المسلمين ينتشرون فى كافة أرجاء الكرة الأرضية والعالم الإسلامى الذى يتكون من الدول ذات الأغلبية المسلمة يمتد على مساحة هائلة من "إندونيسيا" فى أقصى الشرق إلى المغرب الأقصى، ومن ثم فالأمة الإسلامية تضم شعوبا كثيرة متنوعة وتحتوى فى

جسدها على سلالات أو قبائل عديدة [العرب والفرس والترك والهنود والبربر والزنوج والصفر والبيض . . .] .

فإذا كانت الهوية القومية تستند إلى الأرض والسلالة واللغة، فيمكننا أن نقرر بكل بساطة ويقين أن الأمة الإسلامية تحتضن فى جسدها العديد من القوميات أى من الشعوب والقبائل، بلا تعارض أو تناقض بين الهوية القومية والهوية الدينية الإسلامية لأن الإسلام رسالة من الله إلى جميع الناس يخاطب بها "الإنسان" داخلهم أى الكامن فيهم بغض النظر عن اختلاف ألوانهم (سلالتهم) وألسنتهم (ثقافاتهم القومية) ولذلك أمر الله رسوله (ﷺ) قائلاً: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٦٦) .

وفى نفس الوقت يخاطب الله البشرية كلها بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١٦٧) .

موضحا أن انقسام البشر - رغم وحدة أصلهم - إلى شعوب وقبائل عمل إلهى مقصود منه ابتلاء (امتحان) الناس فى هذه الحياة الدنيا ، ومن ثم فإن "القومية" حقيقة إنسانية جوهرية باقية لا تزول لأنها تستند إلى عمل إلهى، فإنها جزء من " تدبير" الله لحياة الإنسان على الأرض تحت سلطان قانون الابتلاء، ومن ثم فلن يأتى اليوم فى هذه الدنيا الذى تختفى فيه "القوميات" ، ويصبح الناس جميعًا " مواطنين " فى دولة عالمية إنسانية تشمل الكرة الأرضية كلها، فإن ذلك مجرد "وهم" أو بالأحرى أكذوبة كبرى يروجها أهل التكبر والتجبر من صناع القرار فى المشروع الغربى الاستعمارى للسيطرة على العالم بغية إخماد إرادة المقاومة فى الشعوب المراد إخضاعها للنفوذ بل للاحتلال الغربى .

إنها مجرد خدعة براقة جذابة لتسهيل الاستيلاء على مقدرات الشعوب الأخرى ونهب ثروات البلاد المستضعفة المقهورة بأقل خسائر ممكنة !!!

لقد عَدَّ القرآن الكريم اختلاف البشر وتنوعهم إحدى الآيات الدالة على كمال القدرة الالهية حين قال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ (١٦٨) .

واختلاف الألسنة يعنى : تنوع اللغات الذى يشير إلى تنوع الثقافات ، واختلاف الألوان أى لون البشرة يشير إلى تعدد السلالات ، واللغة والسلالة هما أساس القومية .

وهكذا يعتبر القرآن المجيد تعدد القوميات إحدى الآيات الإلهية الكبرى التى يقرنها بخلق السماوات والأرض ، ويوجه الأنظار إلى التأمل فى هذه الحقيقة الإنسانية باعتبارها من الآيات التى تحتاج إلى علم راسخ لإدراك مغزاها العميق إذ يختم الآية بقوله ﴿ إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾ ويُعَد تنوع البشر - مع وحدة أصلهم حيث نشأوا جميعًا من أب واحد - إشارة بليغة أو رمزًا موحيا إلى الحقيقة الكونية الهائلة أعنى التنوع فى نطاق الوحدة أى الكثرة المعبرة عن واحد .

وعندما يدعو الله البشر جميعًا ، رغم اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، ورغم انقسامهم إلى شعوب وقبائل إلى الدخول فى الإسلام فإنه (سبحانه وتعالى) إنما يدعوهم إلى الرجوع إلى الأصل الواحد الذى نشأوا جميعا منه ، إنها دعوة إلى العودة إلى البداية الأولى التى تختفى عن الأبصار وتغيب عن إدراك الحواس وراء حجاب اختلاف الألسنة والألوان وانقسام الشعوب والقبائل ، إنها دعوة إلى رؤية "الإنسان" المستتر خلف هذه الأجسام ، ومن ثم فإن الإسلام لا يطلب من البشر أن يغيروا ألسنتهم وألوانهم ، ولا أن يتخلوا عن انتمائهم إلى أقوامهم أو يفقدوا حبهم لأوطانهم ، ولكنه يطلب منهم أن يهذبوا شعورهم القومى حتى لا يتحول إلى عصبية مفرقة أو " عنصرية" ممقوتة أى

إحساس "إبليسى" بالأفضلية والسمو فوق "الآخرين"، وذلك بتذكر أن الجميع لآدم وآدم من تراب، ويأمرهم أن يكبحوا جماح الطمع والغضب والرغبة فى التسلط بإدراك أنهم جميعًا أبناء رجل واحد وامرأة واحدة هما آدم وحواء، فهم فى أصلهم البعيد أخوة أشقاء حقيقة لا مجازاً .

إن الإسلام دعوة إلى تجاوز أسباب الصراع وعوامل التفرقة بالدخول فى "دين الله" الذى يستوى جميع البشر أمامه، باعتبارهم مخلوقين مكلفين محاسبين على أعمالهم وهذا هو الابتلاء، فالمقصود أن يكون الاختلاف (التنوع) وسيلة لإثراء الحياة والكشف عن الحقيقة الإلهية التى ملأت السماوات والأرض بالآيات، لا أن يكون سببا فى إثارة الصراعات وإشعال الحروب، ولكن إذا رفض المستكبرون بغير الحق رسالة الله ولم يلبوا الدعوة وأصروا على بغيهم فما من سبيل لمقاومة البغى إلا الجهاد أى القتال فى سبيل الله.

أما المؤمنون الذين استجابوا لنداء الله، ونفذ النور إلى قلوبهم، فإنهم يشعرون حقا بأنهم أخوة أبناء دين واحد أى أمة واحدة لأن الله بفضل الإيمان قد جمع بينهم برباط المحبة والولاء : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٦٩) .

فالأخوة الإنسانية تتحقق على أكمل وجه عبر الإيمان، أعنى من خلال الأخوة الدينية وهذا هو مضمون الابتلاء الإلهى للإنسان.

وقوله ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ﴾ إشارة إلى أن التأليف بين القلوب عمل إلهى يأتى مع الإيمان من السماء مصاحبا الوحى النازل على قلب النبى (ﷺ) .

(جـ) الدولة الإسلامية أو الخلافة المنشودة :

وصف النبى (ﷺ) هذه الأخوة الإيمانية بقوله : " ترى المسلمين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » .

وقوله : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا " وشَبَّكَ (ﷺ) بين أصابعه للتعبير عن شدة تماسك بنيان الأمة الإسلامية الواحدة التى شبهها النبى (ﷺ) بالجسد الواحد وتشبيه الأمة ، بالبنيان المتماسك وبالجسد الواحد ، إنما يفصح عن الإرادة الداخلية التى تنبعث من قلب الأمة ، أعنى من قلوب المؤمنين للاتحاد والتعبير عن "هوية" الأمة فى كيان سياسى يميزها عن " الآخرين.

وهذا الكيان السياسى هو الدولة الإسلامية التى اتخذت فى التاريخ بعد موت صاحب الرسالة ومؤسس الأمة (ﷺ) اسم "الخلافة" لأن : "الخليفة" هو الوارث الذى آلت إليه سلطة الرسول (ﷺ) السياسية أى الدنيوية باعتباره الحاكم الذى يمثل الكيان السياسى المعبر عن " هوية " الأمة .

والخلاصة : أن نشأة "الدولة" هى الثمرة الفطرية والنتيجة المنطقية لوجود "الأمة " لأن الإنسان كائن مدنى أى سياسى بفطرته أيًا كان شكل الدولة من الناحية القانونية / الإدارية ، وهذه حقيقة إنسانية لا يمكن التعامى عنها لأن إنكارها يعد إنكارا لما هو معلوم من التاريخ بالضرورة .

وفى داخل الدولة الإسلامية المعبرة سياسيا عن الأمة الإسلامية يحدد الله (سبحانه وتعالى) المبادئ التى ينبغى أن تحكم العلاقات بين أعضاء هذه الأمة بقول القرآن الكريم : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١٧٠) .

استعمال أسلوب القصر بقوله ﴿ إنما المؤمنون أخوة ﴾ يعنى أن الشعور بالأخوة بين المؤمنين شرط لازم لصحة الإيمان أو هو ثمرة تنتجها شجرة الإيمان فالمعنى المقصود هو "لا يكون المؤمنون إلا أخوة" ، لأن الأخوة الدينية من مقتضيات الإيمان الصحيح .

وصدور الأمر الإلهى بالإصلاح بين الأخوين أو الجانبين المتقاتلين إنما يقتضى وجود جهة يتوجه إليها الأمر، ولها صلاحية إجراء الإصلاح وإبرام الاتفاق أو عقد المعاهدة بين الطرفين يعنى يقتضى وجود رئاسة للمؤمنين لها حق القيادة التى تجعل كلمتها مسموعة، وأمرها نافذا لدى الجانبين أو الطائفتين المتقاتلتين بل يكون لها القدرة على فرض حكمها وإلا فما معنى قوله (سبحانه وتعالى) فى الآية التى سبقت ﴿ فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله ﴾ فهو أمر بشن الحرب على الفئة الباغية من المؤمنين التى رفضت شروط الصلح التى أقرتها الرئاسة أى من له الإمامة أو القيادة، ولا يمكن طاعة هذا الأمر الإلهى (قتال الطائفة الباغية) إلا إذا وُجِدَت القوات العسكرية التى تستطيع شن الحرب بأمر من له إمامة المؤمنين.

ولما كانت هذه الآية التاسعة من سورة الحجرات تتحدث عن قتال طائفتين من المؤمنين: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ (١٧١) ....

ولما كنا قد بينا من قبل أن الأمة الإسلامية لابد أن تتكون من شعوب وقبائل كثيرة تعبيرا عن عالمية (إنسانية) الإسلام، أى أنها لابد أن تضم عددا من " الدول القومية" بالمفهوم الحديث، ومن ثم فإن الصورة التى يمكن استشفافها للكيان السياسى المعبر عن وحدة الأمة الإسلامية - من خلال تأمل النص القرآنى - هى صورة منظمة تجمع الدول الإسلامية، فهى هيئة سياسية دولية (عالمية) تضم عددا من: الدول القومية " التى تدين أغلبية شعوبها بالإسلام على غرار " منظمة الدول الأوربية" أو " منظمة المؤتمر الإسلامى" الحالية التى تضم فى عضويتها الدول الإسلامية الحاضرة التى أقيمت على مفهوم "الدولة القومية"، فهى الصيغة الملائمة للواقع المعاصر والمتفقة فى نفس الوقت مع ملامح الصورة التى يشير إليها النص القرآنى، وهى أيضًا تقدم الحل الأمثل لتوافق الهوية القومية مع الهوية الإسلامية.

إلا أن منظمة المؤتمر الإسلامى بصيغتها الحالية ووضعها الراهن تفتقد الفاعلية والقدرة على التأثير وتغيير الواقع، لأنها - أولا - تضم فى عضويتها نظم حاكمة لا

تعبر أصلاً عن شعوبها ، ولأنها - ثانيا - محرومة من الإمكانات والقدرات التى تمكنها من أداء رسالتها فى توحيد الأمة الإسلامية ، وتقوية التعاون بين أعضائها ، والنهوض بالمسلمين لتمكينهم من مواجهة التحديات التى تعترض طريقهم إلى قيادة البشرية ، كما أمرهم الله الذى جعلهم " أمة وسطا " .

ولذلك فإننا نقترح أن تزود منظمة الدول الإسلامية التى ننشدها بما يلى :-

١- مجلس الرئاسة (أو الإمامة إن شئت) ويتكون من رؤساء الجمهوريات والملوك والأمراء يعنى حكام الدول الإسلامية ويجتمع على نحو دورى عادى ، مرة كل سنتين أو ثلاث أو خمس سنوات بعد أداء فريضة الحج ، ويكون مكان الاجتماع فى المدينة المنورة التى كانت عاصمة أول دولة إسلامية ، للتذكير بأن هؤلاء الحكام هم خلفاء الرسول (ﷺ) فى قيادة الأمة الإسلامية ، ويقرر هؤلاء الحكام (الخلفاء) فى اجتماعهم الدورى السياسات العامة التى ينبغى الالتزام بها فى كافة المجالات على مستوى العالم الإسلامى كله ، ويناقشون الأزمات والمشاكل التى تعترض الأمة الإسلامية ، أو تواجه بعض دولها ويتفقون على طرق حلها . كما يجب أن ينعقد مجلس الرئاسة (أو الإمامة) استثنائيا بناء على طلب أحد الأعضاء أو استجابة لأزمة طارئة .

٢- محكمة العدل الإسلامية المناط بها القيام بالتحكيم فى القضايا التى تثار بين الدول الإسلامية وهى المكلفة بالإصلاح الوارد فى سورة الحجرات : ﴿ فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ﴾ (١٧١) .

٣- بيت مال المسلمين وهو هيئة تتلقى الأموال من الدول الإسلامية على النحو الذى يقرره مجلس الرئاسة (الإمامة) كنسبة معينة من الزكاة مثلا ، كما يُسْمَحُ له بتلقى التبرعات من أثرياء المسلمين ، لكى تنفق هذه الأموال لإغاثة المكروبين فى العالم الإسلامى عند حدوث الكوارث والمجاعات وغيرها من الطوارئ ، كما يقوم بيت المال باستثمار الأموال فى مشروعات تخدم المناطق الفقيرة من العالم الإسلامى .

٤- مؤسسة الاجتهاد وتضم خيرة العلماء والفقهاء من كافة أنحاء العالم الإسلامى ومن كل المذاهب الفقهية والفكرية، لكى يتباحثوا فى القضايا والمشكلات ذات الطابع الفقهى، ويقدموا الرؤية والإجابة الإسلامية عن الأسئلة التى يثيرها العصر، ولاشك فى أن مثل هذه المؤسسة ستقوم بتنقية التراث الإسلامى من الكثير من الأخطاء والخطايا العلمية التى وقعت فيه، كما ستقضى على الكثير من الاضطراب الناشئ عن اختلاف الآراء فى كثير من القضايا الهامة ، ولا شك أيضًا فى أن الطابع الجماعى العالمى للبحث الذى يتيح عرض كافة وجهات النظر المختلفة ويقوم بتمحيصها ومناقشة كل الآراء سوف يصل بنا إلى أفضل الحلول وأحسن التفسيرات، ويغلق الباب الذى أتى منه ريح التفرقة المذمومة التى كانت سببًا فى ضياع الدين والدنيا كما صرح الله فى قوله تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شئ إنما أمرهم إلى او ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ (١٧٢) .

فنفى أن يكون الرسول (ﷺ) فى " شئ " يجمعه مع الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا . ومعنى هذا بكل وضوح إعلان براءة الرسول (ﷺ) من المنتسبين إليه زورا الذين يسمون فى الدنيا مسلمين ويوصفون ظاهرا بالإيمان وينسبون إلى أمة محمد (ﷺ) وهو فى الحقيقة براء منهم لا يجتمع معهم فى شئ لأنهم فرقوا دينهم .

ولما كان الدين هو " جوهر" كيان الأمة أو هو الأمة فى حقيقتها كما قد بينا من قبل فيصبح تفريق الدين مؤديا إلى تفرقة أو تجزئة الأمة ولذلك قال بعدها ﴿ وكانوا شيعا ﴾ يعنى صاروا وظلوا أجزاء ممزقة أو قطعا مبعثرة من أمة كانت واحدة لأن دينها كان واحدا كاملا مكتملا، قبل تفريقه وتمزيقه إلى مذاهب وفرق وطرق، يتمسك أتباعها بالقشور ويتركون اللب، ويضخمون التفاهات والتفاصيل الصغيرة ويستصغرون الكبائر ويحقرون الآيات العظيمة، وينشغلون بما لا طائل من ورائه ويغفلون عن الحقائق ويتعصبون إلى أقوال شيوخهم وعلمائهم وأصحاب المذاهب والفرق والطرق

حتى يرفعوها فوق الأحاديث النبوية والآيات القرانية، كما قال أحد الحمقى من أتباع مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة «كل آية أو حديث تخالف مذهبنا فهى إما مؤولة أو منسوخة" !!!(١٧٣).

ولاشك أن التنافس على الدنيا وما تقدمه من جاه وسلطة ومال، وليس البحث عن الحقيقة هو السبب فى اشتعال الصراع بين الصغار من أتباع المذاهب والطرق والفرق، على الرغم من أن العلماء الكبار والمفكرين والفلاسفة الذين أسسوا تلك المذاهب والفرق والطرق كانوا القدوة والنموذج الذى يجب أن يحتذى فى التحرر العقلى والنزاهة العلمية وسعة الأفق.

قال الإمام أبو حنيفة: " أعلم الناس هو أعلمهم باختلاف الناس، فإن العلم بأقوال العلماء فى قضية تتنازعها الأنظار يكشف الحق لمن يكون قادرا على النظر وفحص أساليب الاستدلال ومناحيه وتَعَرُّف ضعيف الدليل وقويه، وهو نظر للأمر من كل وجوهه ومن ينظر للأمر من كل وجوهه يكون أقدر على الحكم فيه بالصواب أو الخطأ"(١٧٤).

أما الإمام الشافعى فيقول: " رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب وللمجتهد إذا أصاب أجران، وحتى إذا أخطأ فله أجر "(١٧٥).

وقد بين الإمام الغزالى "السر" فى ضلال هؤلاء الصغار المتعصبين، فقال: " وكيف تتجلى أسرار الملكوت لقوم اتخذوا إلههم هواهم ومعبودهم سلاطينهم وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم وشريعتهم رعونتهم "(١٧٦).

وأفصح الإمام محمد عبده عن المغزى السياسى والاجتماعى للتعصب المقيت المفضى إلى تمزيق الأمة بقوله: " إن السبب فى بقاء قوة سلطان الخلاف والنزاع هو فشو الجهل وتعصب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التى ينتسبون إليها وبجاهها يعيشون

ويُكرمون وتأييد الأمراء والسلاطين لهم، استعانة بهم على إخضاع العامة وقطع طريق الاستقلال العقلى على الأمة !! لأن هذا أعون لهم على الاستبداد وأشد تمكينًا لهم مما يحبون من الفساد والإفساد، لأن اتفاق كلمة علماء الأمة واجتماعها على أن الحق كذا بدليل كذا ملزم " للحاكم باتباعهم فيه لأن الخواص (النخبة) إذا اتحدوا اتبعهم العوام وهذه هى الوسيلة الوحيدة لمنع استبداد الحكام !!! (١٧٧).

ولكن إذا تبرأ الرسول (ﷺ) من قوم فقد خرجوا من الدين / الأمة وصاروا مشركين وهذا هو المصير البشع الذى ينتظر هؤلاء فى الآخرة، كما كشفته سورة الروم حين توجهت إلى المؤمنين بالنصح والإرشاد قائلة ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(١٧٨).

" فَرِحُونَ " : مستكبرون

ولكننا لا يمكننا وصمهم فى الدنيا بالإشراك لأنهم فى الظاهر مسلمون موحدون فنحن - البشر - لا نملك إلاَّ الحكم على الظاهر ولذلك قال الله فى شأنهم ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١٧٩).

يعنى أن الحكم عليهم لا يرجع إلا إلى الله فهو (سبحانه وتعالى) الوحيد المخول بالحكم عليهم، ثم عندما يأتى يوم القيامة سوف يخبرهم بحقيقة أفعالهم فينالون جزاءهم .

إن مؤسسة " الاجتهاد " التى نقترح أن تكون المرجع الأعلى فى تقديم " الرؤية " الإسلامية والأحكام الإسلامية الصحيحة ستكون التجسيم العملى لمبدأ "الإجماع " الذى اعتبره علماء أصول الفقه أحد أهم مصادر التشريع، وستغلق باب الفتن الدينية الناجمة عن التعصب المذهبى الذى أضاع الدين والدنيا !!.

٥- حلف الجهاد الإسلامى ونعنى به إنشاء جيش يتكون من قوات عسكرية تقدمها جميع الدول الإسلامية كل حسب قدرته، ليكون هذا الجيش هو الدرع الواقى المكلف بالدفاع عن أية دولة مسلمة تتعرض للعدوان والغزو من قبل أية دولة غير إسلامية، كما أنه المكلف بتنفيذ حكم الله الصادر فى قوله (سبحانه وتعالى) ﴿ فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله ﴾ حتى لا تحتاج أية دولة إسلامية للاستعانة بالكافرين لصد العدوان الذى يقع عليها أو لحماية أراضيها من الغزو كما حدث فى أزمة حرب الخليج الثانية التي أعقبت غزو العراق للكويت !!!

إن وجود ذلك الجيش الإسلامى سيكون هو الأساس الذى عليه يتمكن المسلمون من طاعة الله الذى نهاهم عن تولى الكافرين بدلا من المؤمنين بقوله :

﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾(١٨٠) وقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾(١٨١) .

هل يوجد تحذير من سوء المصير أقوى من قوله (سبحانه وتعالى) ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ !!!

وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١٨٢) .

وغير ذلك كثير ....

٦- الاتحادات النقابية على مستوى العالم الإسلامى فى كافة التخصصات المهنية حيث يتكون كل اتحاد من أعضاء إحدى النقابات المهنية (الأطباء - المهندسين - الصحفيين) من كل الدول الإسلامية، ويجتمع أعضاء الاتحاد مرة كل عام فى موسم الحج ليناقشوا سبل التعاون فى مجال المهنة على مستوى العالم الإسلامى لخدمة الشعوب الإسلامية، والعمل على تقوية الترابط بينها، ورفع مستوى المهنة فى نفس الوقت، ويكون ذلك طاعة وتحقيقًا لقوله (سبحانه وتعالى) فى بيان الحكمة من فريضة الحج ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ .

٧- مؤسسة الدعوة الإسلامية التى يناط بها تكوين البعثات والقوافل لنشر الإسلام فى كافة الأنحاء تحقيقًا لرسالة الأمة الإسلامية، ولا شك فى أن الكثير من أبناء العالم الإسلامى يحتاجون بالفعل إلى تعلم الإسلام الصحيح، حيث اختلطت التعاليم الإسلامية بشوائب كثيرة من الثقافات المحلية ففقد الإسلام " نقاوته" لدى تلك الشعوب خاصة فى الأطراف النائية من العالم الإسلامى . أولئك المسلمون هم أول من يحتاج إلى معرفة الإسلام وإعادة تعلمه على أساس صحيح .

ويستطيع مجلس الرئاسة (الإمامة) أن ينشئ الكثير من المنظمات والمؤسسات وأن يتخذ العديد من الإجراءات التى تخدم الأمة الإسلامية فى شتى المجالات، وتعمل على تقوية وحدتها مثل السوق الإسلامية المشتركة لتنشيط التبادل التجارى بين الدول الإسلامية، وإقامة المعارض وتنشيط السياحة بين دول العالم الإسلامى، وتشجيع تعلم اللغة العربية ونشرها فى شتى أنحاء العالم الإسلامى باعتبارها لغة القرآن والعلوم الإسلامية، وغير ذلك من الإجراءات التى تعمل على تقوية أسباب الوحدة ونزع فتيل التفرق .

(د) معالم الطريق إلى الأمة الواحدة

لقد أمر اللّه المسلمين جميعاً فى القرآن الكريم، وعلى لسان رسوله الكريم (ﷺ) بالاتحاد والتعاون، ونهاهم عن التفرق والتنازع فخاطبهم قائلاً ﴿ وأطيعوا اللّه ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن اللّه مع الصابرين ﴾(١٨٣) فبَيَّنَ أن الالتزام بطاعة اللّه ورسوله (ﷺ) هو سبب تحقيق الوحدة المنشودة أى تحقيق الأمة الواحدة، ومعنى طاعة اللّه ورسوله (ﷺ) هو جعل القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة - بما يتضمناه من مبادئ عامة - المرجعين العلويين اللذين يجب أن يُحتكم إليهما فى سائر قضايا الحياة.

وبَيَّن أن التنازع الذى يعنى التنافس على متاع الدنيا وحظوظها هو سبيل التفرق

والتنابذ الذى يفضى إلى الفشل، أى العجز عن تحقيق المراد من الأمة الإسلامية، وهو مايعنى العجز عن القيام بدور الأمة الوسط التى تقود البشرية إلى معرفة اللّه، وتحقق على الأرض المجتمع الأفضل الذى يصبو إليه الإنسان، وأشار إلى أن التخلى عن الرسالة أو خيانة عهد اللّه يؤدى إلى الضعف الذى عُبِّر عنه بذهاب الريح ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ حيث تصبح الأرض الإسلامية مطمعاً للغزاة أو قصعة تتداعى الأكلة إلى التهامها.

والكناية عن القوة بالريح وعن الضعف بذهاب الريح تلويحٌ إلى أن قوة الأمة الإسلامية باقية ما دامت تقوم برسالتها فى الدعوة إلى اللّه ونشر الإسلام الذى شُبِّه فى هذه الكناية البليغة بانتشار الريح الذى يسوق السحاب حاملاً رحمة اللّه الكامنة فى الماء.

وطاعة اللّه ورسوله (صلى اللّه عليه وسلم) والزهد فى زخارف الدنيا يتطلب التحلى بخلق الصبر، ولذلك ختم الآية بقوله﴿ واصبروا إن اللّه مع الصابرين ﴾.

ودعاهم إلى التعاون على طاعة اللّه؛ لأن هذا هو سبيل الحفاظ على وحدة الأمة التى يجب أن تكون فى حياتها عنواناً للإسلام رافعة لواء العدل الذى هو صفة حكم اللّه واسمه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١٨٤).

ولا سبيل إلى توحيد الأمة إلا بتوحيد دينها وهو ما يعنى التمسك بالقرآن لأنه المصدر الوحيد الذى لا يشك أحد من المؤمنين فى صحته (سلامته من الأخطاء) وفى ثبوت صدوره عن صاحب الرسالة (ﷺ)، ومن ثم فهو الشىء الوحيد الذى يجمع عليه جميع المسلمين، وبالتالى فهو القادر وحده على جمعهم فى طريق واحد أى على طريقة واحدة فى ممارسة الحياة وقد أسلفنا القول بأن هذا هو معنى الأمة الواحدة.

ويجدر بنا أن نلفت الأنظار هنا إلى أن الحاجة قد صارت ماسة إلى إعادة كتابة الفقه الإسلامى على ضوء هذه الحقيقة، وليس معنى هذا إلغاء مصادر التشريع الأخرى فهذا محض جهل، كما أنه لا يعنى أن الفقهاء السابقين قد أهملوا القرآن فهذا الادعاء محض افتراء، ولكن المقصود مراجعة أقوال الفقهاء وإعادة النظر فى آرائهم على ضوء فهم القرآن، بل إعادة النظر فى فهم الأحاديث النبوية الشريفة بمراجعتها على النص القرآنى الذى لا محل للشك فيه !! وهو ما يعنى أننا فى حاجة إلى فقه جديد يستلهم القرآن الكريم على نحو أكثر عمقا مما فعل سلفنا الصالح .

يخاطب الله المؤمنين فى وصاياه الجامعة بخاتمة سورة الأنعام قائلاً : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(١٨٥) .

" هذا" : إشارة إلى القرآن وقد بينا من قبل أنه لا يشار فى القرآن إلا باسم الإشارة «هذا».

يبين الله (سبحانه وتعالى) أن القرآن رسم للمؤمنين الصراط المستقيم الذى يجب عليهم اتباعه أى السير فيه، فإن تركوه وساروا فى الطرق الأخرى المُسْتَلْهَمة من مراجع أخرى فإنها سوف تفرقهم وتبعدهم عن سبيل القرآن الذى هو سبيل الله أى الطريق الواصل إلى الله المفضى إلى دخول الجنة والنجاة من النار ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾.

وأوضح هذه الوصية فى قوله (سبحانه وتعالى) ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٨٦) .

" حبل الله" : هو القرآن بلا جدال .

" نعمة الله" : كلمته وهى رسالته التى أنزلها عليهم وأمرهم بحملها إلى الآخرين وعندما يخاطب الله نبيه (ﷺ) قائلاً له ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (١٨٧) فهو يأمره بإبلاغ الرسالة أى الحديث بنعمة (كلمة) الله إلى الآخرين ، وعندما يصف ما فعله بنو إسرائيل برسالة الله إليهم إذ قاموا بتغييرها (تحريفها) فحذفوا منها ما يتعارض مع أهوائهم وأوهامهم، وأضافوا إليها من عند أنفسهم ما يروق لهم فإنه (سبحانه وتعالى) يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾(١٨٨).

" بدلوا نعمة الله " : غيروا رسالة الله عندما زيفوا كلمته (وحيه) فحذفوا من عند أنفسهم وأضافوا .

"كفرًا" : يعنى بدافع من كفرهم فهم لم يفعلوا ذلك (تبديل كلمة الله) إلا بسبب كفرهم أى على سبيل الكفر بوحى الله إليهم .

وفى نور هذا الفهم نعلم أن نعمة الله فى هذه المواضع القرآنية تعنى رسالة الله، وأن قيام العرب بهذه الرسالة هو الذى حولهم من أعداء متحاربين إلى إخوان متحابين، لأن رسالة الله (نعمة الله) التى نزلت عليهم قد ألفت بين قلوبهم، ووحدت جهودهم فى عمل عظيم واحد اشتركوا جميعاً فى القيام به وأنقذتهم من نار الصراع القبلى الذى كان سيفضى إلى هلاكهم ، كما أنقذتهم من نار جهنم التى كانوا سيدخلونها لو بقوا على كفرهم وتفرقهم ، ولذلك جاء الأمر إلى الأمة الإسلامية بالقيام بالدعوة وأداء الرسالة فى الآية التالية مباشرة ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ لأن هذا هو سبيل الحفاظ على الهوية والوحدة وضمان الفلاح فى الدنيا والآخرة .

وتحدث الله إلى المسلمين بلسان رسوله (ﷺ) فقال :

" لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا " . وليس المقصود النهى عن اختلاف وجهات النظر فى الأمور التى تحتمل عدة أوجه، وإلاَّ لما كان تأويل وفقه ولكن المقصود النهى عن التنازع على زخارف الدنيا من سلطان ومال وجاه حتى إن تسربل ذلك التنازع أو تستر وراء قناع الخلافات الدينية .

وقال " سباب المسلم فسوق وقتاله كفر " فسوق يعنى نفاق أى كفر باطن مستتر وراء درع الإسلام الظاهر ومن ثم فهو كفر لا يخرج من الملة (الأمة) ولذلك فصاحبه يعامل معاملة المسلمين طبقًا لظاهره، والمقصود هنا سباب المسلم بسبب إسلامه أى سبابه لأنه مسلم فالدافع إلى السباب هو الإسلام وهو فعل لا يمكن بالطبع صدوره من مؤمن !!!

أما قتال المسلم لأنه مسلم أى بسبب إسلامه فإنه كفر صريح يخرج من الملة (الأمة) ويستوجب القتل أليس يريد قتل المسلم ؟!!! . ولذلك قال الرسول (ﷺ) فى حجة الوداع وهو يبلغ المسلمين آخر وصاياه "لا ترجعوا بعدى كفاراً يقتل بعضكم بعضاً" أو كما جاء فى رواية أخرى "يضرب بعضكم أعناق بعض" .

وقال « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه ولا يحقره والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ." لا يظلمه " : لا يعتدى على حرماته .

" ولا يخذله : " ولا يتخلى عن نصرته إذا استغاث به عند وقوع اعتداء أو تعرضه لكارثة أو خطر .

"ولا يسلمه : " إلى عدوه خائناً عهد الإيمان الذى يجعل المؤمنين أخوة متحابين متصافين ضد أعدائهم .

" ولا يحقره : " ولا يستهين به أو يسخر منه مستهزئًا .

وحذر من التعصب إلى العشيرة أو القومية العنصرية القائمة على توهم سمو سلالة من البشر فوق غيرها من السلالات فقال " ليس منا من دعا إلى عصبية " فسأله

أصحابه " أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟!! " فأجاب (ﷺ) : " العصبية أن يعين قومه على الظلم . خير المدافع عن عشيرته مالم يأثم " فبين أن " القومية" أى حب العشيرة والوطن فطرة إنسانية لا يمكن محوها أو التعامى عنها بل مدح المدافع عن عشيرته المتحمس لقومه ووطنه معلنا أنه " خير المدافع " يقصد أن أفضل ما يدافع عنه المرء أن يدافع عن عشيرته (قومه ووطنه) مادام لا يجره هذا الدفاع إلى الوقوع فى الإثم " مالم يأثم "، فالمراد هو تهذيب الشعور القومى بإخضاعه إلى سلطان الشريعة القائمة على العدل، وهذا هو الحل المثالى للتوفيق بين الهوية الدينية والهوية القومية .

ولقد لخص القرآن الكريم قضية الوحدة الإسلامية بقوله ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾(١٨٩) ولنلاحظ أنه (سبحانه وتعالى) قد أتى بهذه الآية بعد سرد لمواقف من سير الرسل السابقين الذين توالى ظهورهم فى التاريخ الإنسانى ، وكذلك أيضا فى الموضع الآخر من سورة المؤمنون حيث قال ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (١٩٠).

وبالتأمل فى هذا السياق اللافت للنظر، والجدير بالملاحظة فى الموضعين، يتبين لنا أن اسم الإشارة "هذه" يشير إلى كل الجماعات الإنسانية التى ذكرتها الآيات السابقة والتى توالى إرسال الرسل إليها، ومن المعلوم أنها تتكون من شعوب وقبائل كثيرة وتكون ما يمكن تسميته " دولا قومية " عديدة تعيش فى أوطان متعددة .

ولكن القرآن الكريم يصف تلك الشعوب والقبائل العديدة بأنها أمة، وينسبها إلى المسلمين أتباع الرسول النبى الأمى محمد (ﷺ) فيصفها فى خطابه لهم (أى لنا نحن المسلمين) بقوله على سبيل التأكيد ﴿ إن هذه أمتكم ﴾ يعنى ينبغى لكم أن تعلموا وأن تشعروا أن هذه الجماعات الإنسانية العديدة التى تلقت الرسالة الإلهية من قبلكم هى "أمتكم" التى تنتمى إليكم وتنتسبون إليها، لأن مضمون الرسالة الإلهية إلى جميع

البشر فى جوهره واحد، ويهدى إلى طريقة واحدة فى ممارسة الحياة هى التى سماها القرآن " الصراط المستقيم " وأنتم أيها المسلمون أتباع الرسول النبى الأمى محمد (ﷺ) قد أصبحتم ورثة كل الأمم التى خلت من قبلكم لأنكم صرتم بتكليف الله لكم حملة الرسالة إلى جميع البشر وسيدخل الناس من مختلف الشعوب والقبائل فى «دين الله أفواجًا ».

وبذلك سينضم إلى «الأمة» جم غفير من البشر الذين تختلف ألسنتهم (ثقافاتهم القومية) وألوانهم (سلالاتهم العرقية) والذين ينتمون إلى أوطان تنتشر فى كافة أنحاء الكرة الأرضية، مما قد يعرض الأمة إلى خطر التفرق والتنازع لتكونها من أجناس قومية مختلفة، ولذلك يجب عليكم أن تعملوا على أن تبقى " أمة واحدة" فَوَصْفُ الأمة فى هذا المقام بأنها « أمة واحدة» إنما هو على سبيل الأمر (التكليف) بالعمل على توحيد الأمة والقضاء على أسباب التفرق والتنازع وما من سبيل لتحقيق ذلك إلا بتسيير الأمة كلها بكافة أجناسها القومية فى « الصراط المستقيم » الذى يعنى إفراد الله (سبحانه وتعالى) بالعبادة التى تفضى إلى النجاة من عذاب الله من الدنيا والآخرة وهذا هو معنى التقوى.

ولذلك ختم آية سورة الأنبياء بقوله « وأنا ربكم فاعبدون » وختم آية سورة المؤمنون بقوله « وأنا ربكم فاتقون»، ولنلاحظ هنا أنه عبر عن نفسه (سبحانه وتعالى) بضمير المتكلم الفرد الواحد "أنا" الذى يشير إلى حضوره وتعريفه بنفسه عن طريق الرسالة التى تكلم بها إلى الأمة، كما يشير إلى وحدانيته (سبحانه وتعالى) التى تشمل الجميع تحت سلطانها أعنى وحدة ذاته التى ينبغى أن تلهم المسلمين المؤمنين حقا وحدة أمتهم !!!

ولكن الأمة لم تستطع على الدوام الارتفاع إلى مستوى الرسالة التى كلفت بحملها، ففقدت فى أحيان كثيرة مكانتها كأمة وسط (قائدة)، وفقدت وحدتها فصارت قطعا متناثرة متنابذة يتداعى البغاة إلى التهامها فى جوف أطماعهم، ولذلك

عَقَّبَ فى الموضعين بذكر التقطيع الذى أصاب الأمة فقال فى سورة الأنبياء : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ (١٩١) .

« أمرهم » : هنا تعنى حكمهم أى أن التنازع على الحُكم بالتدافع للاستيلاء على السلطة بدون وجه حق بإهمال مبادئ البيعة والعدل والشورى بغية الاستحواذ على ما تمنحه السلطة (المُلْكُ) من زخارف الدنيا ، كان ذلك التنازع هو سبب تقطيع الأمة ولذلك توعد الله الذين صنعوا ذلك بالحساب العسير يوم يقف الجميع بين يدى الله مالك الملك فى يوم الحساب ، فختم الآية بقوله **﴿ كل إلينا راجعون ﴾** لنحاسبهم على ما قدمت لهم أنفسهم وصنعت أيديهم !!!

كما أن لفظة «أمرهم» تعنى كتابهم أى رسالة اللّه إليهم التى تحمل حكم اللّه ومعنى تقطيع الأمر هو تمزيق كتاب اللّه أو تقسيمه إلى أجزاء مختلفة يتم التعامل معها حسب الأهواء

وما كان التنازع على الحكم ليكون لولا ضياع الإيمان بمجموع ما جاء به كتاب الله إذ أنهم قد : ﴿ جعلوا القرآن عضين ﴾ فقسموه أو قَطَّعوه إلى أجزاء فآمنوا ببعض وكفروا ببعض واعترفوا بجزءٍ وأنكروا أجزاء ، وأطاعوا اقسما وعصوا آخر ، وهى الخطيئة التى أعلنها القرآن فى الموضع الثانى من سورة المؤمنين حين قال : ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ (١٩٢) .

فلم يتم التنازع على الحكم إلا بتمزيق الرسالة الإلهية إلى قطع منفصلة ومختلفة وتقطعت الأمة إلى فرق متصارعة وطرق متعارضة ومذاهب متناحرة .

" أمرهم " : هنا تعنى " كتابهم " أى كتاب الله الذى أنزل عليهم ليحكم بينهم فصار ينسب إليهم .

" زبرا " يعنى قطعا أى أجزاء مقطعة لتحقق مطامع وتفى بأغراض مقصودة أو تلبى أهواء منشودة .

" فرحون " : مستكبرون يعنى صار كل حزب من الأحزاب التى انقسمت إليها الأمة بعد تقطيع " الكتاب" يستكبر على الآخرين بما لديه من بعض الحقيقة وبعض الشريعة رافضا منكرا ما لديهم يريد أن يصعد فوق الجميع وأن يفرض هيمنته عليهم .

وهكذا يعلمنا القرآن الكريم أن السبيل إلى تحقيق وحدة الأمة الإسلامية هو إعادة الشرعية إلى أنظمة الحكم فى الدول الإسلامية، بإعادة الاعتبار إلى مبادئ البيعة والعدل والشورى على النحو الذى أسلفنا فيه القول باعتبارها المعايير الأساسية فى تقرير مدى شرعية (إسلامية) السلطة فى أى دولة إسلامية .

فإذا صعد إلى سدة الحكم فى البلاد الإسلامية من يتمتع حقا بالشرعية الصحيحة التى بينا معاييرها، فلا شك فى أنه سوف يعبر بصدق عن " هوية" الشعب الذى اختاره وسوف يستجيب دون أدنى شك لتطلعات ا لأمة التى تسعى بدافع من إيمانها ومصالحها الدنيوية على كافة المستويات وفى جميع المجالات إلى الوحدة باعتبارها الطريق إلى إنجاز النهوض من حفرة التخلف وتحقيق الذات بأداء الرسالة والتعبير عن الهوية الحضارية .

ويجدر بنا أن نلفت الأنظار إلى أن الإسلام لا يشترط شكلاً قانونيًا / دستوريًا محددا تتحقق فيه وحده الشرعية، وإنما العبرة بتطبيق المبادئ الثلاثة : البيعة والعدل والشورى فى أى شكل من أشكال أنظمة الحكم يتلاءم مع ظروف كل شعب .

كما يجدر بنا التأكيد على أن مشروع تكوين دولة إسلامية مركزية كبرى تضم تحت سلطانها جميع المسلمين فى العالم، أو كل المسلمين فيما يعرف بدول العالم الإسلامى عن طريق تحقيق وحدة اندماجية بين هذه الدول هو مشروع محكوم عليه بالفشل الآن وفى المستقبل المنظور إن لم يكن إلى الأبد، فضلا عن أنه غير مطلوب أو مأمور به دينيا ، فلا يمكننا عقلا تصور قيام دولة مركزية تبسط سيادتها على مساحة من الأرض تمتد من إندونيسيا فى أقصى شرق الكرة الأرضية إلى المغرب الأقصى أو مراكش، وتضم ضمن مواطنيها العرب والترك والفرس والسود والبيض والحمر والصفر وكل ما يشمله العالم الإسلامى من أجناس بشرية .

إن دولة بمثل هذا التنوع البشرى والطبيعى والاتساع الجغرافى تفوق قدرة أى سلطة بشرية مركزية ولابد أن يعتريها الانقسام والتفرق فتنفصل الأجزاء النائية المتطرفة البعيدة عن المركز أى العاصمة التى لا يمكن الآن، - وفى ظروفنا الراهنة - مجرد التكهن بمكانها، ثم من الذى سيقوم بتحقيق هذه الوحدة الاندماجية ؟! وكيف ؟!!

إن تحقيق هذه الوحدة الاندماجية بقوة السلاح أمر محكوم عليه بالفشل، فضلا عن أنه أمر لا يفكر فيه أحد على محمل الجد، فمن يجرؤ على الزعم بأنه يستطيع أن يفرض بقوة السلاح سلطانه على مساحة هائلة تسمى العالم الإسلامى ؟!!!

ولم يحدث فى التاريخ أبدا أن سيطرت دولة الخلافة الإسلامية على كل العالم الإسلامى، حتى دولة الخلافة العثمانية التى تعد الأكبر فى تاريخ الإسلام من حيث مساحة الأرض الواقعة تحت سلطانها، فقد ظلت أجزاء لا يستهان بها من العالم الإسلامى خارج نطاق سيادتها مثل إندونيسيا وإيران والمسلمون فى الهند .

وإذا كان الإسلام رسالة إلهية تتوجه إلى جميع البشر فهل يمكن تصور قيام دولة مركزية تبسط سيادتها على كامل الكرة الأرضية ؟!!!

ثم إن المطالبة بمحو "القوميات" وإذابتها فى الهوية الإسلامية أمر يتصادم مع النص القرآنى الذى أوضح أن جعل الناس شعوبا وقبائل عمل إلهى لا يمكن التعامى عنه أو التقليل من شأنه، كما أن اختلاف الألسنة والألوان يعد من آيات الله الدالة على قدرته فكيف يمكن المطالبة دينيا بمحو آية من آيات الله فى الخلق ؟!!

والنص القرآنى الحكيم يتحدث عن طوائف من المؤمنين تتقاتل، مما يلوح إلي أنهم قد ينتمون إلى شعوب أو دول قومية مختلفة، ومن ثم فإن القرآن يشير إلى أمة إسلامية تضم عددا من الدول والمطلوب دينيا توحيد الأمة ، وليس الدولة أو السلطة المركزية.

إن الصياغة المثلى للوحدة الإسلامية على المستوى السياسى، وهى الصياغة الأقرب إلى مفهوم النص القرآنى هى منظمة تضم الدول الإسلامية ذات السيادة القائمة

على مفهوم الدولة القومية، على النحو الذى أشرنا إليه سابقا ولكن لا يمكن لمثل هذه المنظمة المنشودة أن تكون ذات أثر يذكر فى التعبير عن هوية الأمة وتحقيق الوحدة إلا إذا عبرت بالفعل أنظمة الحكم المشتركة فى عضوية تلك المنظمة عن هوية الشعوب الإسلامية، ومحال أن يتم هذا قبل إعادة الاعتبار إلى مبادئ البيعة والعدل والشورى!!!

ولاشك فى أن الحدود السياسية المصطنعة التى رسمها بخبث ودهاء الخبراء الاستعماريون قبل الحصول على الاستقلال، وما وُضِعَ فيها من ألغام يعمد الغرب الاستعمارى إلى تفجيرها بين الحين والآخر .... لا شك فى أنها قد مزقت العالم الإسلامى إلى قطع متنافرة متصارعة، ولكن الأسوأ من تلك الحدود هو المفهوم الغربى "للقومية" الذى اعتنقته النخبة الحاكمة التى سلمت إليها مقاليد البلاد بعد رحيل الاستعمار، ذلك المفهوم الذى وضع الهوية القومية ضد الهوية الدينية الإسلامية، وأقام تناقضا موهوماً بين الانتماء الدينى والانتماء القومى واضعا الإنسان المسلم المعاصر فى مأزق لا محل له من العقل فإما أن يكون مواطنا أو مسلما ؟!

ومحال أن تتحقق وحدة الأمة الإسلامية -كما يعلمنا القرآن - قبل الرجوع إلى "الرؤية" الشاملة للإسلام والإيمان بكل ما جاء فى كتاب الله باعتباره الصراط المستقيم فى كافة مجالات الحياة والتخلى عن تبعيض القرآن وتجزىء الشريعة، لأن تلك "الرؤية" الشاملة المنشودة هى التى ستقضى على التعصب المذموم والتنازع البغيض بين المذاهب والفرق والطرق وستحقق التنوع فى إطار الوحدة .

إننا لسنا فى حاجة إلى إدماج المسلمين جميعا فى دولة سياسية مركزية، بل نحن فى أمس حاجة إلى توحيد مفهومهم للإسلام وتقريب وجهات نظرهم فى القضايا المختلفة وتدريبهم على قبول تنوع الآراء فيما يجوز الخلاف فيه، لأن الحرية التى تفضل الله بمنحها للإنسان لا تعنى فى النهاية شيئا إلا الحق فى الاختلاف وهذا من مقتضيات الشورى!!!

إن المراد هو تحقيق وحدة العمل الإسلامى كما يقول الدكتور / جمال حمدان(١٩٣) بمعنى تنفيذ برنامج (خطة عملية) لتحقيق وحدة الأمة الإسلامية بتنشيط التعاون والتكامل بين الدول الإسلامية، ولابد حينئذ من وضع أهداف محددة يجمع عليها كل المسلمين لأنها تمثل الطموحات الكبرى للأمة الإسلامية، ومن ثم يسعون جميعا مجتهدين بباعث من أنفسهم لبلوغها .

ولاشك فى أن تحرير فلسطين والقضاء على إسرائيل يأتى على رأس هذه الأهداف القادرة على توحيد جهود كل المسلمين وتحقيق معنى الوحدة الإسلامية، لأن إسرائيل تمثل فى جوهرها تحدى الوجود للعالم الإسلامى وتجسم ذروة الصراع المحتدم بين العالم الإسلامى والغرب !!!

(٤)

هوامـــش وملاحظـــات

١- سورة آل عمران - الآية (١٣٨) .

٢- لمزيد من الإيضاح يراجع كتابنا " القرآن معجزة كل العصور " من منشورات دار الشعب بالقاهرة عام ٢٠٠٢م .

٣- سورة ق - الآية (٨) والمقصود بالعلم القديم هو العلم السابق على ظهورنا فى هذه الدنيا والذى حصلنا عليه من الله في بدء الخلق عندما أنزل " القرآن " أول مرةمن اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا (الأولى) وهو ينشر محتويات اللوح المحفوظ (العلم الإلهى) على صفحات السماوات السبع حين " أوحى فى كل سماء أمرها " (سورة فصلت الآية ١٢) وبيان ذلك يحتاج إلى تفصيل يخرج عن نطاق هذا المجال .

٤- سورة النساء - الآية الأولى .

٥- سورة الحجرات - الآية (١٣)

٦- سورة الروم - الآيات (٢٠-٢٤) .

٧- علينا أن نلاحظ أن لفظ " الاستعمار" نفسه يعبر عن غطرسة الحضارة الغربية ورفضها للآخر حتى أنها تعتبره غير موجود أو هى تعده منعدما إن صح التعبير فعندما يأتى الغزاة " ليستعمروا " أرضا فإنهم بهذا اللفظ / المفهوم يعتبرونها مجرد خرائب وأطلال بلا صاحب أو أرضا بورا بلا مالك ، فالغزاة إذن لا يرون الشعوب أصحاب الأرض الأصليين أو بالأحرى يعملون على إبادتهم باعتبار أن ذلك هو "الوضع الطبيعى" لأرض متروكة بلا مالك قد جاء الغزاة بجيوشهم لتعميرها أو

استعمارها .

٨- يراجع كتاب " المسيح اليهودى ونهاية العالم" - المسيحية السياسية والأصولية فى أمريكا تأليف الأستاذ / رضا هلال - مكتبة الشروق - القاهرة - الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

والعقيدة الألفية تؤمن بعودة المسيح إلى الأرض ليحكم العالم كله من أورشليم (القدس) وأن تلك العودة لا تأتى إلا بعد أن يعود اليهود ؛ شعب المسيح إلى أرضهم الموعودة فى فلسطين وبعد أن يُبْنَى الهيكل اليهودى مكان مسجد الصخرة والمسجد الأقصى . هذا ما تبثه الصهيونية فى الفكر المسيحى وما يعد الأساس الحقيقى للتأييد الأمريكى لإسرائيل باعتبار أن قيامها كدولة تجمع اليهود ؛ شعب الله (المسيح) فى داخل حدودها واستيلائها على القدس عام ١٩٦٧ إنما يعد تحقيقاً للنبؤات التوارتية وإرهاصاً بالعودة المنتظرة للمسيح .

٩- سورة التوبة - الآية (٣٣) . وسورة الصف الآية (٩) .

١٠- سورة التوبة - الآية (٣٢) .

وقد ذُكِرَتْ نفس الحقيقة ولكن بصياغة أخرى فى الآية الثامنة من سورة الصف حيث يقول الله ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ فقال هنا " ليطفئوا" بدلاً من قوله هناك " أن يطفئوا " وقال هنا " والله متم نوره " بدلاً من قوله هناك " ويأبى الله إلا أن يتم نوره "

لقد كُرِّرَ النص فى الآيتين (٣٣) من سورة التوبة و (٩) من سورة الصف ، ففى الموضعين جاء بنفس الكلمات ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ ولكنه مَهَّد للموضع الأول بالآية التى يقول فيها ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ ومهد

للموضع الثانى بقوله ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ فلماذا لم يكرر صياغة التمهيد فى الموضعين ؟!! ما هى دلالة الإتيان بصياغتين تكادان أن تتماثلا ؟!!! الدلالة أن محمداً الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان ينطق بما يسمع وحياً على نحو بالغ الدقة دون أدنى قدرة أو رغبة فى إحداث تعديل على النص الذى يتلقاه سماعاً، كما أن مجىء هذا الترتيب فى المصحف الشريف - رغم تباعد ما بين الموضعين حيث الأول فى الجزء العاشر والثانى فى الجزء الثامن والعشرين - ليدل دلالة أكيدة على أن ترتيب السور والآيات فى المصحف الشريف على هذا النحو ليشير إلى قدرة تفوق قدرة البشر !! .

١١- سورة البينة - الآيتين (١، ٢) .

١٢- الكفر يعنى الستر أو التغطية وهذا اللفظ يشير إلى أن الناس جميعاً قد تلقوا وحى الله قديما وعرفوا الحقيقة، وأن كلام الله مودع فى أنفسهم، ولكنهم عندما أتوا إلى الدنيا فى هذا الخلق فإنهم قد نسوا فجاء الأنبياء ليذكروهم فمن آمن (صَدَّقَ) استطاع أن يتذكر أما الذين كذبوا واستمروا فى نسيانهم فقد كفروا (ستروا) الحقيقة الكامنة فى نفوسهم .

١٣- سورة البقرة - الآية (١١٣) .

١٤- سورة يوسف - الآية (٧٦) .

١٥- سورة المائدة - الآية (٥٠) .

١٦- سورة النصر - الآية (٢)

١٧- الإسلام الحقيقى (الصادق) يبدأ من الداخل أى من القلب بالإيمان بالقرآن ثم يخرج إلى الظاهر فى صورة الطاعة والالتزام بأحكام الشريعة .

أما الإسْلام الزائف (الكاذب) فيبدأ من الخارج (الظاهر) بإعلان الطاعة والتزام

الأحكام ولكن يظل الداخل (الباطن) يعنى القلب مغلقا مظلما دون أن ينفتح للإيمان **﴿قالت الإعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾** فموقف الأعراب هنا هو الاستسلام والخضوع لحكم الرسول (صلى الله عليه وسلم) باعتباره حاكما دنيويا ، رضوا الدخول فى طاعته كغيره من الحكام ، ولا بديل للبشر عن سلطة حاكمة ولكنهم لم يصلوا بعد إلى الإيمان **﴿ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾** ولكنهم بالطاعة والاستمرار فيها داخل مجتمع تسوده قيم القرآن وتديره أحكام الشريعة سوف يتسرب الإيمان إلى داخل قلوبهم ويصيروا مؤمنين أى مسلمين صادقين ولذلك شجعهم على الطاعة مبينا أنهم سينالون منها نفعا عظيما وأنه (سبحانه وتعالى) عدل لن ينقص من أجرهم على الطاعة شيئا فقال **﴿وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا﴾** وسيغفر لهم ما كان من كفرهم وعصيانهم **﴿إن الله غفور رحيم﴾** (الآية ١٤ من سورة الحجرات) والنفاق هو الإسلام الكاذب أعنى هو إظهار الإسلام بإعلان الطاعة والاستسلام لأحكام الشرع مع إبطان الكفر فى القلب وذلك تحقيقا لمنافع دنيوية أودرءاً لأخطار ، فالمنافق مسلم ظاهرا كافر باطنا ولذلك تجرى عليه أحكام الشريعة فى الدنيا ويعامل معاملة الكافرين فى الآخرة بل هو ﴿فى الدرك الأسفل من النار﴾ وسبحان من له المكر جميعا !!! .

١٨- سورة محمد - الآية (٢٤) .

١٩- سورة الفرقان - الآية (٧٣) .

٢٠- سورة المائدة - الآية (٤٣)

٢١- إنجيل متى الإصحاح ٥ .

والناموس هو توراة موسى والوصايا الصغرى هى أحكام شريعة موسى أما قوله "حتى يكون الكل" ففيه إشارة إلى استمرار الوحى من بعده وظهور النبى الخاتم الذى

يكتمل به البناء أو يكون به الكل ، محمد (صلى الله عليه وسلم) ولكن هذه قضية أخرى .

٢٢- إنجيل متى الإصحاح ٢٣ .

٢٣- سورة المائدة - الآية (٤٦) .

أنظر إلى التأكيد على تصديق التوراة مرتين فى نفس الآية فعيسى نفسه (عليه الصلاة والسلام) جآء مصدقاً للتوراة والإنجيل أيضا نزل مصدقاً للتوراة . فتأمل .

٢٤ - سورة المائدة - الآية (٤٧) .

والفسوق هو النفاق ويحدد القرآن المعنى فى قوله " إن المنافقين هم الفاسقون " (سورة التوبة الآية ٦٧) .

٢٥ - سورة التوبة - الآية (٢٩) .

٢٦ - سورة المدثر - الآيتين (١ ، ٢).

٢٧ - سورة الشعراء - الآية (٢١٤).

٢٨- سورة الحجر - الآية (٨٩) .

٢٩- من سخافات بعض أدعياء الحكمة والزعامة اعتبار أن قول "قل" فى القرآن بمثابة زيادة فى النص ينبغى حذفها من المصحف لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد " قال" ومن تفاهات بعض مشاهير الدعاة اعتبار ورود لفظة " قل " من دلائل الإعجاز حيث تدل على أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان ينطق بما يسمع من جبريل حرفياً دون تغيير كما لو كانت " قل " زائدة، غافلين عن أن معناها هو الأمر بالإبلاغ فما بعدها حقيقة يأمر الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) بإعلانها وإبلاغها للناس .

٣٠- سورة الحجر - الآية (٩٤) .

٣١- راجع معنى الصدع فى " لسان العرب " لابن منظور ص ٢٤١٤ ، طبعة دار المعارف - القاهرة .

٣٢- سورة الأنعام - الآية (٩٢) .

٣٣- سورة الشورى - الآية (٧) وختام الآية ﴿ فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾ يشير إلى التقسيم الذى أحدثه " الصدع " بالقرآن .

٣٤- " أم القرى " تسمية تشير إلى أن مكة هى الأم التى ولدت القرى الأخرى ومن ثم فإنها تُلَوِّحَ إلى أن آدم (عليه السلام) عاش فى مكة ومن هناك تفرقت ذريته فى شتى بقاع الأرض وولدت القرى ، ولذلك وصفت الكعبة بأنها " البيت " الذى يعود الناس إليه عند الحج ، فجميع الناس كانوا فى مكة محمولين فى ظهور آبائهم الأولين الذين هم الأبناء الذين أنجبهم آدم (عليه الصلاة والسلام) أبو جميع البشر . ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس ﴾ (سورة البقرة - الآية ٨٢٥) .

٣٥ - سورة الفرقان - **الآية الأولى** .

٣٦ - سورة الشعراء - الآية (١٦٥) .

و " العَالَمِين " جمع " عَالَم " ومعنى هذا أنَّ الفرد الواحد من الإنسان هو فى حقيقته عالم " كامل من الكائنات ، مما يشير إلى أن الصورة البشرية أو الهيئة الآدمية هى نهاية سلسلة طويلة من أطوار الخلق ، وأن " الصورة الإنسانية " هى ثمرة شجرة الخلق التى أنتجت جذورها وساقها وأفرعها ملايين من الصور لا يحصيها إلا خالقها ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ (سورة الانفطار الآيات ٦-٨) وقوله ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ يعنى فى كل صورة إِنْ شاء أو كلما شاء ضم أجزاءك وأعطاك الهيئة التى بها تُرَى ومعنى

هذا أن الإنسان قد شُكِّلَ فى كل الصور !!! .

٣٧- سورة سبأ - الآية (٢٨) .

٣٨- سورة الأحزاب - الآيتين ٤٥-٤٦ .

٣٩- سورة آل عمران - الآية (١٠٤) .

٤٠ - سورة آل عمران - الآية (١١٠) .

٤١- سورة المائدة - الآية (٥) .

٤٢- من عجيب ما يتحفنا به أدعياء التنوير فى بلادنا المنكوبة بهم محاولتهم الغريبة للتقليل من حتمية وأهمية أن يتم تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية كتعبير عن هوية المجتمع والحفاظ على شخصية الأمة فيشيرون إلى أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) عندما صار أميرا للمؤمنين قد ألغى (كما يزعمون) بند " المؤلفة قلوبهم " من مصارف الزكاة، لأنه رأى أن الإسلام قد صار قويا لا يحتاج إلى تأليف قلوب من "يُشْتَبَه" فى ولائهم، كما أنه (رضى الله عنه) قد ألغى أو أوقف العمل بحد السرقة (قطع اليد) فى عام الرمادة الذى اجتاحت فيه المجاعة الجزيرة العربية، فيزعم أدعياء التنوير التغريبيين أن فى ذلك دليلا على جواز إبطال العمل بأحكام الشريعة دون أن يفقد المسلمون إيمانهم (عقيدتهم)، ويخلصون من هذا الزعم إلى تبرير بل تحبيذ الوضع الراهن الذى يحظر العمل بأحكام الشريعة، خاصة وأنهم يتوهمون ويروجون إلى أن هذا هو طريق التقدم واللحاق بالغرب المتحضر.

- والحقيقة أن الخليفة العادل الحكيم عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قد امتلك رؤية شاملة لدين الحق نبعت من عمق إيمانه ودقة علمه بأحكام الشريعة فهو يعلم أن الضرورة تبيح المحظور كقاعدة فقهية عامة بل إن الله (جل فى علاه) أذن للمسلم أن يعلن عن الكفر إذا وقع عليه الإكراه بالتعذيب الذى قد يفضى إلى الموت ما دام

قلبه مطمئن بالإيمان لأنه فى هذه الحال واقع تحت طائلة الضرورة التى تعنى غريزة حفظ الحياة واللّه (سبحانه وتعالى) لا يقبل أن يظن الإنسان أن الإيمان سبب فى الموت لأن الإيمان فى جوهره هو مصدر الحياة الأبدية، فرعاية وعطفاً على الضعف الإنسانى سمح الله للمؤمن أن يُظْهِرَ الكفر على سبيل التخفف من شدة الألم .

ولما كانت المجاعة من الكوارث التى تفرض حالة الضرورة على الإنسان ويضطر الجائع لامحالة إلى السرقة لتوفير الطعام لنفسه وأهله حفاظاً على الحياة وهذه بالضبط هى حال الضرورة والرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول " ادرءوا الحدود بالشبهات " يعنى أوقفوا العمل بالحدود أو لا تقيموا الحدود، (العقوبات) عند حدوث شبهة فى اقتراف الجناية ولا شك فى أن المجاعة توفر للسارق شبهة الاضطرار أو تكسبه حال الضرورة التى تبيح له اقتراف المحظور دون عقوبة .

إن المضطر لا اختيار له، وتوفر الاختيار وبالتالى وجود القصد فى ارتكاب الجريمة (السرقة)هو جوهر الخطيئة الذى يستحق من أجله الجانى العقوبة (قطع اليد) . هذا ما أدركه عمر بن الخطاب عندما استكشف الحد الشرعى وتأمل فى حكمته ومن ثم فإن تطبيق حد السرقة أثناء المجاعات أمر يخالف العدل (المعروف) الذى يعنى التكليف بالمستطاع فمحال أن يامر الله عباده بما يعجزون عن القيام به، والجوعى لا اختيار لهم ويعجزون عن إمساك أيديهم عن الطعام الذى يسدون به رمقهم ، كما أن تطبيق حد السرقة أثناء المجاعات أمر يتناقض مع الرحمة والرأفة التى تنظر بعين العطف على مواضع الضعف الإنسانى والله (سبحانه وتعالى) صاحب الشريعة رؤوف رحيم .

وكذلك عندما أوقف عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) إنفاق الأموال التى كانت تؤخذ من حصيلة الزكاة لتعطى إلى " بعض المؤلفة قلوبهم " فإنه (رضى الله عنه) كان يجتهد فى إنفاق مال المسلمين أى مال الدولة أو المال العام فى أفضل المصارف التى يرى بعقله أنها تعود بالخير على الأمة، فما دام الإسلام قد صار قوياً

مُمكَنَاً له فى الأرض غير محتاج إلى تأليف قلوب بعض ضعاف النفوس قليلى الإيمان فالأولى إعطاء هذه الأموال للفقراء أو فى سبيل الله (الدعوة والجهاد) .

فإذا كان عمر (رضى الله عنه) قد رأى فى زمنه أنه لا حاجة للإسلام فى المؤلفة قلوبهم، فأوقف إنفاق الأموال عليهم فقد يأتى زمن آخر يرى فيه الحاكم الرشيد الحريص على صالح أمته ضرورة تأليف بعض القلوب فيقرر إنفاق بعض أموال الزكاة فى هذا المصرف، وفى كل الأحوال فإن فريضة الزكاة تظل قائمة ومصارفها الشرعية معلومة وجبايتها رسمياً عمل من أعمال السيادة السياسية يمارسها الحاكم داخل نطاق الدولة الإسلامية .

لقد كان عمر(رضى الله عنه) يجتهد فى إنزال أحكام الشريعة على وقائع الحياة المتغيرة على النحو الذى يعتقد ويرى أنه الأفضل للأمة، فلا حجة إذن لأدعياء التنوير فى محاولتهم الفاشلة المضللة !!! أحكام الشريعة ثابتة لأنها مبادئ وقواعد عامة والفقه هو محاولة العقل البشرى لتنزيل تلك المبادئ والقواعد على وقائع الحياة المتغيرة والبحث الدؤوب عن " جوهر " الشريعة الكامن وراء الأحكام، ولذلك ينبغى أن يتطور الفقه ولا يتجمد فى قوالب ثابتة لأن الحياة الدنيا تتغير من عصر إلى عصر ومن مكان إلى آخر والخليفة العادل أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) كان فقيها مجتهدا وهو يقدم لنا النموذج الذى يجب أن يُقْتَدَى به فى تعامل الإنسان المؤمن مع أحكام الشريعة الإسلامية، وليس من الاجتهاد بالطبع الحديث عن وحشية الحدود الإسلامية، وأنها لم تعد تليق بمستوى الحضارة المعاصرة، أو الحديث عن "تاريخية " النصوص القرآنية وعن تجاوز الزمن لأحكام الشريعة !!!

٤٣- " العلمانية " ترجمة عربية لكلمة Secularism باللغة الإنجليزية وتعنى سلطة الدنيويين أو حُكْم رجال الدنيا (العالم) فى مقابل حكم رجال الدين أو الكهنوتيين . ولا يمكن فهم معناها الحقيقى فى رأيى إلا بفهم العقيدة المسيحية فى

الثالوث المقدس الأب والابن والروح القدس، وذلك لأن الروح القدس أى الإقنوم الثالث من الثالوث المقدس كان الواسطة بين الأب (الإقنوم الأول) والابن (الإقنوم الثانى) الذى هو المسيح فالروح القدس هو وسيلة ظهور الأب فى الابن أى ظهور الله متجسدا فى صورة المسيح، . وبعد اختفاء المسيح من الدنيا وعودته إلى الأب كما يؤمن المسيحيون - فإن " الروح القدس " وهو الإرادة الإلهية فى الظهور يظل حاضرا باقيا، لأنه بزعمهم إقنوم إلهى لا يفنى، فأين يوجد فى الدنيا أو على من ينزل إذا كان الابن (المسيح) قد عاد إلى أبيه ؟! وكانت الإجابة ينزل على خليفة المسيح أى من يقوم بعمل المسيح فى الدنيا أى " البابا " رأس الكنيسة، ومن ثم فقد صار " للبابا " جانب أو وجه إلهى إذ قد أصبح مؤيدا بالروح القدس، وهكذا صار "البابا " رأس الكنيسة معبراً عن الإرادة الإلهية واستحوذ بهذه العقيدة على سلطة إلهية أخضعت له الجميع لأن أوامره هى أوامر الله ذاته .

ولما كانت الملوك فى جميع أطوار التاريخ حتى العصر الحديث تحكم بما يسمى التفويض الإلهى أى أن الله قد فوضهم فى الحكم، ولما كان البابا فى العقيدة المسيحية هو المعبر عن إرادة الله فهكذا أصبح " البابا " هو المعتقد أنه الذى يفوض الملك أو الإمبراطور فى الحكم، أىْ أنَّ البابا هو الذى يعطى الشرعية للملك أو الإمبراطور، فهو الذى يجلسه على العرش وهو الذى يملك عزله بسلب الشرعية منه . وهكذا صار " الباباوات " هم المتحكمون فى كل شئ وبسلطة إلهية لا يمكن مناقشتها، وعاثوا فى الأرض فساداً ، وامتلأ تاريخ أوربا بفظائع وفضائح " الباباوات " الذين أفسدوا الحياة السياسية وأعاقوا تقدم العلم وعرقلوا مسيرة الإنسان بصفة عامة . ولم يكن أمام أوروبا من طريق للنهوض بعد أن اتصلت بالحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى إلا بتقويض سلطة "البابا" وتقليم أظفاره وكف يده عن التدخل فى شئون السياسة والمجتمع بصفة عامة وتحديد نطاق سلطته

داخل الكنيسة يعنى فى المعبد حيث تقوم الصلة الخاصة بين الإنسان وإلهه . هاهنا فى عصر التنوير بأوروبا نشأت " العلمانية " التى تعنى منع الكنيسة، وعلى رأسها البابا من التدخل فى شئون الحكم والسياسة، باعتبار أن تلك الشئون تخص الدنيا (العَالَم) ولا علاقة لها بالصلة الخاصة بين الإنسان وإلهه، تلك الصلة التى تجد مكانها فى داخل الكنيسة (المعبد) فقط، ولا مجال لها فى تسيير شئون الدنيا التى يجب أن تعطى للرجال العَلْمَانيين أى الذين لا ينتمون إلى سلك الكهنوت (الإكليروس)، وبالطبع فإن العَلَمانيين سوف يُسَيِّرون أمور السياسة والحكم طبقاً للمصالح كما يراها العقل. والعَلَمانيون كانوا يرون أنفسهم أقرب إلى نص الإنجيل لأن المسيح قال " مملكتى ليست من هذا العالم " وقال "إعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله " ففصل بين ما لقيصر وبين ما لله . وأصبحت العلمانية تعنى اختصاراً فصل الكنيسة التى هى لله عن الدولة التى هى لقيصر . ولكن مع شيوع وعلو صوت النزعات الإلحادية فى الفكر الأوروبى، صارت العلمانية توحى بمعنى ترك الدين أو عدم الاعتراف بقدسية النصوص الدينية أو رفض الرجوع إليها للاسترشاد بها فى شئون الحياة الدنيا . وأياً ما كان الأمر، فإن ذلك التطور التاريخى الذى ظهرت " العلمانية " فى سياقه يخص التجربة الحضارية لأوروبا، ولا علاقة له بالحضارة الإسلامية لأن العقيدة الإسلامية ليس فيها ثالوث مقدس ولا رجال كهنوت ولا "بابا" يحل عليه الروح القدس .

وإذا كانت مأساة التاريخ الأوروبى هى طغيان رجال الدين الذين أفسدوا الحياة السياسية، فإن مأساة التاريخ الإسلامى هى طغيان رجال السياسة الذين حاولوا دوماً تسخير الدين لخدمة مصالحهم الفردية، مستعينين فى ذلك بعلماء دين وفقهاء عاشوا لخدمة السلطة على خوف دائم من السيف وطمع زائد فى الذهب .

إن جوهر " العلمانية " الحقيقية هو هدم أسطورة التفويض الإلهى، تلك الخرافة التى كان يستغلها الطغاة للصعود والبقاء على كرسى الحكم، لأن الله (سبحانه وتعالى) لم يفوض أحداً فى الحكم، وبذلك تضع العلمانية الحقيقية أساس الديموقراطية التى تعنى أن الأمة هى مصدر السلطة وهى التى تفوض من تختاره فى الحكم ، وهو المعنى الذى عبر عنه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة " بالبيعة " ، كما أن جوهر العلمانية الحقيقية هو الاحتكام إلى العقل فى شئون الدنيا وهو المعنى الذى عبر عنه من أوتى جوامع الكلم (صلى الله عليه وسلم) حين قال "أنتم أعلم بأمور دنياكم" . هذه هى "العلمانية" الحقيقية وهى لا تتعارض مع تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية باعتبار أن هذا هو اختيار الشعب ولكن أدعياء التنوير فى بلادنا يتحدثون عن علمانية زائفة تعنى اللا دينية أو الإلحاد والسؤال الحقيقى هو لماذا الحديث عن " العلمانية " فى مجتمع إسلامى ؟!!

إن نخبتنا المثقفة والحاكمة تتكلم عن العلمانية بمعنى مغشوش أو مزور وهو فصل الدين عن الدولة حيث لا كنيسة فى الإسلام وتقصد التخلى عن الإسلام وإعطاء ظهرنا لأحكام الشريعة وتسيير شئون حياتنا بمحاكاة الغرب الذى يجب أن نتخذه قدوة تحتذى حتى نلحق بركاب التقدم وبالطبع فلن نظفر على هذا الطريق إلا بالبقاء فى أغلال التبعية وسجن التخلف !!

٤٤- لا توجد غير دولتين إسلاميتين فقط تعلنان تطبيق أحكام الشريعة وهما المملكة العربية السعودية وجمهورية إيران الإسلامية والمدهش أن الأولى سنية المذهب والثانية شيعية مما يبرهن على حقيقة أن الإسلام فى " جوهره " واحد .

٤٥- سورة الشورى - الآية (٥٢)

٤٦- سورة البقرة - الآية (١٤٣) .

٤٧- أعتقد أن التشبيه القرآنى بين الكعبة والأمة يقطع السبيل على من يتوهم ويزعم أن " الوسطية " هنا تعنى الاعتدال وتحاشى المبالغة والتشدد !!

٤٨- سورة الأنفال - الآية (٤٢) .

٤٩- سورة التوبة - الآية (٦) .

٥٠- سورة النحل - الآية (١٢٥) .

٥١- سورة الأحزاب - الآية (٣٤) .

٥٢- سورة الفتح -الآية (٢٨) .

٥٣- التفكر هو الاستدلال بالظاهر المشهود على الباطن المستتر عن الحواس وهو يعنى الاستدلال بالمخلوقات على الخالق . والتدبر هو إمعان نظر العقل فى الشىء وتقليب الأمر على أوجهه المختلفة ومعاودة النظر فيه مرة بعد أخرى حتى تنجلى الحقيقة .

٥٤- سورة آل عمران - الآية (٦٤) .

٥٥- سورة العنكبوت - الآية (٤٦) .

٥٦- سورة الحج - الآيتان (٣٩- ٤٠) .

٥٧- راجع معنى " دفع " فى لسان العرب . ص١٣٩٣ طبعة دار المعارف بالقاهرة

٥٨ - سورة البقرة - الآية (١٩٠) .

٥٩ - سورة البقرة - الآية (٢١٧) .

٦٠ - سورة البقرة - الآية (٢١٦) .

٦١ - سورة البقرة - الآية (١٩٣) .

٦٢ - سورة البقرة - الآية (٢١٢) .

٦٣ - سورة الممتحنة - الآية (٨).

٦٤ - سورة لقمان - الآيتين (١٤ ، ١٥).

٦٥ - سورة النساء - الآية (٧٥).

٦٦ - سورة الممتحنة - الآية (٩).

٦٧ - سورة النساء - الآيات (٩٧ - ٩٩).

٦٨ - سورة النحل - الآية (١٠٦).

٦٩ - سورة الأنفال - الآية (٦١).

٧٠ - سورة الممتحنة - الآية (٧).

٧١ - سورة يونس - الآية (٩٩).

٧٢ - سورة الكهف - الآية (٢٩).

من لطائف هذه الآية أن يكون المقصود بالإشارة هو النبى (ﷺ) الذى نزل عليه هذا القرآن فيكون المعنى «وقل أنا الحق من ربكم».

٧٣ - سورة البقرة - الآية (٢٥٤).

٧٤ - سورة التغابن - الآية (٢).

٧٥ - سورة البقرة - الآية (٢٥٦).

٧٦ - سورة الحج - الآية (٧٨).

٧٧ - سورة آل عمران - الآية (١٣٩).

٧٨ - جدير بالذكر أن المملكة العربية السعودية قد جردت «أسامة بن لادن» من الجنسية السعودية منذ سنوات واعتبرته أحد المنشقين الخارجين على نظام الحكم فى المملكة وذلك حتى لا تتحمل المشاركة - بأى قدر - فى المسئولية عن أعماله !!!

٧٩- يراجع فى هذا الموضوع كتاب " التهديد الإسلامى - خرافة أم حقيقة ؟ تأليف جون - ل - إسبوزتيو وترجمة الدكتور / قاسم عبده قاسم (الطبعة الثانية) من نشر دار الشروق بالقاهرة عام ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م .

٨٠- يراجع كتاب " المسيح اليهودى ونهاية العالم " - المسيحية السياسية والأصولية فى أمريكا " تأليف الأستاذ / رضا هلال (الطبعة الثانية) مكتبة الشروق بالقاهرة - ٢٠٠١ م.

٨١- انظر ترجمة كتاب " ماذا يريد العم سام ؟ " التى أصدرتها الشروق، وقد عرض الكتاب الدكتور / سعيد اللاوندى فى جريدة الأهرام تحت عنوان " لا صوت يعلو فوق صوت مصلحة أمريكا " ، ثم نشر المقال فى كتابه " القرن الحادى والعشرون هل يكون أمريكيا ؟ " - دار نهضة مصر - القاهرة - يناير ٢٠٠٢ م.

٨٢- أصدرت دار الهلال بالقاهرة ترجمة كاملة لكتاب " الفرصة السانحة " بقلم الأستاذ / أحمد صدقى مراد عام ١٩٩٢ .

٨٣- " الفرصة السانحة " - ص ١٣٥

٨٤- نقلا عن كتاب " التهديد الإسلامى خرافة أم حقيقة " .

٨٥- لاشك فى أن تيار الإحياء الإسلامى الذى يتخذ من " الحضارة الإسلامية " نموذجا يقتدى به ومثلا أعلى يهتدى به يعود إلى بدايات القرن العشرين الميلادى وقد انبعث كرد فعل لسياسات التغريب التى كانت تمارسها السلطة الاستعمارية وقتذاك وقد ظل هذا التيار فاعلا وحاضرا فى المشهد السياسى فى العالم الإسلامى حتى جاء وقت التحرر " الاسمى " ، أو الاستقلال الظاهرى من السلطة الاستعمارية بانتقال الحكم إلى " أهل البلاد " ، أو أبناء المستعمرات، ولكن السلطة الاستعمارية الغربية كانت شديدة الحرص على تسليم مقاليد الحكم لنخبة من أهل المستعمرات تتخذ من

الحضارة الغربية مثلا أعلى يُهْتَدَى به، ونموذجا يُقْتَدَى به، قد غُسِلَتْ أدمغتها من ثقافتها القومية الإسلامية، ومن ثم فقد حرصت الحكومات الوطنية بعد الاستقلال على تبنى سياسات التغريب بادعاء أنها تقود المجتمعات الإسلامية على طريق النهضة لعلها تلحق بركب التقدم الغربى، وكانت شديدة العنف مع تيار الإحياء الإسلامى الذى تم تهميشه، وإخراس صوته بيد الاستبداد السياسى، والبطش الغليظ فانزوى مكبوتا فى باطن المجتمع، وفى قلب السجون ممنوعا من الخروج إلى النور حتى استبان عجز هذه الحكومات الوطنية بظهور فشل تجارب التنمية التى قادتها على طريق محاكاة الغرب ، وذلك فى الثلث الأخير من القرن الميلادى العشرين، ولا شك فى أن فضيحة يونيه ٦٧ المعروفة باسم النكسة كانت إشارة البداية لخروج تيار الإحياء الإسلامى من الظلمات، وعودته إلى النور فى قلب حركة المجتمعات الإسلامية.

٨٦- لا شك فى أن استعمال تلك المصطلحات مثل الإسلام الأصولى والإسلام السياسى والإرهاب الإسلامى ليس إلا نوعاً من أساليب تزييف الحقيقة، وشكلاً من أشكال الخداع، وبغض النظر عن الخطأ اللغوى فى تعبير الإسلام الأصولى لأن اللغة العربية لا تنسب إلى الجمع بل إلى المفرد، فالصواب أن نقول الإسلام الأصلى وليس الأصولى ... بغض النظر عن هذه القضية اللغوية فإن هذه التعبيرات تدل على الميل الغربى الدائم لإقحام مفاهيم غربية نشأت فى سياق الحضارة الغربية المسيحية على تاريخ الإسلام الذى لا تنتمى له تلك المفاهيم متغافلين أو متعامين عن الاختلافات الجوهرية بين الحضارتين ؛ الإسلامية والمسيحية (الغربية) .

والأصولية تيار فكرى نشأ فى "المسيحية" "يدعو إلى الرجوع إلى " الأصول " الموجودة فى العهد القديم يعنى أسفار التوراة وكتب الأنبياء السابقين على ظهور المسيح، فهو يدعو إلى تأسيس الإيمان المسيحى على أصول العهد القديم، وليس فى الإسلام عهد جديد وعهد قديم لأن "القرآن" يختلف جوهرياً عن الكتاب المقدس !!.

أما تعبير " الإسلام السياسى " فهو محاولة خبيثة للإيحاء بان هناك نوعين من الإسلام وديانتين إسلاميتين مختلفتين ؛ الأولى أو الأصلية غير سياسية أى أنها لا شأن لها بأمور السياسة وشئون المجتمع، أما الثانية أو الطارئة فإنها سياسية تتدخل دون وجه حق فى شئون المجتمع والسياسة . وبالطبع فالنوع الأول مقبول ومطلوب أما الثانى فإنه مكروه وغير مطلوب من وجهة النظر الغربية، ومن ثم فهذا التعبير (الإسلام السياسى) ليس إلا دعوة غربية للمسلمين بالتخلى عن التدخل فى شئون السياسة، وضبط الحياة الاجتماعية من خلال رؤية إسلامية، مع الزعم بأنهم رغم هذا لن يفقدوا إيمانهم، أو هويتهم لأنهم سيكونون حينذاك متمسكين بالنوع الأول الأصلى غير السياسى، أما التدخل فى السياسة باسم الإسلام أو بدافع من التمسك بالنوع الثانى الطارئ غير الأصلى فيعد من وجهة النظر هذه نوعاً من التخلى عن الديانة الحقيقية غير السياسية. إنه تلاعب بالألفاظ من أجل إقحام مفهوم " العلمانية الغربية فى سياق الإسلام .

وتعبير الإرهاب الإسلامى فمثله مثل تعبير القنبلة الإسلامية والرعب الإسلامى وغيرها من الألفاظ التى اخترعت لإلصاق تهم الإرهاب والعنف والدموية ،... بالإسلام .

أما ورود تلك المصطلحات على ألسنة وأقلام مثقفينا من أهل التغريب دون تدقيق ولا تمحيص فيدل دلالة أكيدة على تمتع هؤلاء المثقفين بقدرة على المحاكاة تفوق قدرة القرود !!!

٨٧- أنظر الفصل الخامس من كتاب " الفرصة السانحة "

٨٨- كتاب " التهديد الإسلامى - خرافة أم حقيقة ؟ " صـ ٢٢٩ .

٨٩- كتاب " التهديد الإسلامى - خرافة أم حقيقة ؟ " صـ ٢٩٩ .

٩٠- كتاب " التهديد الإسلامى - خرافة أم حقيقة ؟ " صـ ٢٩٩ .

٩١- كتاب " التهديد الإسلامى - خرافة أم حقيقة ؟ " صـ٣٠٦ .

٩٢- كتاب " القرن الحادى والعشرون ... هل يكون أمريكيا ؟"

٩٣- صراع الحضارات فى القرن الحادى والعشرين ودور الحضارة الإسلامية فى هذا الصراع .

تأليف د / أحمد شلبى - مكتبة نهضة مصر - الطبعة الثانية .

٩٤ - كتاب " التهديد الإسلامى - خرافة أم حقيقة ؟ " صـ٣٠٧ .

نقلا عن مقال للصحفى البارز " شارلز كراوتهامر " فى جريدة واشنطن بوست فى ١٦/٢/١٩٩٠ .

٩٥ - كتاب " القرن الحادى والعشرون هل يكون أمريكيا ؟"

٩٦ - المصدر السابق .ص ٥ .

٩٧ - المصدر السابق .ص ٤ .

٩٨ - المصدر السابق .ص ٩٦ .

٩٩- كتاب " أمريكا طليعة الانحطاط " تأليف روجيه جارودى ، ترجمة عمرو زهيرى، دار الشروق - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢م .ص ٢٤١-٢٤٤ .

١٠٠- كتاب " أمريكا طليعة الانحطاط "، ص ١٩٥ .

١٠١- كتاب " التهديد الإسلامى - خرافة أم حقيقة ؟ " صـ٣٠٦ .

١٠٢- " صمويل هنتنجتون " هو أستاذ كرسى إيتون لعلم الحكومات (أساليب الحكم) بمعهد أولين للدراسات الإستراتيجية التابع لجامعة هارفارد وقد قدم محاضرة ثم نشرت كمقالة أكاديمية فى دراسة كلف بإجرائها المعهد المذكور فى موضوع "

التغيير فى مناخ الأمن والمصالح القومية الأمريكية " بعنوان " صدام الحضارات "، وكان ذلك فى صيف عام ١٩٩٣ ، وقد أحدثت المحاضرة (المقالة) دوياً هائلاً، وتم الترويج لها فى كافة أنحاء العالم، ثم وسع " صموئيل هنتنجتون " موضوع محاضرته فى كتاب نشرة عام ١٩٩٦ م بعنوان " صدام الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمى" ، وقد قامت دار سطور بالقاهرة بترجمة هذا الكتاب بقلم الأستاذ / طلعت الشايب ونشرتها عام ١٩٩٨ ، والنصوص التى اقتبسها هنا فى هذه الدراسة مأخوذة من الترجمة التى قام بها الأستاذ / محمد جلال كشك للمحاضرة / المقالة سالفة الذكر ، ونشرها كملحق لكتابه الرائع " دراسة فى فكر التبعية " مع تعليقات له وكذلك على النصوص التى أوردها الدكتور / ميلاد حنا فى كتابه " قبول الآخر " (الطبعة الثالثة عام ٢٠٠٠) والنصوص التى وردت فى كتاب " التهديد الإسلامى خرافة أم حقيقة" .

١٠٣- كتاب " قبول الآخر " ص ٦٤ وكتاب " قراءة فى فكر التبعية " ص ٤٣٠ .

١٠٤- " التهديد الإسلامى خرافة أم حقيقة " ص٣١٢ .

١٠٥- كتاب " التهديد الإسلامى - خرافة أم حقيقة ؟" ٣١٤ .

١٠٦- المصدر السابق . ص ٣٠٢ .

١٠٧- المصدر السابق . ص ٨١ .

١٠٨- كتاب " الإسلام فى معركة التغريب " تأليف الأستاذ / أنور الجندى .

١٠٩- يراجع كتاب "الإسلام ديانة فى تصاعد " تأليف الدكتور / مراد هوفمان - دار الشروق -القاهرة .

١١٠- " جذور الهياج المسلم " نقلاً عن كتاب " التهديد الإسلامى خرافة أم حقيقة " . ص ٣١٠ .

١١١- كتاب " القرن الحادى والعشرون هل يكون أمريكياً " - ص ١٠٨ .

١١٢- كتاب " أمريكا طليعة الانحطاط " تأليف روجيه جارودى - ترجمة عمرو زهيرى - دار الشروق - القاهرة .

١١٣- كتاب " الإسلام فى معركة التغريب " تأليف الأستاذ / أنور الجندى .

١١٤- من لطيف مكر الله أنْ كان هذا سببا فى إقبال آلاف من الأمريكيين على شراء نسخ من ترجمة القرآن الكريم، ولا يساورنا أدنى شك فى أن هذا سوف يؤدى إلى إيمان كثير من الأمريكيين، كما سيدفع كثيرين إلى مراجعة أنفسهم وإعادة فحص القيم التى يؤمنون بها " والله متم نوره ولو كره الكافرون " .

١١٥- سورة التوبة ، الآية ٣٣ - وسورة الصف - الآية ٩ .

١١٦- سورة الفتح - الآية ٢٨ .

١١٧- سورة النساء - الآية ٦٥ .

١١٨- يراجع كتاب " المسيح اليهودى ونهاية التاريخ " .

١١٩- كتاب " الفرصة السانحة " الفصل الخامس .

١٢٠- كتاب " قراءة فى فكر التبعية " الملحق الخاص بالتعليق على محاضرة " صدام الحضارات " .

١٢١- المصدر السابق .

١٢٢- كتاب " رؤى إسلامية معاصرة " - كتاب العربى - الكويت .

١٢٣- سورة النساء - الآية ٥٨ .

١٢٤- سورة المائدة - الآية ٤٥ .

١٢٥- سورة المائدة - الآية ٤٤ .

١٢٦- سورة البقرة - ٢١٧ .

١٢٧- سورة الأعلى - الآية ١٧ .

١٢٨- سورة المائدة - الآية ٤٧ .

١٢٩- سورة آل عمران - الآية ١٥٩ .

١٣٠- سورة الشورى - الآية ٣٨ .

١٣١- تراجع الآيات ٣٦ - ٤٠ من سورة الشورى .

١٣٢- قوله (سبحانه وتعالى) : ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم**﴾ يعنى فلولا رحمة صدرت من الله قبل خلق السماوات والأرض وهيأتك لتكون نبيا رسولا فجعلتك رؤوفا رحيما محبا للناس لين الجانب لأصحابك وجعلتهم يتقبلونك ويطيعونك ويحبونك ... لولا تلك الرحمة القديمة " ما لنت لهم " فتذكر سبق فضل الله عليك وتواضع " واخفض جناحك للمؤمنين " .

إن حرف " ما " فى قوله (سبحانه وتعالى) «فبما» يشير إلى تلك الرحمة السابقة القديمة ويعطى معنى " لولا " الذى يفيد حصر إسناد الفضل فى تهيئة النبى للرسالة بجعله ليناً لأصحابه ولأمته من بعدهم إلى تلك الرحمة، ومن أوقح ما تجرأ به بعض أصحاب التفسير من أهل البلاغة ادعاؤهم أن " ما " فى قوله (سبحانه وتعالى) "فبما " زائدة (!!) لأن المعنى المقصود هو فبرحمة من اللّه لنت لهم !!! .

١٣٣ - كتاب " التنوير الزائف " تأليف الدكتور / جلال أمين . سلسلة اقرأ (٦٤٠) دار المعارف بالقاهرة - ١٩٩٩ . ص ١٢-١٤ .

١٣٤ - ولم لا وقد أصبح عدد لا بأس به من صناع القرار فى العالم الإسلامى من الشواذ جنسياً فمنهم الحكام والوزراء والمشاهير من رجال الفن والإعلام والكتاب

والصحفيين !!! .

١٣٥ - علينا أن نقارن هذا الموقف الحكومى المصرى بموقف دولة إسرائيل التى " تبالغ " فى احترام يوم السبت باعتباره يوماً مقدساً اختاره " يهوه " إله إسرائيل لشعبه لكى يخصصوه للعبادة فقط ويمتنع عليهم القيام بأى عمل دنيوى فى هذا اليوم المقدس.

ولقد أضاف اليهود إلى هذا اليوم محظورات كثيرة جعلت ممارسة الحياة فى يوم السبت عبئاً ثقيلاً مما دفع ببعض المعلقين إلى لوم رئيسة الوزارة الإسرائيلية السيدة"جولدا مائير " بسبب هذا الإفراط فى حفظ يوم السبت الذى يعتبر رمزاً لحفظ الشريعة ومجد الرب فى الشعب . فقالت المرأة الحكيمة التى أذاقت العرب والمسلمين عار الأبد عندما انتصر جيشها على ثلاث دول عربية مجتمعة واستولى على " القدس الشريف بسهولة يندى لها جبين أى مسلم لم يزل يحوى فى قلبه ذرة من الإيمان وشعور المسلم بالكرامة ... " قالت : إن إسرائيل لا تحفظ السبت بل السبت هو الذى يحفظ إسرائيل " مشيرة بهذا التعبير البليغ إلى الحقيقة الدامغة التى يتعامى عنها ضحايا ومشوهو حرب التغريب، والتى تقول : إن الدين هو أساس التكوين والبناء لأى مجتمع جدير بالإنسان . لقد وصلنا إلى الحال التى لا يرى فيها أصحاب الجلالة والفخامة من الملوك والرؤساء العرب والمسلمين أى غضاضة فى أن يعقدوا اجتماعاتهم الرسمية ومؤتمراتهم الصحفية فى يوم الجمعة وأن " يرطنوا " باللغة الإنجليزية والفرنسية للتباهى بأنهم يعرفون تلك اللغات الأجنبية !!! .

١٣٦ - راجع كتاب " أقنعة العولمة السبعة " للدكتور / نبيل راغب - دار غريب - القاهرة .

١٣٧ - "التنوير الزائف" ، ص ١٥ .

١٣٨- " مالك بن نبى " مفكر سياسى جزائرى كان لاجئا سياسيا فى القاهرة فى فترة الخمسينات وعاش متنقلا بين الجزائر ومصر وفرنسا . كتب عدة دراسات هامة يجمعها عنوان عام هو " مشكلات الحضارة " ومن كتبه " شروط النهضة" و«مشكلة" الأفكار فى العالم الإسلامى " . و " مشكلة الثقافة " ، و " فكرة كومنولث إسلامى "" الظاهرة القرآنية "و«مذكرات شاهد قرن ». "سيرة ذاتية" فى جزئين، وغيرها ومما يؤسف له أن هذا الكاتب المبدع لم يلق التقدير الذى يستحقه فى حياته ولا بعد وفاته رغم أنه أحد قلة قليلة من الكتاب والمثقفين المسلمين الذين يستحقون هذا الاسم !!!.

١٣٩- " تحرير المرأة فى عصر الرسالة " - دراسة جامعة لنصوص القرآن الكريم ونصوص صحيحى البخارى ومسلم - تقع فى ستة أجزاء، حاول فيها المؤلف الأستاذ/ عبد الحليم أبو شقة . دراسة كل القضايا المتعلقة بالمرأة على ضوء النصوص الإسلامية الصحيحة الواردة فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وهى دراسة رائدة تبين حقيقة موقف الإسلام الأصيل من المرأة وهى من منشورات دار القلم بالكويت والقاهرة ودبى .

١٤٠- الآية رقم ٨ من سورة الممتحنة التى يقول الله فيها ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

١٤١- الآية رقم ٩ من سورة الممتحنة التي يقول الله فيها ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

١٤٢- نقلا عن مقال للدكتور / محمد عمارة . نشر فى مجلة القاهرة فى ٨ أكتوبر ٢٠٠٢ .

١٤٣- نتمنى على الله أن نتمكن قريبا من إنجاز هذه الدراسة بالغة الأهمية .

١٤٤- لأن المال يطلق أساسا على ما يملكه الإنسان من أشياء أو سلع يمكن بيعها مثل الأغنام والأبقار فإن العرب تطلق عليها اسم " المال " .

١٤٥- يجب التنبيه على أن تجارة العملة أى الصرافة التى تعنى تبادل العملات المختلفة ليست محرمة ، فعندما أبادل كمية من الجنيهات المصرية مقابل كمية من الريالات السعودية مثلا بسعر السوق فإننى لا أرتكب عملا محرما ، وإنما الحرام هو مبادلة مائة جنيه مصرى مقابل مائة وعشرة من الجنيهات المصرية تدفع بعد حين من الزمن لأى سبب من الأسباب أو تحت أى ذريعة ، فهنا يكمن " الربا" ولذلك فإن بيع السلع بثمن أعلى مما تستحقه الآن مقابل تأخير دفع الثمن أى ما يُسمى عُرفا بنظام البيع بالتقسيط (دفع الثمن على أقساط) ليس حراما لأن التبادل هنا يقع بين سلع ونقود فهو يحافظ على وظيفة وطبيعة النقود .

١٤٦- ما هو الربا؟ ولماذا حرم ؟! : علينا أن نتذكر أولا وقبل كل شئ آخر أن النقود قد اخترعت منذ البداية لتكون مقياسا أو معيارا مقبولا لدى أطراف التبادل التجارى لتثمين أو تسعير السلع (والخدمات) ، ولتسهيل التبادل ، لأن المقايضة التى كانت تقوم على التبادل العينى أى تبادل السلع بالسلع كانت تعرقل أو تبطئ التبادل كما كانت تحدث الخلافات نتيجة الاختلاف على تثمين الأشياء .

ونفهم من هذا أن النقود ليست إلا بديلا للسلع ، وهذه هى وظيفتها الاقتصادية الوحيدة التى لا ينبغى لها أن تخرج عنها ، ومن هنا فمن المفترض أن كمية النقود الموجودة فى السوق تكفى لشراء جميع السلع (والخدمات) المتداولة فى نفس اللحظة ، بمعنى أنه لا بد من وجود توازن بين كمية النقود وكمية السلع الموجودة فى نفس السوق فى أى زمن ، وبهذا يجرى التبادل التجارى حقا حرا أى متحررا من أية

ضغوط خارجية آتية من خارج السوق طبقا لقانون العرض والطلب، فإذا زادت السلع نقص أو انخفض سعرها وإذا قل إنتاج السلع زاد أو ارتفع سعرها أى مقابلها (بديلها) النقدى وبالتالى فأى تدخل تحكمى مفروض من خارج السوق للإخلال بهذا التوازن أو لعرقلة قانون العرض والطلب، سوف يؤدى حتما لأزمات اقتصادية لا يتحمل وطئتها إلا الفقراء.

" فما هو الربا " ؟ الربا " هو بيع قدر من العملات النقدية بقدر أكبر من نفس العملات أى مبادلة كمية من النقود بكمية أكبر من نفس النقود بإضافة " زيادة " نقدية لا معنى لها اقتصاديا لأن هذه الزيادة التى فرضها المقرض (= البائع) على المقترض (= المشترى) لم يقابلها زيادة فى كمية السلع الموجودة الآن فى السوق والتى اخترعت النقود لمبادلتها أى التبادل معها، وهكذا تزداد كمية النقود، مع بقاء كمية السلع " ثابتة " ويعنى هذا تقليل قيمة النقود لأن كمية أكبر منها صارت تكافئ نفس الكمية من السلع الموجودة فى السوق لحظة إعطاء القرض أو إجراء المبادلة.

وتقليل قيمة النقود أى قدرتها على شراء السلع " والخدمات " يعنى بالضبط زيادة سعر السلع (والخدمات) أى ارتفاع أثمان الأشياء الذى يسميه علماء الاقتصاد التضخم والذى يؤدى بدوره إلى الركود لأن ارتفاع ثمن السلع والخدمات سوف يؤدى بالضرورة إلى إبطاء معدل بيعها أو رواجها وبالتالى يدفع المنتجين إلى تقليل إنتاجهم لأن السوق لا يقبل الكمية الموجودة، فما بالك بالمزيد؟ وهكذا يؤدى التضخم إلى الانكماش وانخفاض معدل النمو، ويدخل الاقتصاد فى حلقة مفرغة جهنمية تؤدى إلى المزيد من تناقص النمو حتى نصل إلى الانهيار الاقتصادى، حيث تعجز الشركات والمصانع عن مواصلة الإنتاج لتشبع السوق بالمنتجات وكل هذه السلسلة المحتومة نشأت أصلا من فرض " زيادة " على القرض أى " الربا ".

ولمزيد من التوضيح نقول: إن المقترض الذى أخذ المال أو بالأحرى النقد ليشترى به

شيئا ضروريا أو يحصل به على منفعة أو خدمة، فإنه فى الحقيقة يكون قد اشترى السلعة أو حصل على المنفعة بسعر أعلى من سعر السوق الآن، يعنى لحظة تناول القرض، لأنه مضطر إلى رد القرض نفسه والزيادة المفروضة فوقه التى يسميها القرآن "الربا" ونسميها الآن الفائدة . هذا بالنسبة لما نطلق عليه القروض الاستهلاكية أى القروض التى يضطر إليها أصحاب الحوائج الذين يجبرهم الفقر على اقتراض بعض النقد لتلبية احتياجاتهم الإنسانية مثل الحصول على الغذاء أو الكساء أو العلاج كإجراء عملية جراحية باهظة التكاليف .

أما المستثمر الذى يحصل على القرض من أجل شراء أدوات إنتاج أو بضاعة يتاجر بها فى السوق، فإنه مضطر باستمرار إلى زيادة سعر المنتج أو السلع التى يبيعها حتى يتمكن من رد القرض الذى تتزايد قيمته باستمرار بمجرد مرور الزمن، لأن نسبة الفائدة أو "الربا" تحدد سلفا بنسبة مئوية من قيمة القرض سنويا وتظل تتراكم الزيادة أو الفائدة " أى الربا " حتى تتجاوز قيمتها قيمة رأس المال (= القرض الأصلى الذى أخذه المقترض) .

وهكذا نرى أن ما يطلق عليها القروض الإنتاجية أو الاستثمارية التى يحصل عليها رجال أعمال أثرياء ليستثمروها فى السوق سوف تؤدى حتما إلى زيادة سعر السلع والخدمات أى التضخم، وما يستتبعه من أزمات محتومة تتعرض لها الأسواق على نحو دورى معروف، وكل ذلك بسبب الزيادة التى وضعت من البداية فوق القرض الأصلى، وهذا هو سبب تحريم بل محاربة الإسلام للربا الذى يعنى تحديدا وبوضوح تام ودون أى لبس أو لف ودوران تحويل النقود نفسها إلى " سلعة " تباع (وتشترى) بثمن أعلى من سعرها المفترض والمتفق عليه، وبالتالى تتغير وظيفتها من " بديل " للسلع يُسَهِّل التبادل ويضع المعيار للتثمين أى تحديد السعر لكى تكون هى نفسها سلعة تباع بسعر أعلى من قيمتها وهذا هو أصل الاضطراب فى السوق وأزمة الاقتصاد وسر التحريم .

وإذا كانت البنوك فى واقعنا الراهن تبيع وتشترى النقود بسعر أعلى من ثمنها المتفق عليه فكيف يمكن وصف عملها بالمشروعية ؟!!

أما حين يتم اقتسام " الربح " بعد رد القرض طبقا للنسبة المتفق عليها ، كما تفرض الشريعة الإسلامية ، فإننا فى هذه الحالة نتناول المال بعد دخول سلع جديدة فى السوق نتجت عن استثمار القرض ، أى أن المال الزائد المتمثل فى الربح يناظره ظهور سلع جديدة ، وبهذا يظل التوازن بين السلع الحقيقية والبديل النقدى لها قائما وكذلك الحال عند الخسارة لأن الخسارة تعنى الفشل فى إدخال سلع جديدة إلى التداول فى السوق ، أو خروج بعض السلع من التداول ، ومن ثم فإنها تعنى نقصاً فعلياً أو ممكناً فى كمية السلع المتداولة فى السوق ، ويقابل هذا النقص السلعى نقصا فى النقود فيبقى التوازن محفوظا بين السلع وبديلها النقدى وبهذه المعاملة وحدها أعنى المضاربة أى المشاركة فى الربح والخسارة يظل السوق مستقرا والاقتصاد ناميا .

ونفهم مما تقدم أن تحديد سعر الفائدة سلفا على القروض أو الودائع ليس هو موضع التحريم أو سبب محاربة الإسلام للربا ، بل يكمن " السر " فى تغيير وظيفة النقود وتحويلها إلى سلعة ، وبالطبع فكل مالك لأى سلعة لا يبيعها بنفس السعر الذى اشتراها به ، بل لابد له لكى " يربح " أن يضيف إلى سعر الشراء الذى تَمَلَّكَ به ، السلعة زيادة ، وإلا فلا معنى للمبادلة ولذلك احتج المرابون الذين يقرضون أموالهم للآخرين نظير زيادة (ربا) يضيفونها على قيمة القرض بأن هذا العمل ليس إلا بيعا حيث إنهم يبيعون " نقودهم " بثمن أعلى من الثمن الذى اشتروها به ، كما يفعل جميع التجار فليس من المعقول ولا المقبول أن نطلب من التاجر أن يبيع ما معه من السلع بنفس الثمن الذى اشتراها به ، فحينذاك يمتنع البيع عقلا أى ينعدم مفهوم البيع والشراء وتموت التجارة لذلك قالوا كما ذكر القرآن الكريم ﴿إنما البيع

مثل الربا ﴾ فنحن المرابين لا نفعل شيئا سوى بيع نقودنا ؛ ومحال عقلاً أن يُطْلَبَ منا بيعها بنفس سعرها . إذن فقد ساوى المرابون أنفسهم بالتجار واعتبروا النقود سلعة يمكن بيعها ، وبالتالى فلابد من زيادة سعرها أو ثمنها ورد الله على هذا الإدعاء بقوله ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ والبيع - إذن - هو مبادلة شئ بشىء آخر ليس من نفس نوعه أو جنسه سواء كان التبادل بين سلعة وأخرى (المقايضة) أو بين سلعة وبديلها النقدى أو بين عملتين نقديتين مختلفين (الصرافة) وهو ما نطلق عليه تحديدا البيع فى تعاملاتنا ، وقد أحل الله أن يحصل الإنسان " البائع " على ربح أى زيادة يحصل عليها فوق الثمن الذى دفعه فى سبيل الحصول على السلعة التى يبيعها تعويضا له عن جهده فى الحصول على السلع وتوفيرها لمن يحتاجها ، وعلى هذه المعاملة أعنى البيع / الشراء تقوم حياة الناس فى هذه الدنيا ، أما " الربا " فهو بيع النقود أى تحويلها إلى سلعة وتغيير وظيفتها وهو أمر حرمه الله ولم يقبل منطق المرابين أبدا .

" الربا " هو بيع النقود مقابل نقود من نفس العملة ولا يتم بيع إلا بزيادة السعر وهذه الزيادة هى الربا . ولا شك فى أن أبشع صور الربا هو ما يتجسم فيما يسمى "بورصة أو سوق الأوراق المالية" حيث يتم تحويل أصول الشركات والمصانع إلى عملات نقدية تَتَمثَلَ أو تُخَزَّنُ صوريا على هيئة أسهم، كل سهم منها يساوى مقداراً معينا من النقود، ثم تتم المتاجرة صورياً فى تلك الأسهم (العملات النقدية) بالبيع والشراء الصوريين. وبإطلاق الشائعات والدعاية السيئة وإثارة المخاوف وغيرها من أساليب الحرب النفسية أو " الألاعيب الشيطانية" وبالاستعانة بآلة الإعلام الجهنمية التى تتحالف مع أصحاب المصالح وقراصنة البورصات أو الأسواق المالية يتم الضغط والتلاعب بأعصاب المستثمرين الذين يخزنون أموالهم فى هذه الأوعية الورقية (الأسهم) ، فيندفعون إلى بيع بعض أنواع الأسهم ويقبلون على

شراء أنواع أخرى فى سباق محموم من أجل تجنب الخسائر " المتوقعة " أو جلب أرباح " منتظرة " ، فترتفع قيمة بعض الأسهم ويتحسن الموقف الاقتصادى لشركاتها ، وفى نفس الوقت تنخفض قيمة أسهم أخرى ويسوء الموقف الاقتصادى لشركاتها ، كل ذلك دون أدنى علاقة تُذْكَر بالموقف الاقتصادى الحقيقى القائم على إنتاج السلع وجودتها وقدرتها على تلبية احتياجات الناس الحقيقة ، بل يتم التحكم فى المصير الاقتصادى للشركات بل ولبعض الدول عن طريق القدرة على التلاعب فى الأسواق بالتلاعب بأعصاب المستثمرين فى الأوراق المالية بإثارة المخاوف أو المطامع . وهكذا يحقق البعض فى غمضة عين أرباحا طائلة لم تكن تخطر له على بال ، وتنزل الخسائر المهلكة بأناس لم يرتكبوا أى خطأ فى عملهم ، ولكنها " تقلبات السوق - كما يزعمون - التى يتحكم فيها ويديرها باقتدار قراصنة المال الكبار الذين يتلاعبون بالبورصات لصالح قلة قليلة من أصحاب النفوذ الذين يتحكمون فى الاقتصاد العالمى كله .

وعندما نرى العاملين فى البورصات أو أسواق المال ، وهم يقفون فى اضطراب ، عيونهم مشدودة إلى شاشات العرض التى تظهر عليها آخر تقلبات السوق أو أحدث الأسعار فيندفعون إلى الشراء أو البيع ، وهم يتصايحون شاخصة أبصارهم ويلوحون بأيديهم ، ويضع الواحد منهم على أذنيه الاثنتين سماعتى تليفون فيتكلم فى واحدة ويرد على المكالمة الثانية فى الأخرى ، بالإضافة إلى حديثه مع زملائه فى صالة البورصة بفمه وعينيه وحركات جسمه ... عندما نرى كل ذلك كما يطالعنا على شاشات التليفزيون فى نشرات الأخبار ، لا شك فى أننا ندرك صحة ما قاله القرآن حين وصف حال آكلى الربا ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾ لأنه مع الطمع الجامح فى تحقيق ثروة طائلة ، تأتى فى غمضة عين لمجرد ارتفاع طفيف فى سعر سهم أو جرام من الذهب ، ومع الخوف

المميت من نزول كارثة إذ تنهار أسعار الأسهم بسبب إشاعات قوية عن قرب وقوع حرب أو تغييرات سياسية لا يعلم أحد من المستثمرين الصغار شيئا عن أسبابها... مع هذا الخوف المميت وذلك الطمع الجامح لا بد أن يصاب الإنسان بالاضطراب الشديد فيبدو فى قيامه أو وقوفه وفى سيره وسائر سلوكه كالذى مسه الشيطان، فأخذ يتخبط لا يستقر على حال ولا يستقيم له طريق .

﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ﴾ قوله ﴿ فله ما سلف ﴾ يعنى ليس لأحد أن يحاسبه على المال الحرام الذى كسبه خلال ممارسته "للربا" قبل نزول تحريمه فالمحاسبة فى الدنيا تبدأ بعد نزول الحكم الإلهى وليس لمخلوق أن يحاسب غيره على ما سبق ظهور الشريعة . وقوله ﴿ أمره إلى الله ﴾ يعنى وحكمه لا يتعلق إلا بالله أو لا يرجع إلا لمشيئة الله وحده والضمير فى قوله " أمره " يعود إلى " ما سلف " يعنى إلى الربا السابق على نزول أمر التحريم، كما أنه يعود بنفس القدر إلى الإنسان المسلم الذى انتهى عن ممارسة الربا بعد أن جاءه موعظة من ربه وهذا الوعد الإلهى المحقق بالعفو " عما سلف " تشجيع للمؤمنين الذين كانوا يمارسون " الربا " على الانتهاء عنه وعلى الاجتهاد فى الطاعة جمعا للحسنات اللاتى يذهبن السيئات لأن " أمرهم " أى الحكم عليهم - فى الآخرة - لم يزل معلقا بالمشيئة الإلهية التى لم يكشف عنها بعد .

﴿ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ قوله ﴿ ومن عاد ﴾ نبوءة باهرة تحققت فى عصرنا هذا، حيث عادت بالفعل الأمة الإسلامية إلى ممارسة " الربا " عن طريق البنوك التى تشترى وتبيع النقود بسعرين مختلفين، حيث تأخذ النقود أو تشتريها حين تستقبل الودائع النقدية بسعر أقل من السعر الذى تبيعها به حين تعطى المستثمرين أو المحتاجين القروض، وتربح الفرق بين السعرين ولكن كلا السعرين أعلى من السعر المتفق عليه فى السوق أعنى قيمة النقود ولا شك فى أن

هذه الأسعار الثلاثة لنفس " السلعة " التى من المفترض أنها هى معيار التثمين أى تحديد أثمان (أسعار) السلع الحقيقية لا شك أن هذا هو أصل كل الأزمات والاضطرابات التى تجتاح الاقتصاد، ومن ثم فإن السبب الأصيل فى تحريم " الربا "، والذى يحدد معناه بدقة ووضوح هو تحويل النقود إلى سلع تباع وتشترى، أما التحديد المسبق لنسبة الفائدة على القروض أو الودائع، فعلى الرغم من مخالفته للأخلاق التى يدعو الإسلام إلى نشرها وترسيخها فى المجتمع حيث يدعو الإسلام إلى اعتبار المؤمنين أخوة، وإلى المشاركة والتعاون والمواساة، ويحارب الأثرة والغش والتنافس البغيض المقوض لمعنى أخوة المؤمنين، وهى أخلاق سيئة لا بد أن تنتشر مع "الربا "، حيث يسعى كل طرف من أطراف التعامل الثلاثة، المستثمر (= البائع أو المقرض) الذى أودع نقوده فى البنك، والبنك والمستثمر الذى يقترض (يشترى) النقود ... يسعى كل طرف منهم إلى تحقيق أكبر ربح وتجنب أى خسارة بغض النظر عما يصيب شركاءه الآخرين، على الرغم من ذلك فإن التحديد السابق لسعر الفائدة ليس هو موضع التحريم ولا سر محاربة الربا فى الشريعة الإسلامية لأن تحديد سعر الفائدة ليس إلا ثمرة اعتبار النقود سلعة يمكن بيعها .

نقول هذا بمناسبة الضجة التى يعلو صوتها، والجدال الذى سيشتد ويحتدم بسبب الفتوى التى " سربها " على استحياء مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر، والتى أفتى فيها بمشروعية التعامل مع البنوك التى تقرض (تبيع) بفائدة محددة سلفا واعتبار هذا التعامل غير " الربا " المنصوص على تحريمه نصاً قاطعا لأى شبهة، حيث لاحظنا أن الفتوى ومن يؤيدونها يركزون على التحديد المسبق لسعر الفائدة باعتباره - من وجهة نظرهم - الشبهة التى توحى بربوية التعامل ولذلك فإنهم ينفون شبهة " الربوية " بزعم أن التحديد المسبق لسعر الفائدة لا يخالف نصا قاطعا فى القرآن أو الحديث الشريف الصحيح، بل يعتبرون أن التحديد المسبق -

بزعمهم - يضمن الحقوق ويراعى مصلحة جميع الأطراف ومن ثم فهو الأقرب إلى العدل أى إلى تحقيق مطلب الشريعة الإسلامية .

وكذلك فإن المعارضين " يظنون " أن التحديد المسبق لسعر الفائدة على القروض والودائع هو الذى يدمغ هذا التعامل بالربويه، ويتبين لنا من خلال فهم النص القرآنى - كما قدمنا - " خطأ " ظن كلا الفريقين وغفلتهم جميعاً - فى حدود ما قرأنا - عن معنى " الربا " كما أفصحت عنه الآية رقم ٢٧٥ من سورة البقرة !!!

بالطبع تحتاج قضية " الربا وتعاملات البنوك إلى دراسة موسعة شاملة تجمع أشتات الموضوع فى سياق واحد وتجيب عن الأسئلة الكثيرة الهامة التى تثيرها هذه القضية الجوهرية، ولكن فى حدود هذا المقام الضيق لا تتبقى لنا إلا نقطة واحدة نريد أن نبينها بدقة ووضوح وصراحة، وهى أن تعامل البنوك فى عصرنا الراهن ليس جديداً كما يدعى ويروج الذين يؤيدون فتوى التحليل، إذ يزعمون أن البنوك وما يجرى فيها من تعاملات شئ جديد تماماً لم يعرفه العرب والمسلمون فى الأزمنة السابقة ومن ثم فإن حكم " الربا " لا ينطبق عليها، وأن الحكم على البنوك وتعاملاتها إنما يخضع لرأى الخبراء والمتخصصين فى الاقتصاد باعتبارهم أهل الذكر (كذا)، أو أهل الحكم فى الموضوع العلمى الجديد الذى لم يسبق له مثيل فى حضارتنا سواء قبل الإسلام أو بعده ؟!! وإلى هؤلاء نقول إن الجاهلية الأولى قبل ظهور الإسلام كانت تعرف **نوعين من الربا** :

الأول : ربا النسيئة :- أى التأخير أو التأجيل ومعناه أن يقرض المرابى نقوده للآخرين مقابل أن يردوها إليه بالإضافة إلى زيادة (ربا) تحددها المدة الزمنية (الأجل) فكلما زادت المدة الزمنية (الأجل) زادت الفائدة (الربا) .

الثانى : ربا الفضل :-وهو أن يقوم المرابى بتمويل القوافل التجارية يعنى بيع النقود إلى التجار الذين يشترون بها بضائع ويجهزون قوافلهم ثم يبيعون وعند عودة

القافلة يردون القرض الأصلى (أو الدَّيْن) ومعه الزيادة (الربا) التى اتفق عليها سلفًا وهذه الزيادة تتأتى من الفضل أو الربح الذى حصل عليه التجار من بيع بضاعتهم .

وبقدر بسيط من التأمل نجد أن البنوك المعاصرة لا تفعل شيئًا فى الحقيقة سوى ما كان يفعله المرابون العرب فى أيام الجاهلية الأولى فهى تقرض وتقترض أى تبيع وتشترى النقود نظير زيادة (ربا) تحددها سلفًا طبقًا للمدة الزمنية (الأجل)، وإلا فما معنى أن نسبة الفائدة هى ٧٪ أو ٢٠٪ سنويًا وهى تقرض (تبيع) النقود لأصحاب الحاجات وأصحاب المشروعات ورجال الأعمال من التجار والصناع .

فما هو الفرق الجوهرى بين ما كان يفعله المرابى قديمًا وما يفعله البنك حديثًا؟!!! ولا نحتاج إلى مجرد الإشارة إلى أن القرآن الكريم والحديث النبوى الصحيح قد حَرَّمَا تحريمًا قاطعًا كلا النوعين من الربا ولم يفرقا بين النسيئة والفضل أو بين القروض الاستهلاكية والقروض الإنتاجية أو الاستثمارية، كما أن تسمية "بيع النقود" باسم عقد استثمار كما يقترح البعض تحذلقًا لن تغير من حقيقة "الربا" شيئًا، ولن تقلل من فداحة تأثيره المدمر على المجتمع الإنسانى، ولن تحمى الشعوب الفقيرة من الاستغلال البشع الذى تمارسه القوى الغربية الرأسمالية عبر القروض وفوائدها الباهظة التى تصير بمجرد مرور الوقت أكبر من أصل الدين، وتتجاوز معدل النمو فى اقتصادات الدول الفقيرة مما يجعل التنمية فى تلك الدول، وفى إطار هذا النموذج الغربى الرأسمالى مجرد أمل بعيد بل "وهم" مستحيل التحقيق ولكن تلك قصة أخرى !!!

وبعد فإن ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾.

﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحى من حي عن بينة ﴾ صدق الله العظيم

١٤٧- يراجع كتاب " كشف الأقنعة عن نظريات التنمية " للأستاذ الدكتور / جلال أمين - دار الهلال - القاهرة ٢٠٠٢م ، وهو دراسة رائعة تبين بل تفضح تبعيتنا الفكرية للغرب .

١٤٨- كتاب : " الإسلام والعولمة " ، ص ١٦٥ .

١٤٩- " تقرير لوجانو " دراسة كتبتها الباحثة الأمريكية " سوزان جورج " عن حلقة بحث عالية المستوى وبالغة السرية جمعت عدداً من أكبر الخبراء فى العالم ليتباحثوا ويتشاوروا فى مستقبل الرأسمالية فى القرن الحادى والعشرين ، وقد كتبوا تقريراً هاماً يلخص المناقشات والنتائج الهامة التى توصلوا إليها بشأن التهديدات المحتملة للنظام الرأسمالى أو اقتصاد السوق الحرة ، وقد نشر ذلك التقرير الذى سمى " تقرير لوجانو " على اسم البلدة السويسرية التى عقدت فيها حلقة البحث تلك ونشرت الدراسة فى كتاب أخذ عنوان " الحفاظ على الرأسمالية فى القرن الحادى والعشرين " ، وقد ترجم الكتاب الأستاذ / محمد مستجير مصطفى ، ونشرته دار سطور تحت عنوان " مؤامرة الغرب الكبرى " بالقاهرة عام ٢٠٠١م .

١٥٠- المصدر السابق .

١٥١- المصدر السابق .

١٥٢- كتاب " كشف الأقنعة عن نظريات التنمية " تأليف الدكتور / جلال أمين .

١٥٣- سورة الزخرف - الآية (٢٢) .

١٥٤- سورة الزخرف - الآية (٢٣) .

١٥٥- سورة المائدة - الآية (١٤٨) .

١٥٦- سورة هود - الآية (١١٨) .

١٥٧- سورة هود - الآية (١١٩) .

١٥٨- سورة النحل - الآية (٩٣) .

١٥٩- سورة النحل - الآية (١٢٠) .

١٦٠- سورة الأنعام - الآية (١٣٨) .

وقوله ﴿مافرطنا فى الكتاب من شئ﴾ يعنى ما تركنا أى شئ سجلناه فى كتاب العلم دون أن نخرجه من ذلك الكتاب (الغيب) ونظهره فى الشهادة حتى يأذن الله بعودته للاختفاء فى ذلك الكتاب مرة أخرى إلى أن يأتى يوم القيامة عندما تجمع كل الخلائق فى مقام واحد بين يدى ربهم وهذا هو مضمون قوله ﴿ ثم إلى ربهم يحشرون﴾ .

١٦١- سورة آل عمران - الآية (١٣٧) .

١٦٢- سورة الحجرات - الآية (١٣) .

١٦٣- مناقشة هذه الحقيقة تخرج عن نطاق هذا البحث ، ولكن يكفى أن نتذكر ما قاله القرآن الكريم وهو يتحدث عن فريضة الحج ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا﴾ حيث جعل الكعبة ، البيت الحرام الموجود بمكة مكانا يعود (يثوب) الناس إليه فهو مثابة ومعنى هذا أن جميع الناس كانوا هناك من قبل فى صلب آدم ثم أصلاب أبنائه من بعده وبالحج يثوب الناس إلى البيت الذى كانوا عنده من قبل !!!

١٦٤- سورة هود - الآية (٨)

١٦٥- سورة يوسف : الآية (٤٥)

١٦٦- سورة الأعراف - الآية (١٥٨) .

١٦٧- سورة الحجرات - الآية (١٣)

١٦٨- سورة الروم - الآية (٢٢).

١٦٩- سورة الأنفال - الآية (٦٣)

١٧٠- سورة الحجرات - الآية (١٠)

١٧١- سورة الحجرات - الآية (٩) .

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ العدل" : الحكم بما أنزل الله أو موافقة حكم الله على قدر الاجتهاد.

"القسط" : تنفيذ العدل أى تطبيق حكم الله أو الحكم الموافق لشريعة الله، فالعدل أمر أو قرار والقسط تنفيذه .

١٧٢- سورة الأنعام - الآية (١٥٩) .

١٧٣- ص ١٢١ من كتاب " كلنا أخوة شيعة وسنة " تأليف الدكتور / عبدالودود شلبى - الدار المصرية اللبنانية - ١٩٩٨ (نقلا عن كتاب ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين تأليف الشيخ عبدالجليل عيسى - دار القلم - القاهرة) .

١٧٤- المصدر السابق - ص ١١٢ .

١٧٥- المصدر السابق - ١١٢ .

١٧٦- المصدر السابق - ص ١٢٣ .

١٧٧- المصدر السابق - ص ١٢٧ .

١٧٨- سورة الروم - الآيتان (٣١-٣٢).

١٧٩- سورة الأنعام - الآية (١٥٩) .

١٨٠- سورة آل عمران - الآية (٢٨).

قوله ﴿ فليس من الله فى شئ ﴾ يعنى فلن يوجد فى "شىء "صدر من الله أى لن يدخل فى " شئ " خرج من غيب الله وهو منسوب إلى الله وحده ولن يجتمع بالتالى مع الله فى «شئ » لأن ذلك " الشىء" الصادر من الله أو الخارج من غيب الذات الإلهية يكون به الحضور عند الله والقيام بين يديه (سبحانه وتعالى) وذلك الشئ هو روح الله ، الرحمة المهداة والنعمة المسداة (ﷺ) .

١٨١- سورة المائدة - الآية (١٥١) .

وأعتقد أن الأحداث الجارية فى عصرنا الراهن تبين بجلاء صحة قوله (سبحانه وتعالى) " بعضهم أولياء بعض " .

١٨٢- سورة المائدة - الآية (٥٧) .

١٨٣- سورة الأنفال - الآية (٤٦) .

١٨٤- سورة المائدة - الآية (٢) .

١٨٥- سورة الأنعام - الآية (١٥٣) .

١٨٦- سورة آل عمران - الآيات (١٠٣-١٠٥) .

١٨٧- سورة الضحى - الآية (١١) .

١٨٨- سورة إبراهيم - الآية (٢٨) .

١٨٩- سورة الأنبياء - الآية (٩٣) .

١٩٠- سورة المؤمنون - الآيتين (٥١ ، ٥٢) .

١٩١- سورة الأنبياء - الآية (٩٣) .

١٩٢- سورة المؤمنون - الآية (٥٣) .

١٩٣- العالم الإسلامى المعاصر ، تأليف الدكتور / جمال حمدان - دار الهلال - القاهرة .

أهم المراجع

١ - القرآن الكريم

٢- الكتاب المقدس .

٣- القرن الحادى والعشرون هل يكون أمريكيًا ؟ ! تأليف دكتور / سعيد اللاوندى - دار نهضة مصر - القاهرة - يناير ٢٠٠٢م .

٤- قراءة فى فكر التبعية - تأليف الأستاذ / محمد جلال كشك ، مكتبة التراث الإسلامى - القاهرة ١٩٩٤م .

٥- الفرصة السانحة - التحديات التى تواجه أمريكا فى عالم ليس به إلا قوة عظمى واحدة - تأليف ريتشارد نيكسون - ترجمة أحمد صدقى مراد - دار الهلال - القاهرة ١٩٩٢م .

٦- المسيح اليهودى ونهاية العالم - تأليف الأستاذ / رضا هلال - مكتبة الشروق - الطبعة الثالثة - القاهرة ٢٠٠١م .

٧- أمريكا طليعة الانحطاط - تأليف روجيه جارودى - ترجمة عمرو زهدى - الطبعة الثانية - دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٠م .

٨- أقنعة العولمة السبعة- تأليف دكتور / نبيل راغب - دار غريب - القاهرة ٢٠٠١م .

٩- التنوير الزائف - تأليف دكتور / جلال أمين - سلسلة كتاب اقرأ (رقم ٦٤٠) - دار المعارف - القاهرة - فبراير ١٩٩٩م .

١٠- كشف الأقنعة عن نظريات التنمية الإقتصادية - تأليف دكتور / جلال أمين - دار الهلال - القاهرة - فبراير ٢٠٠٢م .

١١- حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية .

تأليف دكتور / مصطفى عبدالغنى - مكتبة الأسرة - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ٢٠٠١م .

١٢- الإسلام والعولمة - مجموعة من الكتاب - دار القومية العربية - القاهرة .

١٣- المسلمون والعولمة - تأليف الأستاذ / محمد قطب . دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٢م .

١٤- الإسلام فى معركة التغريب - تأليف الأستاذ / أنور الجندى - كتب إسلامية - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - مايو ١٩٦٤م .

١٥- قبول الآخرة - تأليف دكتور / ميلاد حنا - الإعلامية للنشر - الطبعة الثالثة - القاهرة ٢٠٠٠م .

١٦- صراع الحضارات فى القرن الحادى والعشرين - تأليف دكتور / أحمد شلبى - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الثالثة - القاهرة ١٩٩٧م .

١٧- العالم الإسلامى المعاصر - تأليف دكتور / جمال حمدان - كتاب الهلال - دار الهلال - القاهرة .

١٨- مؤامرة الغرب الكبرى - (تقرير لوجانو) تأليف سوزان جورج - ترجمة محمد مستجير - دار سطور - القاهرة ٢٠٠٢م .

١٩- رؤى إسلامية معاصرة - مجموعة من الكتاب - كتاب العربى (٤٥) - الكويت .

٢٠- كلنا أخوة شيعة وسنة - تأليف الدكتور / عبدالودود شلبى - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة ١٩٩٨م .

٢١- الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم - تأليف دكتور / يوسف القرضاوى - مكتبة وهبة - ١٩٩٥- القاهرة .

٢٢- الوحدة الإسلامية ، تأليف الشيخ / محمد أبو زهرة - منشورات المؤتمر السادس لمجمع البحوث الإسلامية - القاهرة ١٩٧١م.

٢٣- معالم الوحدة فى طريق الأمة الإسلامية ، تأليف دكتور / عمر يوسف حمزة والدكتور / أحمد عبدالرحيم السايح - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة ١٩٩٣م.

٢٤- القرآن معجزة كل العصور - تأليف دكتور / توحيد الزهيرى - دار الشعب - القاهرة ٢٠٠١م .

هذا الكتاب

دراسة جادة من أجل فهم أعمق لأزمة العالم الإسلامى المعاصر الذى لاشك فى أنه يعانى أشد المعاناة من مشكلات كثيرة وصعوبات جمة تعترض طريق الأمة الإسلامية. وقد خلص الكاتب إلى أن «سر» الأزمة التى تضرب فى جذور الأمة الإسلامية إنما يكمن فى علاقتها المريضة غير السوية مع المشروع الحضارى للغرب.

إنها فى جوهرها أزمة حضارية ذات أربعة أوجه تمثل التحديات التى تواجه العالم الإسلامى أو بالأحرى ينبغى عليه أن يواجهها:

(١) التبعية للغرب وهى تحدى الرسالة الإسلامية.

(٢) التقريب وهو تحدى الهوية الإسلامية.

(٣) التمزيق السياسى وهو تحدى الوحدة الإسلامية.

(٤) اسرائيل أو المشروع الصهيونى فى قلب العالم الإسلامى الذى يمثل تحدى الوجود الإسلامى على كافة المستويات إذ يجسد ذروة الصراع المحتدم بين الإسلام والغرب الاستعمارى.

الناشر

دار الجميل للنشر والتوزيع والاعلام
AL GAMIL Publishing, Distribution and Media

مطابع الشرطة ت: ٥٩٠٣٠٣٠